جامعة القاهرة

كلية الآداب

يصدرها قسم التاريخ

المؤرخ المصري

دراسات وبحوث تاريخية محكمة

العدد الثالث عشر

يوليو ١٩٩٤

قواعـــد النشـــر

- ترحب المؤرخ المصرى بنشـــر الأبحـاث والدراســات الأصليـة ذات المستوى الأكـاديمى الجاد بعد التحكيم ، فضـلاً عن مراجعات وعـرض الكتب الجديدة .
- تقبل المـؤرخ المصـرى للنشـر الأبحـاث التاريخيـة والحضاريـة المكتوبـة باللغتين العربية والإنجليزية على ألا يزيد عدد صفحـات البحث أو المقـال عن ٣٠ صفحة مطبوعة على الآلة الكاتبة على ورق حجم كوارتر بما فـى ذلك الهوامش والجداول وقائمة المراجع .
- المؤرخ المصرى لا تنشر بحوثاً سـبق أن نشـرت أو معروضـة للنشـر فـى مكان آخر، وتقوم رئاسة التحرير بإخطـار المؤلفين بإجـازة بحوثهم للنشـر بعد عرضها على هيئة التحكيم .
- تحتفظ المؤرخ المصرى لنفسـها بحـق القبـول أو رفـض الأبحـاث أيا كـان قرار هيئة التحيكم .
- النشـر فـى المـؤرخ المصـرى متـاح لأعضـاء هيئـة التدريـس بالجامعـات المصرية والعربية والأجنبية وسائر المهتمين بالدراسات التاريخية .
- الآراء الـواردة بالمــؤرخ المصـرى تعبر عن وجهة نظـر أصحابها .

المؤرخ المصرى

العدد الثالث عشر يوليو ١٩٩٤

المراسلات :

ترسل البحوث والمقالات باسم السيد الأستاذ الدكتور / **سيد أحمد الناصرى** رئيس التحرير على العنوان التالى :

كلية الآداب - جامعة القاهرة (قسم التاريخ)

بريد الأورمان - جيزة

بسم الله الرحمن الرحيم

افتتاحية العدد

إنه لمن دواعى السرور والفخر أن يصدر العدد الثالث عشر من المؤرخ المصرى استمراراً للمسيرة العلمية المباركة التي يحرص القسم على اعطائها الدفعة القوية.

ولقد تصادف صدور هذا العدد عقد جامعة السطان قابوس ندوتها العلمية عن "عمان فى التاريخ" احتفالا بعام ١٩٩٤ عام التراث والتى شارك فيها عشرون من خيرة المؤرخين المصريين الذين أداروا المناقشات وألقوا البحوث وكانوا صورة مشرفة لوطنهم وللبحث العلمى. ولقد قامت وزارة الإعلام العمانية مشكورة بتقديم كافة الدعم والرعاية لوفود المشاركين من المصريين والعرب والمؤرخ المصرى تتقدم بوافر التهنئة لمعالى وز ير الإعلام العمانى ولسعادة الدكتور رئيس جامعة السلطان قابوس وللقيادات العلمية في هذا البلد الكريم على نجاح هذه الندوة وعلى الإنجاز الكبير الذى ساهمت به فى مجال إحياء تاريخ عمان العريق بدءا منذ العصور القديمة حتى عصر جلالة السلطان المعظم قابوس بن سعيد مفجر النهضة العمانية الحديثة.

فى هذا العدد نحرص على تنوع المقالات وعلى المستوى العلمى اللائق لها. إذ يتضمن هذا العدد سبع مقالات لباحثين جادين كما يتضمن عرضا لكتاب هام للدكتور عبد الرحمن بدوى وإن هيئة التحرير لترجو للقارئ استفادة علمية تليق بهذا المجهود الذى بذلناه لإخراج هذا العدد .

رئيس التحرير

بسم الله الرحمن الرحيم

افتتاحية العدد

إنه لمن دواعى السرور والفخـر أن يصـدر العـدد الثـالث عشـر مـن المـؤرخ المصرى استمراراً للمسيرة العلمية المباركة التي يحرص القسم على اعطائهـا الدفعـة القوية.

ولقد تصادف صدور هذا العدد عقد جامعة السلطان قابوس ندوتها العلميـة عن "عمان فى التاريخ" احتفالا بعام ١٩٩٤ عام التراث والتى شارك فيها عشرون من خيرة المؤرخين المصريين الذين أداروا المناقشات وألقوا البحوث وكانوا صـورة مشرفة لوطنهم وللبحث العلمى. ولقـد قـامت وزارة الإعـلام العمانيـة مشـكورة بتقديم كافة الدعـم والرعايـة لوفـود المشـاركين مـن المصريـين والعـرب والمـؤرخ المصرى تتقدم بوافر التهنئة لمعالى وز ير الإعلام العمانى ولسـعادة الدكتـور رئيـس جامعة السلطان قابوس وللقيادات العلمية في هـذا البلـد الكريـم علـى نجـاح هـذه الندوة وعلى الإنجاز الكبير الذى ساهمت به فى مجال إحياء تـاريخ عمـان العريـق بدءا منذ العصور القديمة حتى عصـر جلالـة السـلطان المعظـم قـابوس بـن سـعيد مفجر النهضة العمانية الحديثة.

فى هذا العدد نحرص على تنوع المقالات وعلى المستوى العلمى اللائـق لهـا. إذ يتضمن هذا العدد سبع مقالات لباحثين جادين كما يتضمن عرضا لكتاب هـام للدكتور عبد الرحمن بدوى وإن هيئة التحرير لترجو للقارئ استفادة علميـة تليـق بهذا المجهود الذى بذلناه لإخراج هذا العدد .

رئيس التحرير

الجالية الهندية فى شرق أفريقيا

بين هامرتون والسيد سعيد (١٨٢٣ - ١٨٥٦)

د. بنيان سعود تركى

قسم التاريخ - جامعة الكويت

مقدمـــة :

لعب الهنود دوراً أساسياً ومؤثـراً فـى أوجـه الحيـاة المختلفـة فـى شـرق أفريقية. وكـانت العلاقـات الهنديـة مـع شـرق أفريقيـة تمتـد فـى جذورهـا إلـى عصور موغلة فى القدم. ومن شـبه القـارة الهنديـة قدم إلـى السـاحل الشـرقى لأفريقية تجار مـن كتـش Cutch وكيثـوار Cathiwar وجوجـرات Gujurat إلا أنهم كانوا تجار موسميين. وكان معظم أولئك التجـار الهنـدوس أو المسـلمين. وفى عام ١٨٣٢ نقل السيد سعيد بن سلطان - سلطان عمان مقر عاصمته مـن مسقط على الجانب الأسيوى إلى زنجبار على الجانب الافريقـى. وكـان السـيد سعيد يأمل بتأسـيس إمبراطوريـة تجاريـة مترامية الأطـراف ممـا دفعـه علـى تشجيع الهنود على الاتجار والاستقرار فى أملاكه فى شرق افريقية. وفى عام ١٨٤٠ استقر السيد سعيد فى عاصمته الجديدة زنجبار وتبعه اتكـنز هـامرتون المعين كقنصل بريطانى وكوكيل سياسى لحكومة بومبى البريطانية لدى السـيد سعيد.

إن الهدف من هذه الدراسة هو تتبع وتحليل الأسـاليب والمـبررات التـى لجأ إليها كل من هـامرتون والسيد سـعيد خـلال الفترة مـا بيـن ١٨٣٢ لغايـة ١٨٥٦ لكسـب ود الجاليـة الهنديـة ورضاهـا بهـدف السيطرة عليهـا. وتـتركز محاور هذه الدراسة على خلفية تاريخيـة، ثـم تسـتعرض مواقـف السـيد سـعيد تجاه الجالية الهندية، كما تتناول إتفاقية ١٨٣٩ وشرح بنودها. كما نتطرق إلى

المبررات الايديولوجية و (الانسانية) التى لجأ إليها هامرتون، وموقف السيد سعيد والجالية الهندية تجاهها، مع إستعراض لدور الهند المباشر فى تجارة الرقيق فى شرق افريقية.

خلفيــة تاريخيــة :

من أقدم المصادر التى أشارت إلى الوجود الهندى فى شرق أفريقية كتاب وضعه ملامح أغريقى فى القرن الأول الميلادى عرف باسم (الدليل الملاحى للبحر الأرتيرى) The Periplus of the Erythrean sea(١) وكان ضمن ما احتواه الدليل وصف وتاريخ لموانى شرق افريقية وأحوالها التجارية، ومع قلة ما ذكره حول النشاط التجارى الهندى فى تلك الموانى، إلا أن أهمية تكمن فى كونه أو مصدر أكد وجود علاقات تجارية بين الهند وشرق أفريقية.

أما الفترة اللاحقة وحتى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى فكان أبرز ما يميزها شح المعلومات حول الوجود الهندى فى شرق افريقية(٢). وفى عام ١٤٩٨ زار القبطان البرتغالى فاسكودى جاما Vascoda Gama الساحل الشرقى لأفريقية وكان فى طريقه إلى الهند. وذكر فاسكودى جاما بأنه وجد العديد من التجار الهنود من طائفة الهندوس مستقرين بموانى أفريقية الشرقية(٣). أما الرحالة البرتغالى دوارات باربوسا الذى زار الهند ١٥٠٠،

---

(1) G. S. P. Freeman Grenville. Medieval History of the Coast of Tanganijka. Berlin, 1962 pp. 24 - 5. See also Robert Gregory : India and East Africa : Oxford University Press, 1971 P. 9.

(2) Ibid. See also George. Delf. Asian in East Africa. London: Oxford Universitv Press, 1963. P. 1.

(٣) السيد رجب حراز. أفريقية الشرقية والاستعمار الأوربى، القاهرة: دار النهضة العربية ١٩٦٨ ص١٠٩.

١٥١٦ فقد أشار إلى أزدهار التجارة بين الهند وساحل أفريقية الشرقى. ويبين د. حراز أن باربوسا ذكر أن السفن القادمة من مملكة كامبى Camby الهندية والمتجهة إلى شرق أفريقية كانت ترسو عادة فى بمبة وملندى ومقديشو(٤). وكانت تلك العمليات التجارية تتم عن طريق المقايضة . إذا كان التجار العرب المقيمون بتلك الموانى يقايضون تجار كمبى على ما كانوا يجلبونه من أقمشة وتوابل وقمح فى مقابل حصول التجار الهنود على الذهب والعاج والصمغ. كما ذكر د. حراز بأن باربوسا أشار إلى أن سلاطين زنجبار كانوا يلبسون الأقمشة الحريرية والقطنية التى يجلبها تجار كمبى الهنود، والتى كانت تجرى عليها المقايضة فى ممبسة(٥).

وكما كان حال العرب استفاد الهنود من موقعهم الجغرافى وتوجههم البحرى، وكذلك ساعدتهم الظروف الجغرافية والمناخية فى تنمية وتطوير علاقاتهم التجارية مع شرق أفريقية. وكان مما سهل ذلك معرفة الهنود بحركة الرياح الموسمية المنتظمة. إذ فى شهر ديسمبر تهب الرياح من الشمال الشرقى حيث تصل بهم إلى الساحل الشرقى لأفريقية. أما فى مارس فتهب الرياح من الجنوب إلى الغرب فتعود بهم إلى موانى الهند الغربية. وكان التعامل التجارى يتم خلال دورة الرياح تلك باستخدام سفن يطلق عليها الداو(٦).

وكانت الفترة من القرن العاشر الميلادى وحتى مقدم البرتغاليين فى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى فترة أزدهار للمدن العربية على طول الساحل الشرقى لأفريقية بسبب سيطرة العرب على تجارة المحيط الهندى. وفى أواخر القرن الثامن عشر نشطت عمان ملاحيا وتجاريا. وكانت السفن

---

(٤) المرجع السابق.

(٥) المرجع السابق ص١١٠.

(٦) الداو جمعها داوات سفن شراعية تقليدية ذات شراع واحد مثلث الشكل.
G. A. Ballord. The Rulers of the Indian Ocean. London, 1927. pp. 3 - 4.

العمانية والتجار العمانيون يسـهمون بدور بـارز فـى تجـارة المحيط الهندى. وكان التجار العمانيون يعملون "كموزعين ومنظمين للسلع التجارية التى كانت ترد من ملاكا وكلكتا وبتافيا، فضلا عن التجارة الداخلية لمدينة مسـقط وميناء زنجبار الخاضع لعمان"(٧).

ومن شبه القارة الهندية قدم إلى الساحل الشرقى لأفريقية تجـار، وكـان معظمهم من الهندوس أو المسلمين حيث تاجروا مع سكانه. وكـان المسلمون الهنود قد قدموا بشكل أساسى من بومبى وكتش وسورات، بينما قدم الهنـدوس من كتش وجمنجار وكلها فى غرب الهند(٨).

وفى شرق أفريقية كـانت علاقـة التجـار الهنـود بالسكان المحليين من عرب وسواحليين متوترة فى البداية، ووضعـت العديـد مـن العراقيل أمـامهم، وكـان يسمـح لهـم فقـط بالبقـاء فـى الموسـم الـذى كـانت تهـب فيـه الريـاح الموسمية(٩). مما يفسر عدم وجود مناطق استقرار للهنود على طول السـاحل الشرقى لأفريقية، إلا أن ذلك لم يمنع إستقرار أعداد محدودة من الهنـود علـى طول الساحل، وبالذات فى المدن الكبيرة.

وكان لنجاح البرتغال خلال السنوات الأولى مـن القـرن السـادس عشـر فى بسط سيطرتها على معظم الساحل الشرقى لأفريقية، ولجوئها إلى سياسة

---

(٧) روبرت جيران لاندن. عمان منذ ١٨٥٧ مسيراً ومصيراً. ترجمـة محمـد أمين عبد الله سلطنة . عمان وزارة التراث القومى. ١٩٦٦ ص٥٧.

(8) Chattopadhyya, H. Indians in Africa. Calacutta, 1970. p. 347. See aiso. Delf, G., Op. cit., p.1.

(9) Public Record Office. Foriegn Office Records (hereafter cited as F. O.) F. O. 84 Vol. 1391 58 "Memorandum by Sir Bartle Frere. regarding Banians or Nantives of India in East Africa. Inclosure 1 in Frere to Granville 16 April, 1876.(hereafter cited as the Memo randum).

انظر ملحق رقم (٢).

الاحتكار التجارى، ومحاولة عزل الداخل عن الساحل قد أدى إلى التأثير على مجمل الأوضاع الاقتصادية فى شرق أفريقية. وكان لذلك أثره فى إنحسار التجارة وركودها . بيد أن البرتغاليين قد لجأوا إلى استغلال الهنود ، والاستفادة منهم كمحاسبين وأصحاب بنوك(١٠). وكان لنجاح العمانيين فى طرد البرتغاليين من الخليج العربى، وتتبع فلولهم فى شرق أفريقية وبخاصة فى عام ١٦٩٨ أثره فى عودة النشاط التجارى، وأخذ التجار العرب والسواحليون مرة أخرى فى السيطرة على معظم التجارة الأجنبية فى شرق أفريقية. ويذكر القبطان البحرى الانجليزى الكابتن سمى SMEE بأنه فى بداية القرن التاسع عشر كانت التجارة الأجنبية فى شرق أفريقية بشكل أساسى فى يد العرب المنتمين إلى مسقط والمكلا، وبعض الهنود الهندوس(١١). إلا أن وضع الهنود تحسن وبشكل كبير مع قدوم السيد سعيد بن سلطان البو سعيدى سلطان مسقط إلى زنجبار (١٨٠٦ - ١٨٥٦). كما أخذ الهنود يسهمون بشكل أكبر فى عمليات التجارة فى المحيط الهندى، مما كان له أثره فى تثبيت دورهم فى اقتصادياتهم شرق أفريقية.

---

(10) Gregory,R. Op. cit, pp. 15 - 16.

(11) Indian Office Records, Marine Records Miscellanous, 586. Smee's Description of the Island of Zanzibar, 1811.

السيد سعيد فى زنجبار :

أخذ السيد سعيد ابتداء من ١٨٢٨م يولى أملاكه فى شرق أفريقية جل إهتمامه. وفى عام ١٨٣٢ نقل مقر عاصمة حكمه من مسقط على الجانب الأسيوى إلى زنجبار على الجانب الأفريقى. وكان السيد سعيد يحلم بتأسيس أمبراطورية تجارية، مما كان له أثره فى فتح بلاده على مصراعيها أمام الدول الأجنبية. كما صحب معه عددا من التجار الهنود من طائفة الهندوس يطلق عليهم "البانيان" إلى زنجبار(١٢).

كان السيد سعيد يهدف من وراء تشجيع الهنود على الاتجار والاستقرار فى زنجبار إلى تنمية وتطوير أمبراطوريته التجارية التى كان يحلم بتحقيقها. وكان السيد سعيد قد سبق له وأن تعامل مع التجار وبالذات الهندوس "البانيان" فى مسقط . وكان على دراية بقدراتهم المالية والتجارية . وكان التجار الهنود من جانبهم يعهدون فى السيد سعيد تسامحه الكبير حيث منحهم الحرية الدينية ليمارسوا طقوس شعائرهم. كما كان يعاملهم معاملة طيبة، وفى نفس الوقت لم تكن هناك قيودا تفرض على نشاطهم التجارى. وفى هذا الصدد يذكر روت (١٩٨٣) إنه لما كان السيد سعيد يخلو من التعصب العرقى فإنه كان "يدرك أن مصلحة بلاده تتفق ومصلحة هؤلاء "البانيان" وأن "البانيانى" الواحد يجر بعده عشرة من بنى قومه.." وكان الثواب على ذلك انتعاش تجارته وتحسن

---

(١٢) كلمة "بانيان" تطلق على كل تاجر هندى سواء أكان مسلما أم هندوسيا فى شرق أفريقيا. ولفظ "بانيان" تحريف لكلمة بهاتيا وهى لحدى الطبقات التجارية فى الهند اقترن تاريخها بالإتجار مع الخارج لاندن، مرجع سبق ذكره ص١١٧. انظر ايضاً حراز، مرجع سبق ذكره ص١١٠.

أحوال رعيته(١٣). كما أن السيد سعيد لم يمنح أولئك القادمين الجدد (الهنود) امتيازات تجارية، لاعتقاده الراسخ فى حرية التجارة كما أن أسلوب التجار الهنود ونشاطهم فى المجال التجارى كان هو الذى يضفى عليهم نفوذا خاصا. كما أن السيد سعيد منح التجار الهنود امتيازات معنوية تفوق ما كانوا يأملونه من حكم أو سلطان، مما كان له أثره فى نجاح الهنود فى أن يكونوا الطبقة الرئيسية من بين المشتغلين بالتجارة فى زنجبار(١٤). وهنا لابد من توضيح بعض النقاط الجوهرية :

أولا : يعود الفضل فى نجاح التجار الهنود فى زنجبار إلى السياسة الاقتصادية الأنفتاحية التى إنتهجها السيد سعيد، فلولا تشجيعه لهم على الاتجار، والاستقرار فى أملاكه فى شرق أفريقية، وعدم فرض القيود على تجارتهم لما نجحوا فى تحقيق السيطرة على الشئون الاقتصادية فى زنجبار.

ثانيا : كما أشرنا سابقا كان الهنود قبل مقدم السيد سعيد لايسمح لهم بالاتجار إلا فى الموسم الذى كانت تهب فيه الرياح الموسمية.

ثالثا : عامل السيد سعيد التجار الهنود كتجار محليين، كما سمح لهم بالاتجار فى منطقة بمبه والمريمة الخاضعة لنظام الاحتكار ، والتى كان لايسمح للتجار إلا جانب بأرتيادها.

رابعا : كان السيد سعيد ـ أو كما أطلق عليه الأمير التاجر ـ يرغب فى تطوير وتنظيم إمبراطوريته التجارية، ومن المعتقد أنه كان يرغب فى أن يكون لكل فئة من سكان زنجبار مهنة محددة. إذ شجع التجار الهنود على

---

(١٣) رودلف سعيد روت. سلطنة عمان خلال حكم السيد سعيد بن سلطان – ١٧٩١ – ١٨٥٦. ترجمة عبد المجيد حسيب القيسى. البصرة: مركز دراسات الخليج العربى ١٩٨٣ ص١٨٧.

(14) R. Coupland. East Africa and ist Invaders. Oxford: Clarendon Press, 1938. p. 302 - 303 See also Gregory, R. Op. cit. p. 17.

الاتجار ، والاستقرار فى أملاكه فى شرق أفريقية، مما أهلهم للعمل كسماسرة ووسطاء للعمليات التجارية، لما كانوا يتميزون به من مقدرات تجارية ، وعلاقات بالتجار الأجانب، إضافة إلى ارتباطهم بالوطن الأم "الهند". أما بالنسبة للتجار العرب سواء القادمون الجدد أو المستقرين فى زنجبار قبل مقدم السيد سعيد فمنحوا الأراضى الزراعية، وشجعهم على تطوير الزراعة. كما أمرهم بزراعة محصول جديد هو القرنفل، والذى أصبح فيما بعد دعامة الاقتصاد الوطنى. كما طلب إلى التجار العرب والمغامرين إرتياد الداخل أى البر الافريقى، وتطوير تجارة القوافل فى محاولة لربط الداخل بالساحل. إلا أن ذلك لم يمنع عددا من التجار العرب من الأستمرار فى تجارتهم، وأقدامهم على التجارة الأجنبية مع البلاد العربية، والهند، وتجارة الترانزيت(١٥). أما السواد الأعظم من السكان ونقصد بهم الارقاء فكانوا عبارة عن أيدى عاملة رخيصة لخدمة العرب والهنود صحيح أن التجار العرب سواء من المستقرين أو القادمين الجدد مع السيد سعيد قد وقفوا موقف المعارضة من المنافسة التجارية الهندية، لكن ذلك الموقف سرعان ما تلاشى عندما أدركوا أنه بدون التمويل الهندى فإنهم لايستطيعون توفير المال اللازم لتطوير مشاريعهم الزراعية وتجارة القوافل الداخلية، مما جعلهم تحت رحمة المرابين الهنود. وابتداء من ١٨٣٤ بدا المسؤولون يلاحظون أن أراضى العرب بدأت ترهن للهنود(١٦). وكان التجار الهنود من جانبهم قد استغلوا حاجة العرب الماسة إلى التمويل، وكانوا يهدفون من وراء تقديم القروض لهم تحطيم الاحتكار العربى لزراعة القرنفل وتجارته ليحصلوا لأنفسهم على حصة فى المقابل .

---

(15) F. B. Pearce. Zanzibar : The Island Mehropolis of Eastern Africa. London : T. Fisher Unwin. 1920. p. 122.

(16) F. O. 84/1146 Hamerton to the Government of Bombay, Zanzibar, 9 October, 1843. See also H. R. Ccrofton. APageant of Spice Island. London ; Bale & Danielson, 1936. pp. 90 - 1.

وقد تمكن عدد من التجـار الهنـود مـن شـراء اقطاعيـات زراعيـة ممـا جعلهم يضيفون إلى نجاحاتهم دعامة جديدة فى السيطرة على قدر متنام من الأراضى الزراعية(١٧).

وقد ساعد الهنـود إضافـة إلـى مـا سبق ذكـره دعـم المؤسسـات البنكيـة الهندية الغنية للتجار الهنود فى زنجبار مما مكنهم مـن التعـامل فـى الاقـراض والأنشطة الأخرى. كما أن عـددا مـن التجـار الهنـود كـانوا فـى حقيقـة الأمـر وكلاء لمؤسسات هندية كبرى فى شبه القارة الهندية(١٨).

إضافة إلى التجار الأجانب وبالذات الأمريكـان الذيـن لعبـوا دورا مهمـا فى مساعدة الهنود على تعزيز وتطوير وضعهم الاقتصـادى، وهـو مـا سـوف نتناوله لاحقا.

وهنا لابد من الاشارة إلى أن الهنود فى زنجبـار لـم يكونـوا جيمعـا مـن أصحاب المصالح التجارية أو من طبقة التجار، إذ أن عدد كبيرا منهـم كـانوا أصحاب محلات صغيرة وحوانيت. إضافة إلى وجود أعداد من الهنـود الذيـن كانوا يمتهنون حرف كالنجارة والبناء والحدادة وغيرها من الوظائف البسيطة. وكان معظم أولئك قد قدموا بعد إستقرا السيد سعيد فى زنجبار.

قام السيد سعيد بتبسيط نظامه النقـدى عـن طريـق إدخـال عمـلات نقديـة صغيرة مـن الهنـد كبديـل للعمـلات المتعـددة المتداولـة كالريـالات النمســاوية والأسبانية والفرنسية. وفـى هـذا الصـدد يذكـر لانـدن (١٩٦٦) بأنـه "وبحكـم العلاقات المتميزة بين مسقط والهند (البريطانيـة) كـانت عملـة البـلاد مرتبطـة بالروبية الهندية بصورة غير رسمية منذ ١٨٣٥"(١٩). ويبين ذلك المدى الذى

(17) Chattopadhyaya, H. Op. Cit. 395.

(18) Fredrick Cooper. Plantation Slaveryof the East Cost of Africa. New Hven: Yale University Press, 1977. pp. 141-143.

(١٩) لاندن ، مرجع سبق ذكره. ص ١١٥ ، انظر أيضـا صـلاح العقـاد وجمـال قاسم . زنجبار . القاهرة: مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٥٩١. ص ٦٤.

وصل إليه نفوذ الهند البريطانية لدى السيد سعيد.

خامسا : سبق للسيد سعيد أن تعامل مع التجار الهنود وبالذات الهندوس "البانيان"، وكان على دراية بقدرتهم المالية والتجارية، مما دفعه إلى توظيف الأكفياء منهم فى حكومته. كما جعل أحد التجار الهندوس من "البانيان" ملتزما للجمارك فى أملاكه فى شرق أفريقية، ومن أشهرهم جيرام سوجى(٢٠). وهذا بحد ذاته يعد امتيازا للهنود ما بعد امتيازه. ولأهمية الدور الاقتصادى والسياسى الذى لعبه ملتزم الجمارك فسوف نعرض لهذا الأسلوب بشىء من التفصيل.

إن أسلوب الالتزام أو "التضمين" معروف فى التاريخ الإسلامى، وكان شائعا فى أوربا فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلادين. ويتمثل أسلوب الالتزام فى أن يقوم الملتزم بتحصيل الرسوم الجمركية فى مقابل أن يدفع مبلغا محددا من المال يتفق عليه وعن فترة زمنية محددة غالبا ما تكون خمس سنوات. وفى محاولة لمعرفة الأسباب التى حدت بالسيد سعيد إلى تعيين هندوسى كملتزم للجمارك فى أملاكه فى شرق أفريقية نبين **أولا :** كان السيد سعيد فى حاجة ماسة إلى مصدر دخل ثابت ومستمر. إلا أنه كان يعانى العديد من المشاكل الادارية التى كانت فى حاجة إلى حل جذرى. ومن أبرز تلك المشاكل جمع الايرادات، أو عائدات الضرائب المختلفة خاصة وأن ثلثى دخله يأتى من أملاكه فى شرق أفريقية، وكانت معظم تلك المصادر تأتى من نشاطاته التجارية والزراعية. وكان السيد سعيد قد ذكر فى عام ١٨٣٣ أن أحد أسباب وجوده فى زنجبار راجع لكون دخله فى عمان قليل ومصاريفه

---

(20) R. Coupland. The Exploittion of East Africa, 1856-1890. London: Faber, 1939. p. 5.

انظر أيضا: سعيد بن على المغيرى . جهينة الأخبار فى تاريخ زنجبار . تحقيق عبد اله عم عامر . سلطنة عمان: وزارة التراث القومى ١٩٠٩، ص ٦٥.

كثيرة (٢١). وحسب النظام الذى كان سائدا فإن مجموع الايرادات التى كان يحصل عليها السلطان كانت تعتمد على طاقة الحكام المحليين، وأمانتهم، ومقدرة أتباعهم الذين يأتمرون بأمرهم. إضافة إلى ذلك فإنه لم يكن هناك فحص للسجلات لعدم وجود سجلات أصلا. وكان السيد سعيد كما أشار إلى ذلك جرى (١٩٦٢) يشك فى أمانة واخلاص الحكام المحليين المنوط بهم تلك المهمة. وقد وجد السيد سعيد فى زيارته الأولى لزنجبار ١٨٢٨ أنه لا أحد من الحكام المحليين قد استطاع أن يقدم له حسابات وافية ومعتدلة، بل على العكس من ذلك فكان الواحد منهم يحتفظ بمقدار أكبرمما يستحق ، أو كان من حقه الحصول عليه. وكان كل من العبدين الحبشيين يأقوت وأمبارا اللذين كانا وكيلين للسيد سعيد فى زنجبار "مسيئين عظيمين فى ذلك المجال"، ومع ذلك فإن ما حصلا عليه من أملاك ومداخيل وقعت تحت يد السيد سعيد بعد وفاتهما بمقتضى ما يعطيه الشرع الإسلامى للسيد الحق فىأن يرث عبده(٢٢).

ثانيا : كان السيد سعيد يخشى من قوة بعض الشخصيات العربية فى زنجبار ، كما كان حريصا على ألا يقع تحت رحمة الاعتماد على أولئك الأفراد. إذ أن سيطرتهم على تلك الموارد من الممكن أن تحقق لهم قوة ونفوذا، وتجعلهم يتطلعون للنفوذ السياسى. مما كان له أثره فى أبعاد السيد سعيد الشخصيات العربية عن ذلك المورد الاقتصادى الهام. ويذكر الفارس (١٩٨٠). أن السلطان خشى من زيادة قوة الوالى عبد الله بن جمعة البروانى الذى "أتى بعد العبدين الحبشيين فعزله من منصب الحاكم"، وتلاه الوالى خلفان بن سليمان العبرى الذى "رمى فى السجن بعد فقد الثقة فيه"(٢٣).

(21) G.S. Nicholls. The Swahili Coast, Politics, Diplomacy and Trade on the East Arrican littoral, 1798-1856. London: Allen & Unwin. 1971. p. 202.

(22) Jon Gray. History of Zanzibar From the Middle Ages to 1856. Oxford University Press 1962. p. 142.

(٢٣) عبد الله بن صالح اللفارسى. البوسعيديون حكام زنجبار. ترجمة محمد أمين عبد الله ، سلطنة عمان: وزارة التراث القومى ١٩٨٠ ص٥٢-٥٣.

ثالثا : حاول السيد سعيد أن يسير على نفس الخطى التى سار عليها حكام ممبسة من عائلة المزروعى الذين وظفوا أحد "البانيان" لجمع الايرادات، وحفظ السجلات(٢٤).

رابعا : كان تعيين هندوسى كملتزم للجمارك يوفر له المال اللازم وقت الحاجة، فى نفس الوقت لم يكن يتطلع إلى نفوذ سياسى.

وكان أول عقد وقعه السيد سعيد مع مؤسسة مملوكة لهندوسى يدعى وات بهيما Wat Bhima فى حدود ١٨١٧. وكان بهيما يعد أحد أبرز التجار الهنود فى زنجبار. وكانت قيمة العقد ٧٠٠٠٠ دولار مارياتريسا. لم يدم الاتفاق طويلا بين السيد سعيد وبهيما لاعتقاد الأخير بأنه أخذ مخاطرة كبيرة، وأصر على حيز أكبر من الربح. وكانت النتيجة الطبيعة هى فسخ العقد(٢٥). وبعد فسخ العقد مع مؤسسة بهيما تقدمة شركة تجارية هندية مملوكة لتاجر هندوسى يدعى سوجى توبان Swji Topan بعرض للحصول على حق جباية الجمارك . وكان سوجى قد عرض على السيد سعيد مبلغا وقدره ٨٤٠٠٠ دولار مارياتريسا، مما شجع السيد على منحه الامتياز. وبوفاة سوجى توبان أنتقل التزام الجمارك إلى أبنه جيرام Jiram (توفى ١٨٦٦) وارتفعت قيمة العقد إلى ١٠٠٠٠٠ دولار مارياتريسا(٢٦). وبقى التزام الجمارك فى يد

---

(24) Gray, J. Op.cit. p. 142.

(25) Public Record Office, Foreign Office Confidential Print (Hereafter cited as F.O.C.P.) No. 1936. Kirk's Report Zanzibar. pp. 17-18. See also F.O. 881/1936. Inc.in No. 14. Administrative Report of the Zanzibar Agency, 1870.

انظر ملحق رقم (٣).

(26) Ibid.

كان الريال (الدولار) النمساوى دولار ماريا تريسا من أبرز العملات فى شرق أفريقية. وفى ذلك الوقت كان الجنيه الاسترلينى يعادل ٤,٢٥ دولار ماريا تريسا.

L.W. Hollingsworth. The Asians of East Africa. London: Macmillan. 1960, p. 21

عائلة سوجى لمدة أربعين سنة. ويبدو أن التزام الجمرك كان يجبى على يد مؤسسة سوجى بعد ١٨١٩، إذ أن المؤسسة ادعت ١٨٤٢ بأنها كانت تجبى الجمارك لمدة ٢٤ سنة(٢٧).

فى ١٨٣٧ نجح السيد سعيد فى السيطرة على معظم الساحل الشرقى لأفريقية، وكان لذلك أثره فى وقوع جمارك مافيا وملندى فى يد مؤسسة سوجى. وكانت تلك المداخيل تجبى فى السابق من قبل حاكم كلوة(٢٨). وفى أواخر ١٨٤٠ تضاعفت قيمة عقد التزام الجمارك، مع استمرار عائلة سوجى فى السيطرة عليه.

كانت الإيجار السنوى يتم تقديمه للسيد سعيد على دفعتين فى السنة. إلا أن السيد سعيد كان فى أغلب الأحيان فى حاجة ماسة إلى سيولة نقدية، وبمدة طويلة قبل حلول موعد تسليم الدفعة الثانية، وكان لذلك أثره فى حصوله على مقدم من الدفعة الثانية، مما كان يؤدى فى أحيان كثيرة إلى حدوث سوء فهم وعدم إتفاق بين الطرفين عندما تبدأ المحاسبة النهائية. وكان لذلك الأسلوب دوره فى جعل السلطان مدينا وبشكل كبير لملتزم الجمارك، والذى كان يلجأ إلى تجديد العقد، لعدم قدرته على أيجاد المال الجاهز للدفع الدائنين الأخرين. وكان ملتزم الجمارك الهندوسى المستفيد الأساسى من ذلك الأسلوب، بينما كان السلطان فى حقيقة الأمر يحصل "تقريبا على نصف المبلغ المحصل من مداخيل الجمارك"(٢٩).

(27) Abdul Sheriff. Slaves, Spices, Ivory in Znzibar, London: James Currey. 1987, 126.

من المعتقد أن جيرام سوجى تولى إدارة الجمرك خلفا لوالده فى أوائل الثلاثينات من القرن التاسع عشر واستمر يدير الجمرك إلى حين مغادرته زنجبار ١٨٥٣ حيث أناب وكيله لودا دمجى ليدير أعماله فى شرق أفريقية.

Norman Bennett. A History of the Arab State of Zanzibar. London: Methwen, 1978. p. 42.

(28) Sheriff,A. Op. cit. p. 127.

(29) Cooper, F. Op. cit. p. 140. See also, Hollingsworth, L. Op.Cit. p. 21.

إضافة إلى ذلك فإن ملتزم الجمارك لايمنعه العقد من المتاجرة لحسابه الشخصى. وكان لجيرام سوجى تجارة مكثفة فى زنجبار وعلى طول الساحل الشرقى الأفريقى، إضافة إلى مصالحه التجارية فى كل من بومبى وكتش. وكان لايتورع عن استغلال منصبه كملتزم للجمارك، وعلاقاته الحميمة مع السيد سعيد، وطبقة التجار لأعماله الخاصة. ويذكر جرى إنه عندما تتعارض مصالحه الخاصة مع واجباته كملتزم للجمارك، فإنه لم يكن من المستغرب أن يذعن السلطان ويرضخ لملتزم الجمارك(٣٠). ويرى نيكلاوس (١٩٧١) أن جيرام سوجى مارس سلطة أكثر من السلطان نفسه. وكان السلطان يدرك ذلك ولم يمنعه، وفى حالة واحدة أرسى السيد سعيد التزام الجمرك على سوجى، فى نفس الوقت الذى تقدم غيره بعرض أعلى من ذلك الذى قدمه سوجى(٣١). وكان لذلك أثره فى نمو وتوسع تجارة مؤسسة سوجى لاحتلاله ذلك المنصب الحساس فى السلطنة المسئول عن الشئون المالية. فلا عجب أن يكون له ثروة خيالية، وتأثير كبير على القصر، ويذكر رجبى الذى كان القنصل البريطانى فى زنجبار خلال حكم السيد ماجد بن سعيد (١٨٥٦-١٨٧٠) أن جيرام سوجى الذى وصفه بأنه زعيم الجيالة الهندية ترك عند وفاته ثلاث ملايين دولار عملة صعبة نقدية(٣٢).

كان ملتزم الجمارك يعين وكلاء له فى كل ميناء من موانى الساحل الشرقى الأفريقى الخاضع لسلطة السيد سعيد. وكان أولئك الوكلاء المعينيون

---

(30) Gray, J. Op. Cit., p. 144.

(31) Nicholls, C., Op. Cit., p. 293. See also Norman Bennett and G.E. Brooks. New England Merchants in Africa. Boston University Press, 1965, p. 232.

(32) F.O. 84/1357 Kirk to Bombay to Government, Zanzibar, 1872. See also: C.E.B. Russel. General Rigby, Zanzibar and the Slave Trade. London. 1935, p. 102.

أما أقرباء لملتزم الجمارك ، أو موظفين لديه، وأغلبهم كانوا من طائفتـه(٣٣). وكان لذلك أثره على العمل كفريق واحد يدين بالولاء لملتزم الجمارك، ويمكنه الحصول على معلومات وافيه ودقيقة عن مجمل الأوضـاع الاقتصاديـة علـى طول الساحل.

كانت أول اتفاقية تجارية يبرمها السيد سعيد مع دولة أجنبية هى معاهدة الصداقة والتجارة مـع الولايـات المتحـدة الأمريكيـة ١٨٣٣. وكـانت القنصليـة الأمريكيـة التـى افتتحـت عـام ١٨٣٧ تحـت ادارة التـاجر الأمريكـى ريتشـارد واتـرز R.Waters أول قنصليـة أجنبيـة فـى زنجبـار(٣٤). وكـان لعقـد تلـك الاتفاقية، وتعيين قنصـل أمريكـى أثره فـى بـروز نشـاط أمريكـى متزايد فـى أملاك السلطان. وفى هذا الصدد يذكر د. قاسم أنه ومنذ ١٨٣٣ "لم تعـد الهنـد هـى الدولـة الوحيـدة التـى تزعمت التجـارة مـع زنجبـار وإنمـا أخـذت الدولـة الأجنبية تعمل على مزاحمة الهنود فى ذلك المضمار"(٣٥).

وكان الهنود فى زنجبار، أو على طـول السـاحل الشـرقى لأفريقيـة أمـا رعايا بريطانيين ، أو رعايا لمحميـات وامـارات هنديـة قبلـت سيادة بريطانيـا عليها ككتـش وكثيـوار، ولكنهـم مـن الناحيـة القانونيـة البحتـة لايعـدون رعايـا بريطـانين. إضافـة إلـى أعـداد محـدودة تقدمـت للحصـول علـى حـق حمايـة السلطان كرعايا له. وكان النشاط البريطانى سـواء فـى المجـال السياسـى ، أو الاقتصادى ، إذ استثنينا التجار الهنود من رعايا بريطانيا محـــــدودا فى شرق

---

(33) F.O. 48/1391 Frere to Granville, 7 May 1873.

(34) Richar.. Burton, Zanzibar: City, Island and Coast. Voll. London: Tinsley. 1872, pp. 328-9.

(٣٥) جمال زكريا قاسم . دولـة بـور سـعيد فـي عمـان وشـرق أفريقيـة (١٧٤١-١٨٦١) القاهرة - مكتبة القاهرة الحديثة . ١٩٦٨ ص ٢٢١.

أفريقية. وكانت الشركة التجارية البريطانية الوحيدة التى كانت تعمل فى زنجبار هى شركة نيومن هانت وكريستوفر. وكانت تلك الشركة قد باشرت العمل هناك فى أوائل الثلاثينات من القرن التاسع عشر(٣٦). مما يبين محدودية الاهتمامات البريطانية فيما يتعلق بشرق أفريقية. كما كان السيد سعيد فى تعامله السياسى الاقتصادى حينئذ يتم عن طريق شركة الهند الشرقية وحكومة موريشوس البريطانية. وكان ذلك التعامل يفتقر إلى وجود قنصلية بريطانية ، أو اتفاقية تجارية تحمى المصالح البريطانية.

آثار ذلك الوضع سخط التجار الهنود من رعايا بريطانيا وتجارا وقباطنة سفن ممن زارو زنجبار. وطالبوا حكومة بومبى البريطانية عقد اتفاقية تجارية مع السيد سعيد، وإقامة قنصلية بريطانية فى زنجبار. وكان من أبرز المطالبين الكابتن هارت Hart من رجال البحرية الهندية الذى زار زنجبار ١٨٣٤، وروبرت كوجان R. Cogan التاجر البريطانى الذى عمل سابقا فى البحرية الهندية وكان كوجان قد قدم خدماته لانجاح ذلك الهدف(٣٧). حول اقتراح كوجان إلى الخارجية البريطانية. ووافق بالمرستون رئيس الوزراء البريطانى على إقتراحه عقد إتفاقية تجارية مع السيد سعيد. وفى سبتمبر ١٨٣٨ عين كوجان كمبعوث لبريطانيا لعقد إتفاقية تجارية، وفى ٣١ مايو ١٨٣٩ عقدت الاتفاقية التجارية بين بريطانيا ومسقط(٣٨).

وبناء على بنود تلك الاتفاقية تمكن الهنود من رعايا بريطانيا من الحصول على الكثير من الأمتيازات التى لم يكونوا ليحصلوا عليها، وتشمل حرية الدخول ، والاتجار ، والاستقرار فى أى جزء من أملاك السلطان . كما

(36) Sheriff, A., Op. Cit., p. 90. See also Nicholls, C.Op.Cit., p. 158.

(37) Indian office. Bombay Political Consultation 387/58. Hans Report, Price 21 May 1834. F.O. 45/2. Cogan Memorandum on the political relation existing between the Imam of Muscat and the British Government, 5 January 1838.

(38) F.O. 54/2 F.O. to Board of Trade, 7 Febuary, 1838.

يحق لهم كرعايا بريطانيين تملك الأراضى، والعقارات، ولايجوز تفتيش دورهم. بل أكثر من ذلك فإن المعاهدة أعطت لبريطانيا الكثير من الحقوق على حساب السكان المحليين، ووصلت إلى حد المنازعات. إذ اشترطت الا يحق للسلطان، أو ممثليه مثل القاضى والوالى التدخل فى حال نزاع بين الرعايا البريطانيين، ورعايا دولة مسيحية أخرى. وامتد ذلك ليشمل النزاع بين أحد رعايا السلطان. فالنزاع ينظر فى محاكم السلطان إذ كان الشاكى من رعايا بريطانيا، ويحق للقنصل البريطانى، أو من ينوب عنه حضور المحاكمة. أما إذ كان الشاكى من رعايا السلطان فيحاكم أمام المحاكم البريطانية(٤٠).

كما نصت المعاهدة على ألا تزيد نسبة الضرائب على الواردات إلى أملاك السلطان عن ٥٪، بينما أعفيت الصادرات من الرسوم. كما أعطت للطرفين حق تعيين قناصل لهما فى بلد الآخر. والحق بتلك المعاهده مواد تتعلق بمحاربة تجارة الرقيق(٤١). ويرى شريف (١٩٨٠) أن تلك الاتفاقية كانت "بداية الخضوع البوسعيدى للاستعمار البريطانى"، ذلك الخضوع الذى يرجع تاريخه إلى نهاية القرن الثامن عشر عندما قامت علاقات خاصة غير متكافئة بين عمان والهند البريطانية "المصممة" على سيطرتها على الخليج العربى(٤٢).

---

(39) Great Britain, Parlimantary Papers (hereafter cited as p.p.) Class D. Muscat. 1841 Vol. 31 (288) Imam of Muscat. Convention of Commerce Between Her Majesty and His Highness the Imam of Muscat, singed at Zanzibar May 31, 1839.

(40) Ibid

(41) P.P. 1840 Vol. 47 class D. Muscat. No. 105. Extract of a letter from Captain Cogan to Viscount Palmerston. Bombay, July 31st 1839. Sub. Enclosure in 105. Article XV of the Treaty as altered by the Imam.

انظر أيضا جون كيلى . بريطانيا والخليج ١٧٩٥-١٨٧٠ الجزء الثانى ترجمة محمد أمين عبد الله ، سلطنة عمان: وزارة التراث القومى، ١٩٧٩م ، ص ٤٩-٥٣.

(42) Shariff, A., Op. cit. p. 201.

كما أشار كوبلاند إلى تلك الاتفاقية، والاتفاقيات اللاحقة أعطت القوى الأجنبية حقوقا طالت المواطنين الزنجباريين(٤٣). ومع ذلك فإن سنوات العشرينات، والثلاثينات من القرن التاسع عشر كانت السنوات التى كان فيها السيد سعيد تقريبا مستقلا عن التأثير البريطانى، لوجود مصالح مشتركة بين الطرفين، إذ كان السيد سعيد فى حاجة إلى دعم وتأييد بريطانيا له سواء فى مسقط، أو شرق أفريقية، فى نفس الوقت الذى كانت الحكومة البريطانية تدرك أهمية السلطان، وموقع السلطنة فى الخليج العربى للمصالح البريطانية(٤٤).

تعيين أتكنز هامرتون :

تلى عقد تلك الاتفاقية تعيين أتكنز هامرتون Athkins Hamerton فى وظيفة مزدوجة كقنصل بريطانى، وكوكيل سياسى لحكومة بومبى البريطانية لدى السيد سعيد، ولم "يكن يحدث دائما أن تتفق السياسة التى تسنها حكومة الهند مع التعليمات التى تصدرها الحكومة البريطانية"(٤٥). ويمكن إضافة أن الاختلاف إن وجد كان يتمحور حول الأسلوب ، أو الوسيلة لتحقيق الهدف المنشود، لا الهدف نفسه.

عقد الاتفاقية التجارية وتعيين هامرتون بوظيفة المزدوجة يعد تغيرا فى السياسة البريطانية تجاه منطقة الخليج العربى وشرق أفريقية. وهذا يدعونا إلى محاولة توضيح إهتمامات كل من وزارة الخارجية البريطانية، وحكومة بومبى البريطانية.

كان اهتمام وزارة الخارجية البريطانية فى ذلك الوقت يتمثل وبشكل أساسى فى محاولتها المحافظة على الوضع القائم فى شرق أفريقية. وكان ذلك

---

(43) Coupland, R., East Africa and Its Invaders. pp. 368-9., 385-6.
(44) Nicholls, A., Op. cit. p. 161.
(٤٥) د. جمال قاسم، مرجع سبق ذكره، ص ٢٢٨.

يعنـى أولا إبعـاد دول أجنبيـة منافسـة لبريطانيـا كالولايـات المتحـدة الأمريكيـة وفرنسا من الحصول على موطىء قدم لها فى شرق أفريقية، وعد التفريط فى المركز البريطانى المتفوق فى السلطنة العربية. ثانيا اسـتغلال محاربـة تجـارة الرقيق لتحقيق الغرض المشار إليه أعلاه، والتدخل فى شئون السلطنة العربيـة بما يخدم المصالح البريطانية(٤٦).

كـانت وزارة الخارجيـة البريطانيـة تهدف الحـد مـن النفـوذ الأمريكـى المتزايد فى أملاك السلطان خاصة بعد نجاح الولايات المتحدة فى عقد إتفاقيـة تجارية، وإقامـة قنصليـة لهـا فـى زنجبـار، ومـا تلـى ذلـك مـن نشـاط تجـارى إمريكى. ونجاح التجار الأمريكيين فـى كسـب التجـار الهنـود، وبـروز تعـاون تجارى هندى أمريكى. كما كانت وزارة الخارجية البريطانية تهدف إلى إبعـاد منافسـها فرنسـا مـن الحصـول علـى موطـىء قـدم لهـا فـى مسـقط، أو شـرق أفريقية، وبخاصـة وأن فرنسـا كـان لهـا نشـاط مـتزايد فـى القسـم الغربـى مـن المحيط الهندى كرد فعل للتحرك البريطانى نحو البحر الأحمر(٤٧).

وكان تضمين الاتفاقيـة التجاريـة لعـام ١٨٣٩ بنـودا فـى مكافحـة الـرق يعنى الرغبة فى استغلال تلك القضيـة بمـا يخـدم مصـالح بريطانيـا، وهـو مـا سوف نتناوله لاحقا.

أما بالنسبة لاهتمامات حكومة بومبى البريطانية فإنها كانت تدرك أهمية العلاقات التى كانت تربط الهند بزنجبار، كما كانت تعى أهمية وجـود الجاليـة الهندية فى شرق أفريقية. إلا إنها كانت ترغب فى وضع أعينهـا علـى منطقـة

---

(46) Coupland, R., East Africa and Its Invaders. p. 488-9., 385-6. Sheriff, A., Op. cit. p. 202.

(٤٧) فى علم ١٨٣٩ تأسست القنصلية الفرنسية فى زنجبار . ووصل القنصل الفرنسى عام ١٨٤٠ إلا أن السيد السعيد وبسبب الضغط البريطانى تلكأ فـى الموافقـة علـى قبوله حتى عام ١٨٤٤. رودلف روت، مرجع سبق ذكره ، ص ١٤٩.

الخليج العربى الحساسة، والمهمة كطريق للتجارة المتجهة إلى الهند. وكانت تهدف تعيين اتكنز هامرتون كوكيل سياسى محاولة ثنى السيد سعيد من إعطاء جل إهتمامه فى الجزء الأفريقى من ممتلكاته "لما يمثله وجوده فى مسقط من حماية للمصالح البريطانية"، أى أن محاولات حكومة بومبى البريطانية باءت بالفشل(٤٨).

وباستقرار السيد سعيد فى عاصمته الجديدة زنجبار ١٨٤٠ تحول التوازن الاقتصادى والسياسى من مسقط فى الجزيرة العربية إلى زنجبار فى شرق أفريقية. وكان لذلك التحول أثره فى إجبار هامرتون، وعلى "مضض" منه فى اللحاق بالسيد سعيد(٤٩). وبالفعل وصل هامرتون إلى زنجبار فى مايو ١٨٤١ وهو بذلك أول قنصل بريطانى فى زنجبار.

هامرتون والمبررات الايديولوجية :

عند مقدم هامرتون كان يوجد حوالى ٧٠٠ هندى مستقرين على طول الساحل الشرقى لأفريقية(٥٠).

وكان الهنود بشكل عام قد بنوا لأنفسهم نفوذا إقتصاديا، ونجحوا فى انتزاع الكثير من العوائق التى واجهتهم بمدة طويلة قبل مقدم هامرتون. ألا أنهم كانوا يتميزون بعدم الوضوح فى تحديد إنتماءاتهم الحقيقية. إذ كانوا تارة يدعون أنهم من رعايا بريطانيا بينما نجدهم فى تارة أخرى يدعون أنهم من رعايا السلطان. وكان ذلك يتم وفقا لحاجاتهم التجارية الآنية، إذ كانت قواربهم ترفع العلم البريطانى ، أو العربى وفقا لأى ميناء يقتربون منه. وكان الهنود من تجار الرقيق يفضلون التعامل معهم كزنجباريين، وكذلك الحال عند

---

(48) Sheriff, A., Op. cit. p. 202.

(49) Ibid.

(50) F. O. 54/4 Hamerton to the Government of Bombay, Zanzibar, 13 July, 1841.

الاتجار مع ساحل المريما المقابل لزنجبار. وكـان ساحل المريمـا يعد منطقـة محرمة على التجار الأجانب. إلا أن الهنود توقفوا عن ممارسة عدم الوضـوح فى إنتماءاتهم عندما أخـذت بريطانيـا تستغل سياسـة محاربـة تجـارة الرقيـق، وتأكيدها على عدم تعامل رعاياها بتلك التجارة غير المشـروعة، وكـانت تلـك تعد المرة الأولى التى أجبر فيها الهنود على تحديد وضعهم القانونى(٥١).

وفى تقريره الذى رفعـه إلـى حكومـة بومبـى البريطانيـة فـى ١٣ يوليـو ١٨٤١ ذكر هـامرتون بأنـه وجـد أن المصـالح البريطانيـة كـانت هامشـية مـع ركائز قليلة للتأثير فى زنجبار.

ممـا أشـار هـامرتون إلـى التجـارة المباشـرة بيـن بريطانيـا وزنجبـار ووصفها بأنها كانت هامشية، أو غير موجودة . وفى وصفه للشعور العام لدى السكان العرب والسواحليين تجاه بريطانيا ذكر هامرتون بأنه شـعور معـاد "إذ يتكلـم العـرب بصـوت مسـموع حـول قـوة أمريكـا وثروتهـا وأفضيلـة البحـارة والأمريكان والفرنسين(٥٢). أما بالنسبة للهنود مـن غير رعايـا بريطانيـا بيـن هامرتون بأن أولئك ينظرون إلى أنفسهم على أنهم تجارا محليين، كمـا كـانوا يشاركون العرب والسواحليين أحاسيسهم، وعواطفهم، وأظهروا "شعوراً قاسياً" ضد التدخل البريطانى فى شئون زنجبار. ويعتقد هـامرتون بـأن السـبب وراء ذلك إنما يعود لخوف أولئك الهنود من فـرض قيـود علـى تجـارتهم، وتملكهـم للرقيق(٥٣). وما لم يذكره هامرتون هو مشاركة الهنـود للعـرب والسـواحليين فى أحاسيسهم وهى حالة طبيعية نتيجة للعلاقـات التاريخيـة التـى كـانت تربـط الهنود بالعرب والسواحليين ، وكذلك المصـالح التجارية المشتركة. إضـافة إلـى ذلك الروابط الاجتماعية التى كانت تربط بين تلك المجموعات العرقية، والتى

(51) Nicholls, C., Op. cit. p. 291.

(52) F. O. 54/4 Hamerton to the Government of Bombay, Zanzibar, 13 July, 1841.

(53) Ibid.

كان ثمرتها بروز الشعب السواحيلى نفسه، وهو خليط مـن العرب، والفرس، والأفارقـه، والهنـود. فـلا عجب اذن أن يكـون الأمريكـان غـير المتحمسين لمحاربة الرق وتجارته، والفرنسيون النشطون فى تلك التجارة الأكثر تفضيـلا من الانجليز. وذكر كرفتون (١٩٢٥) حول تلك الفترة مبينا أن السفن الحربيـة البريطانية لـم تزر زنجبار منذ عدة سنوات، بينمـا كـان التـأثير الأمريكـى، والفرنسى فى أحسن حالاته(٥٤).

وكان من الطبيعى أن يحاول هامرتون جاهدا تعزيـز النفـوذ البريطـانى فى زنجبـار. وكـان ذلك يتطلب العمل علـى إبعـاد القـوى الأخـرى المنافسـة لبريطانيا كالولايات المتحدة وفرنسا. وهـذا بـدوره يحتـاج إلـى تعـاون الجاليـة الهندية القوية إقتصاديا، والتى تربط تجارها علاقـات تجاريـة واسـعة مـع كل من الأمريكين والفرنسين. مما كان يتطلب العمل على خلق أو إيجاد مـبررات لتحقيق ما يصبو إليه . مما حداه كمـا بيـن شـريف إلـى اللجـوء إلـى ركـيزتين أساسيتين أولـهما : جعل من نفسه حكما فـى مسـائل زنـجبـار الداخليـة مستغلا وجود طبقة التجار الهنود القوية إقتصاديا تحت ستار أنهم من رعايا بريطانيـا، وتلـك وفـرت "المـبررات الايديولوجيـة المتعـددة" لممارسـة الهيمنـة والنفـوذ البريطانى فى شرق أفريقية **وثانيهمـا** : إستغل هـامرتون الاتفاقيـات المتعـددة لمحاربة تجارة الرقيق كوسيلة ضغط للتدخل فى شئون زنجبار الداخلية وتلك وفرت طريقا "مقنعا وإنسانيا"، والتى كـانت تعـد البدايـة للنفـوذ البريطـانى فى زنجبار(٥٥) وكانت الركيزتان اللتـان لجأ إليهمـا هـامرتون مـترابطتين بشـكل وثيق، إذ لايمكن التطرق لاحدهما بمنأى عن الأخرى.

كان السيد سعيد يرتبط بعلاقات جيدة مـع القنصـل البريطـانى. كمـا أنـه كان يحاول قدر الإمكان إثبات حسن نواياه تجاه الادارة البريطانية فى زنجبار

(54) R.H. Crofton. The Old Consulate of Zanzibar, Oxford, 1935. p. 3.
(55) Sheriff, A., Op. cit. p. 202-2.

لما لذلك من أهمية فى تقوية، وتعزيز نفوذه سواء فى مسقط أو شرق أفريقيـة. إضافة إلى أنه كان يفخر بصداقته للانجليز. إلا أنه من جانب آخر كان يعمل على الحد من تدخل القنصل البريطانى فى شئونه الداخلية وبالذات فـى مسألة السيطرة على الجالية الهندية. كما أنه كان يرغب فى إيجاد نوع من التـوازن فى علاقاته التجارية ومصالحه السياسة. وكان لذلك أثـره فـى إحتدام التنـافس بين السيد سعيد من جهة والقنصل البريطانى من جهة أخرى علـى كسب ود الجاليـة الهنديـة ورضاها. ومـن الطبيعـى أن تكـون الجاليـة الهنديـة المسـتفيد الرئيسى من ذلك التنافس.

كان موقف السيد سعيد واضحا وصريحا فى عدم التعاون مع هـامرتون فـى محاولتـه كسـر طـوق التعـاون التجـارى الـذى كـان يربـط جيرام سـوجى بالقنصل الأمريكى بل إنه اتخذ خطوة آثـارت غضـب هامرتون إذ طلـب إلـى سوجى أن يقنع التجار الهنود من غير رعايا بريطانيا بـالتوقيع علـى عريضـة يعلنون فيها أنهم من رعايا السلطان. وكان ضمن الأسباب التـى أدت بسـوجى إلى التعاون مع السيد سعيد رسالة لأحد التجار البريطانين إلى الغرفة التجارية فى بومبى والتى تسأل فيها عن كون "البانيان" يعدون من الرعايا البريطـانين، وإذ كانوا كذلك فإن ذلك عنصرا أساسى فى القضاء على تجارة الرقيق لكونهم المشاركين الأساسيين فى تلك التجارة(٥٦). وكان لذلك أثـره فـى إثـاره ملـتزم الجمارك الذى كان يملك ٢٠٠ عبدا. وبالفعل قام سوجى بتلـك المهمـة، إلا أن محاولته باءت بالفشل، ولم يوقع تلك العريضة إلا عدد لايكاد يذكر(٥٧).

---

(56) F.O. 54/4 Norsworthy to Chamber of Commerce. Bombay, (1841?).

(٥٧) كان عدد الموقعين على العريضة ثلاثة فقط .

F. O. 54/4 Hamerton to the Government of Bombay, Zanzibar, 28 September, 1841.

ذكر هامرتون أن فشل سوجى فى مهمته إنما كـان يعود لخوف أولئك الهنود من تعرض أسرهم، واهتماماتهم التجارية فى الهند البريطانيـة للخطر. كما أشار إلى أن العديد من أولئـك الهنـود كـانوا لايرغبـون فـى قطـع صلتهم بالوطن الأم (الهند). إضافة إلى أنهم كانوا ينظرون إلى زنجبار كوطن مؤقـت وليس بديلا للوطن الأم، حيث أن العديد منهم تركوا عائلاتهم وكان يخططـون للعودة بعد جمع مبالغ كافية(٥٨). إلا أنه أغفل ذكر تدخلـه المباشـر، ونجاحـه فـى إقنـاع أولئك الهنـود فـى عدم توقيـع تلـك العريضـة سـواء بـالتهديد أو الترغيب، وإلا ماذا يعنى هامرتون بتعريض أسر وأهتمامات الهنود فـى الهنـد البريطانية للخطر، أو قطع صلتهم بالوطن الأم ؟. وهنا لابد من الاشـارة إلـى فشل سوجى والسيد سعيد فـى مسـعاهما لـم يقابلـه نجـاح مـن قبـل هـامرتون إستقطاب أولئك الهنود ليكونوا رعايا بريطانين. بينما فى حقيقة الأمر نجـد أن العديد من القادمين الجـدد إلـى زنجبـار يفضلـون وضـع أنفسـهم تحـت حمايـة السلطان، أو الاحتفاظ بانتماءتهم الأصلية(٥٩).

لم يقنع السيد سعيد بفشل محاولته مع سوجى، بل حـاول بكـل جهـده أن ينكـر مطـالب هـامرتون بالسيطرة علـى عمـوم الجاليـة الهنديـة عــن طريـق مخاطبة وزارة الخارجية البريطانية. وفى خطاب له إلـى ابردين يسـأل السـيد سـعيد عـن هويـة أولئـك الهنـود مــن غـير رعايـا بريطانيـا مــن المقيمـين، والمولودين فى زنجبار، ولديهم زوجات محليات، وأطفـال، ويملكـون الأرقـاء أن يكونوا يعدون فى نظر الحكومة البريطانية من رعايـا بريطانيـا؟ وكـان رد أبردين على خطاب السيد سعيد إجابة مطلقة، وغير محـددة عندمـا ذكـر بأنـه "لايحق لأى مواطن من الهند الحصــول على حماية القنصلية البريطانيـة ،

---

(58) F. O. 54/5 Hamerton to the Secret Committee. Zanzibar, 1841.
(59) Sheriff, A., Op. cit. p. 203.

ما عدا مواطنى تلك الاجزاء من الهند والتى تشكل جزءاً من أملاك التاج*(٦٠).

ومن الممكن أن يكون وراء تلك الإجابة المطلقة عدم وجود سياسة محددة المعالم تجاه وضع الجالية الهندية فى شرق أفريقية كما سبق أن ذكرنا بأن لهامرتون وظيفة مزدوجة وليس بالضرورة أن تتفق وجهات نظر وزارة الخارجية مع حكومة بومبى، إلا أنها من الممكن أن تعنى أيضا أن حكومة لندن لم تكن ترغب فى إلزام نفسها بشىء محدد مكتوب ليكون لديها مساحة أكبر للمناورة، وإستغلال تلك القضية فى الوقت المناسب. إضافة إلى ذلك كانت الخارجية البريطانية لاتحبذ الضغط على السيد سعيد لما يمثله وجوده فى زنجبار من خدمة للمصالح البريطانية العليا. إذ كان ينظر إليه على أنه من أقرب أصدقاء بريطانيا فى المنطقة، ومن الممكن الاستفادة منه فى توسيع، وتعزيز النفوذ البريطانى فى شرق أفريقية، واستغلال نفوذه على طول الساحل الشرقى لأفريقية لابعاد الدول الأجنبية المنافسة لبريطانيا كالولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا. ومن الجانب الآخر نظرت كل من وزارة الخارجية وحكومة بومبى البريطانية إلى الجالية الهندية كقاعدة متقدمة لاستغلالها بما يخدم المصالح البريطانية فى شرق افريقية. ولم تكن ترغب فى أن تناصبها العداء، وإنما على العكس من ذلك تحاول كسب ودها وحماية مصالحها، والتى كانت فى النهاية تصب فى المصلحة البريطانية.

وكان لتحدى السيد سعيد مطالب هامرتون فى بسط السيطرة البريطانية على عموم الجالية الهندية، وإنكار مواطنى كتش وكيثوار إدعاءات هامرتون أثره فى إعترافه فى ١٨٤١ بأنه ليس كل الهنود فى زنجبار من رعايا

---

(60) F. O. 54/6 Said to Aberdeen. Zanzibar, 1844. F. O. 54/7 Said to F.O. AH27/9/1261.

* انظر ملحق رقم (١).

بريطانيا(٦١). وكان روبرت كوجان المفاوض البريطانى لاتفاقية ١٨٣٩ أكد للسيد سعيد بأن شروط تلك الاتفاقية لاتشمل مواطنى كتش. كما أوضح له أن معاهدة الحلف الموقعة بين حاكم الكتش وشركة الهند الشرقية البريطانية ١٨١٦ لم يوضح مواطنى كتش تحت التاج البريطانى، إذ أن الشركة أقرت عدم ممارسة السلطة على شئون حاكم الكتش الداخلية(٦٢).

كان هامرتون يحاول جاهدا عدم الاقرار بوجود فوارق من الناحية القانونية الدقيقة، لأن ذلك كان يعنى حرمانه من السيطرة على عموم الجالية الهندية، إلا أن إعترافه السابق جعله يحاول تفسير التركيب البنيوى للجالية الهندية بما يتناسب وأهدافه. وفى رسالتين إلى حكومة بومبى أشار هامرتون إلى الهنود من رعايا بريطانيا من سكان بومبى، وسورات، ومناطق أخرى فى الهند. إلا أنه لم يحدد تلك المناطق الأخرى فى الهند، وكذلك لم يشر إلى مواطنى كتش وكيثوار الذين كانوا يشكلون الأغلبية العظمى من الجالية الهندية فى شرق أفريقية(٦٣).

هامرتون والمبررات (الإنسانية) :

كان لفشل هامرتون فى بسط نفوذه على عموم الجالية الهندية، إضافة إلى رغبته فى تركيع أولئك المتمردين على السلطة البريطانية وبالذات مواطنى كتش وكيثوار أن لجأ إلى إستغلال محاربة الرق وتجارة الرقيق كأداة ضغط ضد الهنود يجب أن تفهم فى الإطار العام ألا وهو محاربة الولايات

---

(61) F. O. 54/5 Hamerton to the Government of Bombay, 13 July, 1841.
(62) Sheriff, A., Op. cit. p. 204.
(63) F. O. 54/4 Hamerton to the Government of Bombay, 18 September, 1841 F. O. 54/5 Hamerton to the Secret Committee. Zanzibar, 1842

المتحدة الأمريكية وفرنسا وإبعادهما عن منطقة شرق افريقية، وتركيع مواطنى كتش وكثيوار. مما يوضح بجلاء أن الدوافع "الإنسانية" التى كانت تدعيها الادارة البريطانية فى زنجبار، وحكومة لندن ما هى إلا ذريعة لبسط الهيمنة والنفوذ البريطانى، وحماية مصالحها الاقتصادية والسياسية.

وكان تضمين الاتفاقية التجارية لعام ١٨٣٩ بنودا فى مكافحة الرق يعنى أن الوقت قد حان الاستغلال تلك القضية بما يخدم مصالح بريطانيا، ولتدعيم، وتعزيز النفوذ البريطانى فى شرق افريقية خاصة وأن اتفاقية مورسبى ١٨٢٢ كانت عديمة الفاعلية. وهذا بدوره يقودنا إلى محاولة توضيح دور الهنود المباشر وغير المباشر فى تجارة الرقيق فى شرق افريقيا.

دور الهنود المباشر وغير المباشر فى تجارة الرقيق:

كان الهنود كغيرهم من الجماعات العرقية التى تاجرت، واستقرت فى شرق افريقية تورطوا بشكل مباشر، وغير مباشر فى امتلاك الأرقاء، والاتجار به. ولايعرف على وجه الدقة البدايات الأولى لاهتمام الهنود بامتلاك الأرقاء، أو الاتجار بهم فى شرق افريقية. وهناك العديد من الكتاب والباحثين فى تاريخ المنطقة من يعتقدون بأن نشاط الهنود فى الاتجار بالرقيق إنما يعود إلى عصور موغلة فى القدم. إذ يذكر هولنجزوورث إنه ومنذ القدم كان الهنود يمارسون شراء وتوظيف الأرقاء سواء فى زنجبار، أو على طول الساحل الشرقى لأفريقية(٦٤). الا أن هولنجزوورث لم يحدد ذلك بفترة زمنية. كما أشار شريف إلى الهنود كانوا متورطين وبشكل كبير فى إمتلاك الارقاء، والاتجار بهم، كما بين أن ذلك النشاط لم يكن حكرا على جماعة عرقية بذاتها، وإنما كان يمارسها الهنود كغيرهم من الجماعات العرقية التى

(64) Hollingsworth, L. Op. cit. p. 30.

تاجرت، واستقرت فى شرق افريقية(٦٥). وفى القرن التاسع عشر كان الرق يعد عنصرا من عناصر التجارة وجزاءا لايتجزأ من التنظيم الاجتماعى، والاقتصادى فى شرق افريقية. وكانت زنجبار تعد أحد المراكز الرئيسية لتلك التجارة، ولأن الأغلبية العظمى من الهنود من التجار وأصحاب الحوانيت لهذا فإنهم كانوا يحتاجون إلى أعداد من الأرقاء للعمل فى محالهم التجارية وكان عدد العمال الأحرار قليلا فى زنجبار كما أنه من الصعب الحصول عليهم، وذلك كان يتم شراؤهم أو تأجيرهم من أسيادهم العرب أو الهنود. وكذلك كان الهنود فى حاجة إلى من يقوم بخدمة منازلهم، أو كمتاع. وقد أشار هامرتون فى عدد من تقاريره إلى إحتفاظ الهنود بمحظيات كمتاع. وكان الاحتفاظ بمحظيات كمتاع عادة شائعة لدى الهنود الذين تركوا زوجاتهم فى الوطن الأم (الهند)، واستقروا فى شرق أفريقية. وأكد هامرتون فى تقرير له تلك الممارسة عندما ذكر بأنه لايوجد بانيان هندوسى، أو هندى مسلم ممن إستقر فى شرق افريقية لبعض الوقت لم يشتر أمه يعيش معها خلال مدة إقامته هناك. وفى حالة مغادرتهم عائدين إلى الوطن الأم فإنهم كانوا "عادة ينقلون ملكيتهم، أو بيعهم إلى أحد الأصدقاء من طائفتهم"(٦٦). وكان من المشهور عن "البانيان" من طائفة الهندوس أنهم كانوا لايحضرون معهم زوجاتهم إلى شرق أفريقية . وكانوا عندما يغادرون المنطقة يتركون إماءهم خلفهم. أما الهنود المسلمون، فكان من الشائع عنهم إحضار زوجاتهم معهم، وعندما يغادرون فإنهم عادة كانوا يأخذون معهم إماءهم(٦٧).

---

(65) Sheriff, A., Op. cit. p. 205.

(66) Hamerton to the Government of Bombay, 15 February, 1851. in Gray, J. Op. cit. p. 255. See also F.O. 84/1391 No 58 the "Memorandum".

(67) Idid, See also Burton, R. Op. cit. pp. 257-8.

أما فى مجال الزراعة فإنه بعد نجاح زراعة القرنفل فى زنجبار إستطاع بعض التجار الهنود فى الحصول على إقطاعيات زراعية كبيرة، وكانت تلك الاقطاعات الزراعية تدار بشكل أساسى بعمالة من الأرقاء للحصول على الأيدى العاملة الرخيصة. إضافة إلى ذلك هناك العديد من الملاك العرب من أصحاب الإقطاعيات الزراعية ممن عجزوا عن تسديد ديونهم للمرابين من الهنود، مما دفعهم كما ذكرها هامرتون١٨٤٣ إلى رهن إقطاعياتهم الزراعية لاستغلالها من قبل الهنود وفاء لدين عليهم(٦٨). إلا أن الهنود وبالذات من رعايا بريطانيا وبناء على الاتفاقيات السابقة لتحريم تجارة الرقيق وبالذات اتفاقية ١٨٣٩ ما كانوا يستطيعون إستغلال تلك الأراضى عن طريق إستخدام الأرقاء كيد عاملة لتعويض قيمة الرهن. مما جعلهم كما يؤكد شريف تحت رحمة الملاك العرب(٦٩). ألا أن ما لم يتطرق إليه شريف أن الهنود من رعايا بريطانيا كانوا لايعدمون الحيلة للالتفاف على ذلك الإعلان تحت سمع وبصر الادارة البريطانية فى زنجبار. وكان الهنود من رعايا بريطانيا وعند إتهامهم من قبل المسئولين البريطانين بالتعامل بالرق كانوا ينفون تلك التهم بالادعاء بأن الأرقاء المستخدمين مملكون لأقارب، أو شركاء لهم من غير رعايا بريطانيا(٧٠). ولما كانت الادارة البريطانية حريصة على عدم الاضرار برعاياهم الهنود فإنها لم تكن تضغط وبحزم التأكيد، أو نفى تلك الادعاءات. مما يوضح أن الاضرار بمصالح الهنود يعنى الاضرار بمصالح بريطانيا العظمى.

وكان لانتقال السيد سعيد إلى زنجبار، وتطور إقتصادياتها، وزيادة

(68) F. O. 84/1146 Hamerton to the Government of Bombay. Zanzibar, 9 October, 1843.

(69) Sheriff, A., Op. cit. p. 204.

(70) P.P. 1868 Vol. 56 Class B. Slave Trade Inclosure (1) in No. 79. Consul Churchill to the Secreatary of State to Government of Bombay. Zanzibar, December 22, 1867.

الطلب على الأيدى العاملة لتلبية حاجة التوسع الزراعى أن شجع الهنود على زيادة مساهمتهم فى تجارة الرقيق، خاصة أنها كانت تجارة مربحة، وتدر دخلا مجزيا بالنسبة لهم. وفى تقرير لها مرتون إلى حكومة بومبى فى ١٣ يوليو ١٨٤١ ذكر أن عدد الأرقاء الذين كانوا يشحنون إلى زنجبار من داخليه القارة الأفريقية كانوا ما بين ٨٠٠٠ إلى ٩٠٠٠ عبد(٧١). كما أشار إلى أن تحرياته أثبتت أن الهنود بشكل عام كانت لهم إهتمامات فى تملك الارقاء، والاتجار بهم، بل ذهب هامرتون إلى أبعد من ذلك عندما أتهم جيمع الهنود المستقرين فى شرق افريقية، والبالغ عددهم بحدود ٧٠٠ فرد بأنهم كانوا سماسرة، وتجار رقيق. وركز هامرتون فى تقريره على دور ملتزم الجمارك الهندوسى. وكان الملتزم يحصل على ضريبة مقدارها دولار واحد عن كل عبد يطأ قدمه الساحل. وكانت تلك الضرائب تشكل جزءا كبيرا من دخل السيد سعيد(٧٢).

أما بالنسبة لوكلاء ملتزم الجمارك على طول الساحل الشرقى لأفريقية فإنه كان من صميم عملهم معرفة كل ما يتعلق بتجارة الرقيق سواء الأرقاء المجلوبين إلى الساحل، أو أولئك الذين كان يتم شحنهم إلى الخارج. وكان الوكلاء بذلك على دراية تامة بكل ماله علاقة بتلك التجارة، لذا فإنه كان من مصلحتهم عدم إضمحلالها أو إفشاء معلومات عنها(٧٣).

ذكر هامرتون فى يناير ١٨٤٢ بأن تملك الهنود للأرقاء كان شاملا. كما بين أن السماسرة "البانيان" من طائفة الهندوسى كانوا يحصلون على الأرقاء عن طريق زعماء القبائل الأفريقية فى الداخل. وكان أولئك الزعماء

(71) F. O. 54/5 Hamerton to the Government of Bombay. Zanzibar, 13 July, 1841.

(72) Ibid.

(73) F.O. 48/1391 No 58 the "Memorandum".

الأفارقة يجلبون أسراهم فى الصراعات القبلية إلى الساحل ليتم بيعهم إلى سمسار من "البانيات". كما كان أولئك الزعماء يجلبون معهم العاج والكوبال والصمغ محملة على ظهور الأسرى. وكانوا ويحصلون فى المقابل على بضائع كالخرز والأقمشة ومنتجات هندية أخرى. وكانت المقايضة أساس التعامل، ولا يستخدم فيها العملات النقدية(٧٤).

أشار هامرتون فى تقريره إلى الهندوس كان لهم النصيب الأكبر من تلك التجارة الساحلية، إلا أنه لم يغفل الاشارة إلى مشاركة الهنود المسلمين فى ذلك الاستنزاف البشرى وإن كان نصيبهم أقل من الهندوس. كما أكد هامرتون أن الهنود المسلمين كانوا وبشكل أساسى يشترون الارقاء كخدم للمنازل بينما كان الهندوس يتعاملون بهم وبالالاف(٧٥). لم يوضح لنا هامرتون فى تقريره السبب وراء ذلك، ولكن من المعتقد أن الهندوس كانوا أكثر ثراء من الهنود المسلمين. كما أن تلك التجارة كانت تدر عائدا مجزيا مما حدا الهندوس إلى محاولة عدم الافساح لعناصر أخرى لتنافسهم فى ذلك المجال. وقد ذكر هامرتون فى تقرير له إلى حكومة بومبى فى ٢٩ أغسطس ١٨٥١ أن نسبة الفوائد التى كانت يجنبها أولئك التجار الهنود من وراء تلك التجارة ما بين ٣٠٠ إلى ٥٠٠٪(٧٦). . ا العائد الكبير من وراء الاتجار بالرقيق يبين بجلاء سبب إهتمام الهنود فى الاتجار بالرقيق. كما يوضح التنافس بين الطوائف الهندية للسيطرة على تلك التجارة المربحة، إضافة إلى ذلك فإنه كان سببا من أسباب اتساع تلك التجارة وإزدهارها، كما كان الارقاء من وقت وضع السمسار الهندى يده عليهم إلى حين وصولهم محطتهم النهاية (سوق النخاسة)

(74) Hamerton to the Government of Bombay 2 January, 1842. in Gray, J. Op. cit. p. 2[illegible].

(75) Ibid.

(76) Hamerton to the Government of Bombay, 29 August, 1851. in Gray, J. Op. cit. p. 256.

فإنهم كانوا لايزودون الا بطعام يكاد يكفى لابقاءهم أحياء(٧٧). وهذا من الممكن أن يفسر أيضا السبب وراء تلك الأرباح العالية التى كان يجنيها تجار الرقيق الهنود.

كان السيد سعيد يؤمن بأن ثراء الداخل سوف يعود بالفائدة على الساحل. لهذا فإنه كان يشجع التجار العرب والمغامرين على إرتياد الداخل أملا فى إيجاد أسواق جديدة ولربط الساحل بالداخل. مما كان له أثره فى توغل أولئك التجار، والمغامرين العرب فى أماكن لم يرتدها أحد من التجار الأجانب قبلهم. وأستقر العديد منهم فى الداخل، وأسسوا بعض المراكز التجارية. وأحتكر التجار العرب وبعض السواحليين التجارة مع الداخل، لأن النشاط التجارى الهندى كان يقتصر على الساحل(٧٨).

وكانت من أبرز السلع التى كان يبحث عنها أولئك التجار، والمغامرون العرب الذهب ، والعاج والعبيد، ولما كانت تلك التجارة تحتاج إلى تمويل لجأ أولئك التجار، والمغامرون إلى الهنود للحصول على إحتياجاتهم. وكان الهنود من جانبهم يشجعون التجارة مع الداخل، لما كان يوفره ذلك من عائد مجز، وتصريف لبضائعهم، مما حداهم إلى تقديم التسهيلات إلى العرب، وتمويل حملاتهم إلى الداخل. وكان التمويل يتم بطريقة الائتمان، أو الدين. ويحصل التجار العرب على البضائع كالأقمشة، والخرز، والأسلاك النحاسية، وأشياء أخرى تستعمل فى المقايضة مع الداخل. كما كان الهنود يزودونهم بالبنادق والبارود للسيطرة على الأرقاء، والدفاع عن أنفسهم. وفى حالة عودة أولئك التجار، والمغامرين من رحلة الداخل، فإنهم كانوا يقومون بتسديد ما عليهم إلى التجار الهنود سواء نقدا، أو بضائع مجلوبة من الداخل(٧٩). ومن المفيد

---

(77) Hamerton to the Government of Bombay, 2, January, 1842. in Gray, J. Op. cit. p. 256.

(78) F.O. 48/1391 No.58 the "Memorandum".

(79) Ibid.

أن نشير هنا إلى أن الهنود أنفسهم كانوا يحصلون على معظم بضائعهم من تجار أمريكيين، وأوربيين بطريقة الائتمان، والتى تصل إلى ستة أشهر. وكان التجار الهنود بدورهم يدفعون للتجار الغربيين من عوائد أرباح الداخل. مما يعنى أن العرب والسواحليين والهنود والأمريكيين والأوربيين كانوا متورطين فى تجارة الرقيق سواء بطريقة مباشرة، أو غير مباشرة. والإنسان الأفريقى كان الخاسر من تلك التجارة حيث كان يباع ويشترى، وبأبخس الأثمان. كما أن ذلك يوضح أن تجارة الرقيق ليست حكرا على جماعة عرقية بعينها، وإنما مارستها معظم الجماعات العرقية التى تاجرت، واستقرت فى شرق أفريقية.

فى ٦ ديسمبر ١٨٤٣ أرسل هامرتون تقريرا إلى حكومة بومبى البريطانية، وفى ذلك التقرير أشار إلى نشاط مواطنى كتش وكيثوار فى إمتلاك الأرقاء، والاتجار بهم. وأثار فى تقريره قضيتين أساسيتين أولهما إتهامه للبانيان الهندوسى بتهريب فتيات هنديات إلى زنجبار، والثانية تخوفه من فقدان السيطرة على عموم الجالية الهندية، وبالذات رعايا بريطانيا(٨٠).

أما بالنسبة للقضية الأولى : أثبتت تحريات هامرتون بأن نشاط التجار الهنود فيما يتعلق بتجارة الرقيق لم يكن حكرا على شرق إفريقية، وإنما إمتد ليشمل مناطق شبه القارة الهندية. إذا كان النخاسون الهنود يقومون باختطاف فتيات هنديات من قراهن فى الهند وشحنهن إلى شرق أفريقية. وقد ألقى جرى (١٩٦٢) مزيدا من الضوء على تلك التجارة. وكان النخاسون الهنود لايعدمون الوسيلة لتهريب الأرقاء بعيدا عن أعين الادارة البريطانية هناك، أو فى تحاشى سفن مكافحة الرق البريطانية. وكان من الشائع تسجيل الأرقاء كبحارة ، أو زوجات للبحارة ، أو كخدم لمسافرين على ظهر السفن المتجهة إلى شرق أفريقية. كما كانت تدفع مسبقا عمولة نظير ذلك العمل لأعضاء

(80) I.O. Board Collections. No. 33. Hamerton to the Government of Bombay, Zanzibar, 9 December, 1843. draft No. 253.

طاقم السفينة. وكانت معظم الضحايا شابات هنديات يجلبن للعمل، أو للمتاع لأشخاص فى زنجبار. وفى أحيان كثيرة كن عرضة للبيع فى سوق النخاسة(٨١). وكانت هناك العديد من الحالات لفتيات هنديات نجح السيد سعيد فى تخليصهن من براثن العبودية، وتسليمهن إلى هامرتون وفى هذا الصدد يذكر جرى نقلا عن الجنرال رجبى الذى تولى قنصلية زنجبار بعد هامرتون. أن السيد سعيد أسهم وإلى حد كبير فى الحد من الاتجار فى الفتيات الهنديات فى شرق أفريقية. كما أشار إلى أن السيد سعيد أمر وكلاءه بمراقبة سوق النخاسة، وإبلاغة فى حالة عرض أى فتاة هندية للبيع سواء أكانت من رعايا بريطانيا، أم من رعايا المحميات، والامارات الهندية(٨٢). إن ما ذكره رجبى هو محاولة لايجاد أدلة تدل على أن السيد سعيد كان ضد تجارة الرقيق ويعاملهم معاملة إنسانية ويعمل على تحريرهم. وهنا لابد من توضيح أن السيد سعيد أشتهر عنه معاملته الإنسانية واللائقة للارقاء إلا أنه لم يكن ضد تجارة الرقيق وأنما كان ينفذ سياسة بريطانية أجبر وعلى مضض منه على إتباعها.

أما بالنسبة للقضية الثانية التى أثارها هامرتون فكانت تخوفه من فقدان السيطرة على عموم الجالية الهندية. وكان مصدر قلق هامرتون عدم انصياع مواطنى كتش وكيثوار لسلطة الادارة البريطانية، وعدم إمتثالهم لأوامره. وكذلك ازدياد نشاط مواطنى تلك الامارتين فى امتلاك الأرقاء، والاتجار بهم. إضافة إلى ذلك عدم وجود تعليمات محددة من بومبى فى كيفية التعامل مع مواطنى تلك الامارتين. وكان أكثر ما يخشاه هامرتون أن عدم التعرض لهما من الممكن أن "يشجع كل الرعايا البريطانيين أو مواطنى الهند على الادعاء بأنهم من رعايا حاكم كتش"(٨٣). مما يكون له أثره فى فقدان السيطرة على

(81) Gray, Op. cit. p. 254.
(82) Gray, J. Op. cit. p. 254.
(83) Ibid P. 255.

الجالية الهندية، تلك الجالية التى تعد من الناحية الاقتصادية من أغنى الجاليات، وأكثرها نفوذا. كما تحرمه من إستغلال تلك الجالية لخدمة المصالح الاقتصادية، والسياسية لبريطانيا، لما تمثله تلك الجالية من وسيلة ضغط ضد سلاطين زنجبار. كانت إعداد الجالية الهندية فى ازدياد مستمر إذ ارتفع عددهم من ٢٠٠نسمه عام ١٨١٩ إلى ٣٥٠ نسمة فى منتصف الثلاثينات إلى تقريبا ٧٠٠ نسمة عند مقدم هامرتون ١٨٤٠. وبعد أربع سنوات من ذلك التاريخ وصل عدد الهنود إلى أكثر من ألف نسمة. ويذكر كوبلاند أن عدد الهنود المسلمين كان فى حدود ٦٠٠ إلى ٧٠٠ نسمة، بينما كان عدد الهندوس فى حدود ٥٠٠ نسمة(٨٤). أما الهنود المسيحيون فكانت أعدادهم قليلة جدا، وأغلبهم كانوا كاثوليك قدموا من جوا **Goa** المستعمرة البرتغالية، وكانوا يعدون رعايا برتغاليين(٨٥). وكان لتزايد أعداد الجالية الهندية وبالذات من كتش أن جعل هامرتون أكثر حذرا فى تعامله مع تلك الشريحة من الجالية الهندية.

وإذ كان هامرتون قد تردد فى فرض ما كان يصبو إليه على مواطنى كتش وكيثوار، فإنه كان أكثر ترددا تجاه الهنود من رعايا بريطانيا. ومن المفارقات العجيبة أن تردد هامرتون تجاه دور الهنود فى تجارة الرقيق كان يقابله عزم وتصميم لمنع العرب والسواحليين من الاتجار بالأرقاء بحجة الدوافع الإنسانية. إذ فى ٧ ديسمبر ١٨٤٣، نجح هامرتون فى الضغط على السيد سعيد، وإقناعه فى إصدار إعلان ذكر فيه أنه سوف يوقع أشد العقوبة ضد من يتعامل فى بيع، أو شراء الأرقاء مع الرعايا البريطانيين(٨٦) وأدى

(84) J.H. Hutton. The Indian Middle Class : Their Groth in Modern Times. London 1961. p.276. See also. Coupland, R. East Africa and Its Invaders. P. 484.

(85) Delf, G.Op. cit., p. 10.

(86) I.O. Board Collections. No. 33. Hamerton to Bombay, Zanzibar, 9 December, 1843. draft No. 253.

نشر ذلك الإعلان إلى سخط، واستياء الهنود من رعايا بريطانيا. إضافة إلى ذلك هدد الهنود من رعايا بريطانيا هامرتون بأنهم سوف يطلبون حق حماية السلطان كرعايا له أن هو أصر على موقفه، أو أن يعلنوا أنهم من رعايا حاكم كتش. مما كان له أثره فى تردد هامرتون لذلك لم يعمل جاهدا على تطبيقه. وهامرتون، نفسه ذكر فى رسالة سابقة إلى بومبى فى ١٨٤١ بأنه كان يشعر بالأسف والندم، للإجراءات التى إتبعها لحرمان الرعايا البريطانيين من الاتجار فى الرقيق. وكان يرى بأن ذلك سوف يكون له أثره فى إنهيار إقتصاديات الهنود البريطانيين ، وحرمانهم من التجارة على حساب مواطنى كتش(٨٧).

وهذا يعزز ماذهبنا إليه آنفا من أن محاربة نشاط الهنود فى إمتلاك الأرقاء، والاتجار بهم كان وسيلة، وليس غاية . إذ أنها كانت وسيلة لاخضاع مواطنى كتش وكثيوار المتمردين على السلطة البريطانية، والسيطرة على مواطنى تلك الامارتين الهنديتين كان يعنى إخضاع عموم الجالية الهندية لرغبات، وأوامر الادارة البريطانية فى زنجبار بما يخدم المصالح البريطانية العليا.

أما بالنسبة لموقف حكومة بومبى البريطانية فإنها وإن كانت تهدف إلى تقوية، وتعزيز النفوذ البريطانى فى المنطقة، إلا أنها كانت لاتشاطر هامرتون الوسيلة فى تحقيق الهدف المنشود. ولتوضيح الصورة تبين أن الرق لم يكن محرما بشكل كامل فى الهند البريطانية. كما أن مرسوم ١٨٣٣ الذى ألغى بموجبه تجارة الرقيق فى المستعمرات البريطانية لم يشمل الهند. إضافة إلى ذلك أن مرسوم ١٨٤٣ ألغى الصفة القانونية للرق فى الهند البريطانية، إلا أنه لم يلغ الرق بشكل شامل وفورى وإنما ألغى صفته القانونية، أى عدم شرعيته

---

(87) F. O. 54/5 Hamerton to the Government of Bombay. Zanzibar, 13 July, 1841.

مما يعنى أن الرق كنظام غير معترف به، ولكنه كان موجودا وحكومة بومبى البريطانية كانت لاتعارض حق الهنود فى الحصول على حماية السلطان إن كانوا يرغبون فى ذلك. وكانت ترى بأنه لايحق للادارة البريطانية فى زنجبار حماية أى مواطن من الهند ما لم يتم تسجيل إسمه لدى القنصلية البريطانية. كما أنها لاتعارض تورط الهنود فى امتلاك الارقاء، والاتجار بهم. إذا كانت تعتقد بأنه كما يحق للعرب ، والسواحليين إمتلاك الارقاء، والاتجار بهم فإن للهنود أيضا الحق فى ذلك. ولما كان الهنود من النشطين فى إمتلاك الأرقاء، والاتجار بهم، كما كانوا يعدون الممول الرئيسى لتجار الرقيق، وكسماسرة ، ووسطاء العمليات التجارية فإن اندثار تلك التجارة كان يعنى تعرضهم لضربة اقتصادية قاسية ، لم تكن حكومة بومبى البريطانية ترغب فى حدوثها(٨٨). لهذا فإن حكومة بومبى كانت حريصة على عدم المساس بمصالح الجالية الهندية سواء كانوا من رعايا بريطانيا أو من غير رعايا بريطانيا. إضافة إلى ذلك كانت الجالية الهندية الغنية إقتصاديا وذات نفوذ المتزايد فى زنجبار تربطها علاقات ومصالح متبادلة مع الوطن الأم الهند.

ومن المعروف أن شبه القارة الهندية كانت تعد من أهم المستعمرات البريطانية. وهذا يعنى أن حماية مصالح الجالية الهندية كان يهدف فى الأساس إلى حماية المصالح الاقتصادية، والسياسية البريطانية. وهنا لابد من الاشارة إلى أنه بعد عام ١٨٤٨ لغاية ١٨٥٥ انتهت تقريبا التجارة البريطانية المباشرة مع زنجبار، إذ لاتوجد سجلات لسفن تجارية بريطانية زارت زنجبار، ولعل السبب فى ذلك يعود إلى أن التجار الهنود اخذوا يجلبون البضائع البريطانية إلى الساحل عن طريق الهند. وهذا يعنى أن الشركات والمؤسسات البريطانية رأت أنه من الأوفر لها أن تركز نشاطها على شبه

---

(88) Nicholls, C. Op. cit., p. 209.

القارة الهندية، ومن هنا يقوم التجار الهنود ببيع البضائع البريطانية لقدرتهم على تحمل أرباح أقل مما تتحمله الشركات البريطانية.. إضافة إلى ذلك فشل القنصل البريطاني هامرتون في إعطاء معلومات مفصلة حول الأوضاع الاقتصادية في شرق افريقية، وكذلك تشجيع السفن البريطانية(٨٩). مما مكن الهنود من أن يكونوا قوة إقتصادية في نفس الوقت كانوا يقومون بتصريف البضائع البريطانية. إن الوسائل التي إتبعتها كل من وزارة الخارجية البريطانية، أو حكومة بومبي البريطانية، أو تلك التي لجأ إليها هامرتون لمحاربة تجارة الرقيق كانت تنشد إلى تحقيق الهدف ذاته وهو تعزيز وتقوية النفوذ البريطاني في شرق أفريقية، ولكن بوسائل مختلفة.

في عام ١٨٤٤ أفتتحت فرنسا قنصلية لها في زنجبار. وكان السيد سعيد يأمل من وراء ذلك الافتتاح إيجاد نوع من التوازن السياسي، والاقتصادي مع بريطانيا. إذ كانت العلاقات بين السيد سعيد والقنصل البريطاني قد وصلت إلى الحد الذي طلب فيه السيد سعيد من الحكومة البريطانية تغيير القنصل البريطاني واستبداله بآخر. وفي ١٨٤٥ طلب ابردين عزل هامرتون بعد الشكاوى العديدة التي تلقاها من السيد سعيد، إلا أن تغير الوزارة البريطانية حال دون تحقيق ذلك واستمر هامرتون في عمله السابق كقنصل لبريطانيا في زنجبار(٩٠).

في ٢ أكتوبر ١٨٤٥ عقد السيد سعيد إتفاقية تجارية مع الحكومة البريطانية. وكانت الاتفاقية قد نصت في أحد بنودها على حرمان الرعايا البريطانيين من العمل في تجارة الرقيق(٩١). ومن المعروف أن بريطانيا في معظم إتفاقياتها الرسمية تشير إلى الجالية الهندية سواء أكانوا من رعايا

---

(٨٩) روبرت لاندن ، مرجع سبق ذكره. ص ٧٥.

(90) Nicholls, C. Op. cit., p. 193.

(91) Gray, J. Op. cit., p. 248.

بريطانيا، أم من غير رعايا بريطانيا على أنهم من رعاياها. ومن الملاحظ أنه فى هذه الاتفاقية كما فى سابقاتها لم تتطرق إلى موضوع الرق، وإمتلاك الارقاء، وإنما فقط تجارة الرقيق. إن عدم وضع نص بهذا الخصوص من الممكن أن يعزز ماذهبنا إليه آنفا من عدم رغبة بريطانيا فى تعريض مصالح الهنود للخطر، واهتزاز أوضاعهم الاقتصادية. وكان الهنود من جانبهم سواء من رعايا بريطانيا، أو من غير رعايا بريطانيا يتخوفون من تنفيذ هامرتون لما جاء فى تلك الاتفاقية المتعلق بتجارة الرقيق، مما يعنى حرمانهم من شراء، أو بيع الارقاء. وكان هناك تخوف من حصول حالات تفليس، وخاصة بين من كانوا يملكون الاقطاعيات الزراعية المدارة من قبل الارقاء كيد عاملة. وكان لذلك التخوف أثره فى عدم إستقرار السوق التجارية جاعلا المادة شحيحة، ومانعا إجراء رهونات جديدة بين ملاك الأراضى من العرب ودائنيهم من الهنود. وذكر تاجر أمريكى زار زنجبار ١٨٤٦ بأنه كان هناك الكثير من الخوف من حصول حالات تفليس بين الهنود(٩٢) . ولما كان هدف هامرتون تركيع مواطنى كتش وكيثوار فإنه أخذ يتحين الفرص لتحقيق هدفه المنشود. وكان لزيارة سفينتين حربيتين بريطانيتين "Castor" و "Dee" لزنجبار ١٨٥٠ أن زودت هامرتون بفرصة فى محاولاته السيطرة على مواطنى كتش وكيثوار. وكان هامرتون قد جمع معلومات حول المؤسسات الهندية القريبة من الحدود الجنوبية لاملاك السيد سعيد، كما جمع معلومات عن مدى تعاملها بتجارة الرقيق. وضغط على السيد سعيد، إلى أن نجح فى الحصول على موافقته فى السماح للسفن الحربية البريطانية فى دخول الموانى، والأنهار ، والخلجان، التى كانت تقع ضمن أملاكه فى الحدود الجنوبية . وكان يرغب من خلال ذلك السماح الضغط على مواطنى كتش

---

(92) Sheriff, A., Op. cit. p. .

الذين كانوا يتعاملون بتجارة الرقيق فى تلك المنطقة البعيدة عن أعين السلطة البريطانية(٩٣).

وفى مايو ١٨٥٠ اكتشف البحارة الانجليز فى منطقة "Massani" و "Kionge" حول ديلجادو ما وصف بأنه محجر للارقاء. وحسب التقارير فإن ذلك المحجر المزعوم كان قادرا على استيعاب ٥٠٠٠ عبد. إلا أن البحارة عند تفتيش المحجر لم يجدوا بداخله غير بضائع مملوكة لبعض التجار الهندوس من "البانيان" من مواطنى كتش. كما وجدوا سفينة راسية قرب المحجر. قام البحارة الانجليز باحتجاز السفينة، كما قبض على أربعة هنود من "البانيان" من مواطنى كتش كان يشتبه بأن لهم علاقة بذلك المحجر المزعوم. وأرسل الهنود الأربعة إلى زنجبار تمهيدا لمحاكمتهم(٩٤).

ومن خلال التقارير التى أرسلها هامرتون إلى حكومة بومبى أعترف بفشله، وعدم قدرته على إبراز أى دليل إثبات ضد مواطنى كتش بالتعامل بتجارة الرقيق، أو ملكية المحجر، أو السفينة. إلا أن الغطرسة الانجليزية أبت التراجع عن موقفها. وتم سجن مواطنى كتش الأربعة لأكثر من شهر. كما أمر هامرتون بترحيلهم بعد تنفيذ العقوبة إلى الهند. إضافة إلى ذلك فإنه أثناء تفتيش المحجر المزعوم قام البحارة الانجليزية بإحداث تخريب للبضائع من إتلاف، وتكسير بحجة البحث. كما قتل ثلاثة هنود من مواطنى كتش عندما حاولوا منع تدمير المحجر المزعوم(٩٥). وكان حجم التلفيات والتكسير كبيرا مما يعطى الانطباع بأنه حدث بتعمد من قبل البحارة الانجليز الذين فشلوا فى الحصول على ما كانوا يصبون إليه، وهو الأرقاء.

وبعد مضى شهرين على تلك الحادثة فى يوليو ١٨٥٠ قام هامرتون بالطلب إلى السيد سعيد باصدار مرسوم جديد يحرم بموجبه على الهنود من

(93) F. O. 84/815 Hamerton to Wyivl. Zanzibar, 8 May, 1850.
(94) Sheriff, A., Op. cit. p. 204.
(95) Ibid. P. 205.

رعايا بريطانيا الاتجار فى الرقيق. ولعل ذلك المرسوم هو ما قصدته سالمة بنت سعيد عندما ذكرت بأنه كان للقرار وقعه الشديد على الهنود من رعايا بريطانيا من مالكى الرقيق. وكان البعض من أولئك الهنود "يملك المئات من العبيد" لادارة إقطاعياتهم الزراعية. وذكرت الأميرة سالمة بأن الهنود إشتكوا من ذلك القرار مر الشكوى. وأرسلوا إلينا زوجاتهم، وبناتهم يطلبن منا الرحمة، والعون(٩٦) لا أن الهنود فشلوا فى إقناع السيد سعيد بالوقوف إلى جانبهم. وكان السبب وراء ذلك كما ترى الأميرة هو كون أولئك الهنود من رعايا بريطانيا، وأن "لبريطانيا الحق فى أن تمنع رعاياها من مزاولة ما تعتقد أنه خطأ"(٩٧). ولكن مالم تذكره الأميره هو هو أنه ليس كل الهنود من رعايا بريطانيا، ولكن ذلك ما درجت على ذكره المعاهدات والمراسلات الرسمية للادارة البريطانية فى زنجبار لأهداف سياسية واقتصادية أشرنا إليه آنفا. إضافة إلى ذلك أن السيد سعيد كان فى أواخر أيامه حريصا على "ضمان مركزه فى ممتلكاته وتوطيد نفوذه وهو الأمر الذى كان يعنيه" أكثر من غيره(٩٨). مما يعنى أن تحدى الادارة البريطانية فى زنجبار فيما يتعلق بالسيطرة على الجالية الهندية والتى ميزت الفترة الأولى من عهده قد ولت أو على الأقل خفت كثيرا عن ذى قبل. وكان لذلك أثره فى أن السيد سعيد أصبح أكثر إستعدادا للانصياع لمطالب القنصل البريطانى، وعدم تحديه، بل أن علاقاتها أصبحت مميزة وحميمة.

وكان لحادثة المحجر المزعوم والمرسوم الذى تلاه أثرهما الكبير على عموم الجالية الهندية. إذ أدى إلى ضربة شديدة للتعامل الهندى فى تجارة

---

(٩٦) سالمه بنت سعيد بن سلطان. مذكرات أميرة عربية . ترجمة عبد الحميد حسيب القيسى. سلطنة عمان : وزارة التراث القومى ١٩٧٤ . ص ٢٤٧.

(٩٧) نفس المرجع السابق ، ص ٢٤٨ .

(٩٨) د. جمال قاسم، مرجع سبق ذكره، ص ٢٤٦ .

الرقيق. كما "هزت بعنف" الثقة بالنفس لدى الجالية الهندية فى شرق افريقية. مما حدا ببعض الأثرياء الهنود، وبالذات مواطنى كتش إلى اغلاق محالهم التجارية، والابتعاد لبعض الوقت لعدم شعورهم بالامان سواء على ممتلكاتهم، أو على أنفسهم. وأعترى الجالية الهندية شعور بالخوف من المستقبل وبالذات حول المدى الذى يمكن للادارة البريطانية فيه من التدخل فى شئونهم الخاصة. وكان لعدم وضوح الروية بالنسبة لهم أثره فى ركود الحركة التجارية. وكان ذلك الركود واضحا إذ بعد تسعة أشهر على تلك الحادثة ـ المحجر المزعوم ـ لم يتمكن التجار الأمريكيون من التخلص من حمولة بضائع تقدر قيمتها ب ١٥٠,٠٠٠دولار ماريا‌تريسا(٩٩). إذا كان التجار الهنود سماسرة ووسطاء العمليات التجارية، وكانوا وحدهم الذين يشترون البضائع الأمريكية. كما أن التجار الأمريكيين والأوربيين كانوا يفضلون التعامل التجارى عن طريق الهنود بحكم تملكهم الخبرة، والامكانيات ، والمرونة التجارية .

إستغرق عودة الهنود إلى ممارسة نشاطهم التجارى العادى بعض الوقت. وفى فبراير ١٨٥٢ عادوا إلى السيطرة على زمام الأمور التجارية، والتعامل مع المؤسسات، والتجار الأجانب. وكان لتكاتف الجالية الهندية وتعاونها الأثر الفعال فى ثنى هامرتون عما كان يصبوا إليه. إضافة إلى أن توقف التجار الهنود بشكل عام عن ممارسة النشاط التجارى كان له أثره فى تراجع هامرتون(١٠٠). إلا أن هامرتون فى رسالة له إلى حكومة بومبى فى ٢٩ أغسطس ١٨٥١ ذكر بأنه نتيجة لنشاطات البحرية البريطانية فإن "البانيان" من مواطنى كتش أجبروا على الانسحاب من تجارة الرقيق على الأقل فى ذلك الوقت. وكان هامرتون قد أشار فى تلك الرسالة إلى أنه دون إتخاذ إجراءات حاسمة ، وحازمة تجاه أولئك "البانيان" من موطنى كتش

---

(99) Sheriff, A., Op. cit. p. 205.
(100) Bennett,, N & Brooks. Op. cit. p. 495.

المتعاملين فى الرق، وتجارة الرقيق فإنه كان على ثقة بعودتهم السريعة إلى التورط فى تلك التجارة(١٠١).

وفى عام ١٨٥٤ طلب هامرتون من السيد سعيد إصدار إعلان يأمر فيه جميع الهنود فى أملاكه بأعتاق أرقائهم. ووافق السيد سعيد على طلب هامرتون، إلا أنه تمكن من إقناع الأخير باعطاء الهنود مهلة حددها بسنتين(١٠٢).

كان الفرنسيون نشطين فى تجارة الرقيق فى شرق افريقية. وكانوا يحصلون على الأيدى العاملة الرخيصة للعمل فى مستعمراتهم فى غرب المحيط الهندى. وكان أولئك السماسرة يرفعون العلم الفرنسى لتجنب سفن مكافحة الرقيق البريطانية. وكان هامرتون من جانبه قد حاول منع الفرنسيين من ممارسة ذلك النشاط، إلا أنه قوبل برفض من قبل الفرنسين. وكان الرفض الفرنسى يتمثل بأن الهنود من رعايا بريطانيا، أو رعايا المحميات البريطانية فى الهند كان يمسح لهم فى السابق بالتعامل بتلك التجارة مع الشركات والمؤسسات الفرنسية مع حصانة من العقاب(١٠٣). وفى ١٨٥٥ نشر إعلان فى زنجبار وبموافقة مسئولين زنجبارين أشار إلى أنه يسمح بموجبه للهنود بتزويد الفرنسيين بحاجاتهم من الأرقاء مع عدم تعرضهم للمسائلة القانونية. مما كان له أثره فى إثارة حنق خامرتون الذى أرسل بدوره إلى ٣ سبتمبر ١٨٥٥ تقريرا إلى حكومة بومبى البريطانية ذكر فيه أن الظروف أصبحت مواتية لتشجيع المسئولين الزنجباريين على نشر إعلان

(101) Hamerton to the Government of Bombay, 29 August, 1851. in Gray, J. Op. cit. p. 256.

(102) P.P. 1868 Vol. 56 Class B. Slave Trade Inclosure (4) in No. 79. The Sultan of Zanzibar to Consul Churchill. Zanzibar, December 21, 1867.

(103) Gray, J. Op. cit. p. 256.

ينكر صحة ما جاء فى الإعلان السابق المشار إليه أعلاه. كما ذكر إنه يجب أن يشار فى الإعلان الجديد إلى تحريم تجارة الرقيق على الرعايا البريطانيين فى أملاك السلطان، وعقاب أى هندى يثبت تورطه فى تلك التجارة(١٠٤). ومن المعتقد أن هامرتون كان يقصد بوصفه الظروف المواتية غياب السيد سعيد الذى كان فى زيارة إلى مسقط. وكان الأمير ماجد بن سعيد بن سلطان يدير شئون السلطنة العربية فى غياب والده فى زنجبار.

وكان هامرتون قد أشار فى تقريره أيضا إلى أنه طلب إلى المتنفذين العرب من المتواجدين فى مجلس الأمير ماجد مساعدته فى منع الهنود من الاتجار فى الرقيق، إلا أنه لم يذكر الكيفية التى يستطيع بها العرب مساعدته لتحقيق ما يرجوه، إلا أنه بين بأن جميع العرب الذين كانوا متواجدين فى مجلس الأمير أيدوه فى مطلبه. وكان الاتفاق حسبما أشار إليه هامرتون يتمثل فى أن أى شخص هندى يتهم فى التعامل بتجارة الرقيق يتم مصادرة أملاكه، ويضرب بالسوط أمام العامة. وبعد ذلك يسجن إلى أن تحين الفرصة إلى تسفيره إلى الهند(١٠٥).

بعد مضى أربعة أيام على اجتماع هامرتون بالمتنفذين العرب أبحرت سفينة شراعية (داو) متجهة إلى كتش، وكانت تلك السفينة تحمل عددا من العبيد. وأبلغ هامرتون بأن مواطنى كتش أعلنوا بأنهم قادرين على شحن أى عدد من الأرقاء بوضعهم على الداو كبحارة. وكان ذلك رسالة واضحة لهامرتون على عدم رغبة مواطنى كتش الانصياع لأوامره ، وتهديداته، وإصرارهم على التعامل بالرق وتجارة الرقيق، وتحمل عقبات أعمالهم(١٠٦). وهذا التحدى لايعنى أن المبررات الايديولرجية و(الانسانية)التى لجأ هامرتون

---

(104) Ibid. P. 257.
(105) Ibid.
(106) Ibid.

فى استغلالها للسيطرة على عموم الجالية الهندية، وتركيع مواطنى كتش وكثيوار فشلت فى تحقيق أهدافها، بل على العكس من ذلك أن استغلال تلك المبررات مكن الادارة البريطانية فى زنجبار من التدخل فى الشئون الداخلية للسلطنة، مما كان له أثره فى تعزيز وتثبيت وضع بريطانيا فى السلطنة العربية.

وفى ١٨٥٦ توفى السيد سعيد بن سلطان أثناء عودته من زيارة إلى مسقط، ثم لحقه هامرتون ١٨٥٧. وبوفاة هاتين الشخصيتين اللتين لعبتا دورا مهما وأساسيا فى تاريخ شرق افريقية طويت صفحة من صفحات الصراع من أجل السيطرة على الجالية الهندية لتبدأ بعدها صفحة جديدة تختلف بشكل أساسى عن سابقتها.

الخاتمـــــة

- تتميز العلاقات بين شبه القارة الهندية، والساحل الشرقى لافريقية بعمق جذورها التاريخية.
- كان التعامل التجارى بين السكان المحليين من عرب وسواحيليين، وبين التجار الهنود يتم عن طريق المقايضة. وكان يغلب على ذلك التعامل الطابع الموسمى.
- يعود الفضل للسيد سعيد بن سلطان بتشجيع التجار الهنود على الاتجار، والاستقرار فى أملاكه فى شرق أفريقية. وكان عهده يتميز بالتسامح الدينى، والحرية التجارية، مما كان له أثر فى اسهام التجار الهنود بشكل كبير فى العمليات التجارية، وتحسن أوضاعهم الاقتصادية .
- كان لحاجة العرب إلى التمويل لتطوير زراعة القرنفل، وتوسيع تجارة القوافل مع الداخل، أن جعلهم يلجأون إلى الممولين الهنود. وكان الهنود بدورهم يرغبون باستغلال تلك الحاجة لتحطيم الاحتكار العربى لزراعة القرنفل، والاستفادة من عوائد الدخل .
- كانت هناك أسباب اقتصادية، وسياسية، وراء تعيين السيد سعيد لهندوسيا ملتزما للجمارك ، إذ كان يوفر له المال اللازم وقت الحاجة، فى نفس الوقت الذى لايتطلع إلى النفوذ السياسى. وكان لحاجة السلطان الدائمة للسيولة النقدية أن جعله مدينا بشكل كبير لملتزم الجمارك. وكان الملتزم لايتورع عن إستغلال وظيفته المالية لتدعيم مصالحة، ومصالح طائفته الاقتصادية.
- إستفاد التجار الهنود من تطور التجارة بين زنجبار، وفرنسا ، والولايات المتحدة الامريكية خاصة بعد أن نجحت الأخيرة فى توقيع إتفاقية تجارية مع السيد سعيد، وإقامة قنصلية لها فى زنجبار، وكان القنصل الأمريكى واترز تاجرا، وارتبط بعلاقات تجارية واسعة مع ملتزم الجمارك

- كان لتخوف الحكومة البريطانية من فقدان مركزها المتميز لدى السيد سعيد للحد من النفوذ الأمريكى والفرنسى المتزايد فى أملاك السلطان فى شرق افريقية أن أدى إلى توقيع الاتفاقية التجارية ١٨٣٩. وتعد تلك الاتفاقية البداية الحقيقية للنفوذ البريطانى فى زنجبار. وكانت الاتفاقية قد أعطت الهنود حقوقا وامتيازات ما كانوا ليحصلوا عليها. وتلى عقد الاتفاقية تعيين هامرتون ليمثل مصالح وزارة الخارجية البريطانية، وحكومة بومبى البريطانية.
- المصالح البريطانية فى المجالين السياسى والاقتصادى فى شرق افريقيا وبالذات فى زنجبار كانت وراء محاولة استغلال الجالية الهندية الغنية إقتصاديا ، وذات النفوذ لخدمة المصالح البريطانية.
- السلاح الأول الذى لجأ إليه القنصل البريطانى كان الادعاء بأن جميع الهنود فى زنجبار رعايا بريطانيين، تم ذلك فى نفس الوقت الذى كان عدد الهنود من رعايا بريطانيا لايشكلون إلا نسبة قليلة من مجموع السكان الهنود. وكانت الأغلبية العظمى من الهنود قد قدموا من إمارات أو محميات بريطانية فى الهند وبالذات من كتش وكيثوار، ولايعدون من الناحية القانوينة رعايا بريطانيين.
- تحدى السيد سعيد إدعاءات هامرتون حول الجالية الهندية، ورفض التعاون معه لكسر طوق التعاون التجارى بين القنصل الأمريكى وملتزم الجمارك كان لإسباب إقتصادية وسياسية أما مواطنو كتش وكيثوار فوقفوا موقف المعارض لادعاءات هامرتون كما قاوموا فرض السلطة البريطانية عليهم، لخوفهم من فرض قيود على نشاطهم التجارى، وممارستهم لتجارة الرقيق.
- كانت الجالية الهندية بشكل عام المستفيد الرئيسى من الصراع بين السيد سعيد وهامرتون للسيطرة على الجالية الهندية، إذا كانت مستقطبة من الطرفين. وكان الطرفان يرغبان فى كسب ودّ الجالية الهندية، ورضاها.

- كان الهنود كغيرهم من الجماعات العرقية التى تاجرت، واستقرت فى شرق أفريقيا متورطين بشكل مباشر، وغير مباشر فى الرق وتجارته، كما كانوا يعدون الممول الرئيسى لتجارة الرقيق.
- محاربة بريطانيا لتجارة الرقيق تذرعا بدوافع إنسانية كانت تهدف إلى التدخل فى الشئون الداخلية لزنجبار، كما كانت تحاول الحد من النفوذ الأمريكى والفرنسى فى المنطقة.
- فشل القنصل البريطانى فى السيطرة على عموم الجالية الهندية وإخضاعها لسلطةالادارة البريطانيةجعله يلجأ إلىمحاربةدور الهنود فىالرق وتجارته.
- كان هناك حرص من قبل القنصل البريطانى الذى كان يمثل وزارة الخارجية البريطانية وحكومة بومبى البريطانية الا يؤثر ذلك الإجراء على مصالح الجالية الهندية لأن الإضرار بمصالح الجالية الهندية كان يعنى الإضرار بمصالح بريطانيا.
- كان مواطنوا كتش وكيثوار الأكثر معاناه من محاربة الادارة البريطانية للنشاط الهندى فى تجارة الرقيق، مما يبين بوضوح أن العملية كانت وسيلة وليست غاية، أى تركيع مواطنوا كتش وكيثوار للادارة البريطانية.
- كان السيد سعيد فى أواخر حكمه أكثر مهادنة وكان حريصا على ضمان حكمه. كما كان فى حاجة إلى دعم بريطانيا له سواء داخليا، أو خارجيا. مما كان له أثره فى زيادة التدخل البريطانى فى الشئون الداخلية بحجة حماية مصالح رعاياها الهنود.
- لجوء الإدارة البريطانية إلى إستغلال المبررات الأيدلوجية و(الإنسانية) للسيطرة على الجالية الهندية لم تفلح فى إخضاع مواطنى كتش وكيثوار، إلا أنها مهدت السبيل لتعزيز وتقوية النفوذ البريطانى فى زنجبار.

ملحق رقم (١)*

بسم الله

الى جناب عالي الجناب معلى الاسماء والالقاب المحروس الحاوي للآداب الاكرم الافخم دبيت ارل اوف لارد ابردين المحترم دام

سلام تحفا ووفاق وثناء وداد ودعاء يعرج في معارج القبول فيلاء الاوان وتهب على الدوام في الليالي والايام لجناب المحب

الحوادث والنشاب غير غاية وفي خزائنه الاكرم الاختم المذكور حرس الله شمس ذاته من التكدير ودعاها لا وصفاته من التكدر

ولا زال بالغ الآمال بحيث المولى المتعال في العز والاقبال انا نبعد ما عن تحرير احرف المحبة والمودة نقدم السؤال عن صحة تلك

الذات حميدة الصفات واستقلال جنابك الاوقات حفظهما رب الارض والسموات وان تحركت الى الاطلاع عن الحب من

السؤال فانا من فضل ذو الجلال في حال الاستقلال ببركة وجود ذلك المحب الكامل انه لا يخفاك ان اهل الهند ساكنين

في زنجبار احد عشر سنين واحد من خمسة عشر سنة واحد من عشرين سنة وتولدين وتالدين وعندهم سوابق وسوق

من قديم حالهم كحال العرب في جميع الاحوال حكمهم راجعاً الى العرب مثل باقي الاقطار الذين يتعوذون بها وحكمهم راجع

الى الانكليز كذلك منظور رعية الراو واهل كتش جناب محبنا الاكرم قبطان كوجن ذكر لنا من سابق انهم خارجين من الحكم

والآن نريد النظر بحجة من جنابك حتى نكون عارفين الحقيقة ولينا على قدر ما نعرفنا عنه تفضل بجواب هذه الامور حتى

بالرغبة وكل حاجة او غرض يبدي لجنابك فلا ... منك وانت محرم ٢٧ رمضان ١٢٦١ المحب سعيد بن سلطان

(*) F O. 54/7 Said to F.O., AH27/9/1261.

ملحق رقم (٢)*

Memo. regarding Banians or Natives of India in E. Africa.

41

Of all classes connected with the Trade of E. Africa there is none more influential than the natives of India generally known as "Banians"

Greek & Roman authors describe a flourishing commerce between India, Arabia, & E. Africa, & the earliest detailed accounts we have of this Coast represent a distribution of races connected with Trade very much resembling what we now find existing. Native African races as Cultivators, labourers & sometimes though rarely as petty Rulers. The ruling Power at Ports generally in the hands of foreigners of Arab or Persian origin, & all trade monopolized by Indians, & Arabs with Indian Connection, & having their homes & chief places of business sometimes on the Egyptian, Arabian or Persian Coast but more often in India, at Tatta in Sind, Mandavie in Cutch, the [illegible] ports of Kattywar on the Gulf of Cambay, Surat Calicut & other ports on the Malabar Coast.

Vasco de Gama & the Portuguese who followed him, found a trade relatively to the rest of the Commercial world much larger & more important than at present, but carried on much in the same fashion by vessels of the same build & character as the modern Dhows, availing themselves of the regular Trade winds to sail to & fro between the ports on the same Coasts of Africa India Arabia & Persia, & carrying articles of much the same character as at present. And what is more, to our present

(margin notes: [illegible] of Indian [illegible] with the East [illegible]; [illegible] Voyages [illegible] translated [illegible] Society)

(*) 84/Vol. 1391 No. (58) Memorandum by Sir Bartle Frere regarding Banians or Native of India in East Africa.
Inclosune 1 in Frere to Granville 16 April, 1876.

تابع ملحق رقم (٢)

The "Banians" of Zanzibar
&
The Slave Trade

—

The people generally known as the "Banians" of Z. are Hindoos & Mahometans of Kutch, Kattywar, & a few from other parts of the Bombay Presy. It is said of them

1st That they hold Slaves & 2nd That they support & encourage the S.T., which, but for them, wd. dwindle into small proportions.

2 It is not necessary to allude to the Sources from which these impressions are derived; suffice it to say that they do prevail, & with some amount of conviction. It is however certain, as far as I am aware, that they are not based on the result of any formal enquiry. The evidence taken by the Committee of the H. of Commons in 1871 does not supply the want of such an enquiry, as it merely touches incidentally on the subject; on the contrary the information it gives is of so general a character as likely to mislead in absence of specific details, for instance, the answer to questions Nos. 295 & 536 may lead one to believe that all the Banians in Z, who are subjects of native States are free to acquire & that they do acquire & hold Slaves. Such however is not the case as will be seen from the following remarks.

3. The first intimation the Banians recd. against holding Slaves was given them about the year 1859 by Col. (now Maj. Genl.) Rigby, who followed it up with rigorous measures, & succeeded in Emancipating the Slaves held by the Banians. Many of these Banians had lived in Z. for 25 years & upwards & had been allowed to possess Slaves. The legality of Col Rigby's proceedings with regard to Subjects of native States was disputed by his successor, & on the question be... submitted to the Govt. of Bombay, it was decided that those subjects of Native States who might declare themselves to be under the authority of the Sultan shd. not be interfered with. Some of the Banians took

ملحق رقم (٣)*

The Banian house of Wat Bima first rented the Customs at 70,000 dollars, two years afterwards it was raised to 84,000, and passed into the hands of Sewji, then to his son Jairam at 110,000, it has since advanced, at the expiry of five yearly terms, to 140,000, 180,000 and 240,000, reaching the present amount 310,000.

This includes every sort of custom or duty, such as that on imports, on coast produce, ivory, copal, &c., and slaves, but not special contributions, such as that of the "Wahadimu" or Aborigines of Zanzibar.

The tax paid by the Aborigines of Pemba has for several years ceased, the population having disappeared and been replaced by slaves.

Zanzibar Custom Tariff, 1870.

1. Duty on all foreign goods	5 per cent.
2. Duty on all coast produce, except slaves, ivory, and copal	5 "
3. Slaves:—	
A. Shipped to Zanzibar	2 dollars each.
B. Shipped from Zanzibar	2 "
C. Shipped direct from Quiloa, &c. to Lamo	4 "
4. Copal (Animi):—	
A. From Delgado, &c.	¼ dollar per frasilah.
B. From Quiloa, &c.	20 per cent.
C. From Bagamoyo, &c.	½ dollar per frasilah.
5. Ivory, Hippopotamus	3 " "
Ivory, Elephants':—	
A. Nyassa Ivory:	
Brought to Delgado and Quiloa by Arab caravans	9 " "
" " " by Native caravans ..	15 " "
B. Unyamweri Ivory:	
Brought to Bagamoyo, &c., by Arab caravans, and taken to Zanzibar	9 " "
Brought to Bagamoyo, &c., by Arab caravans, and sold at the coast	12 dollars per frasilah.
Brought to Bagamoyo, &c., by native caravans	15 " "
C. Nassi Ivory:	
Brought to Membas	3 " "
If taken to Zanzibar, additional to the above	1 " "
D. Somali Ivory:	
From the Benadir—	
(Brava, Merka, Mogdeesha)	2 " "

The above is the authorized Tariff which came in force this year, under the circumstances already reported fully to the Government.

N.B.—It is extremely doubtful how far Seyed Majid will succeed in enforcing the coast produce-tax, should the French and Ger.nans go largely into the coast trade with their own ships.

Trade of Zanzibar.

It is impossible to obtain accurate and reliable statistics of the trade of Zanzibar, every one being interested in representing the imports and exports less than they actually are.

The Customs Master, by showing the true imports from abroad and from the African Coast, would disclose the amount of his profits, and thus draw competition into the field, while the foreign merchants have alike no desire to induce others to think of establishing rival houses.

The statement of imports is, however, of all others relating to Zanzibar commerce, the most easily obtained, and the following may in general be relied on as an approximate to the truth.

If we exclude from former Reports the coast produce, we find that there has been a steady increase up to the present time, thus:—

IMPORTS at Zanzibar Custom-House, exclusive of Coast produce.

Year.	Value imported.
	£
1861-2	245,981
1862-3	332,092
1863-4	294,613
1866-7	380,051
1867-8	433,693

(*) F.O. 88/1936. Inclosure in No. 14. Administrative Report of the Zanzibar Agency, 1870.

التعليم وتحديثه فى البحرين

دكتور سعيد خليل هاشم
أستاذ مساعد لمادة تاريخ الخليج الحديث والمعاصر

تمهيد : الأهمية الحضارية للبحرين :

تعتبر جزر البحرين جزءا لا يتجزأ من إقليم البحرين الذى يمتد من جنوب البصرة وحتى إلتقاء شبه جزيرة قطر بساحل عمان.

ويعتبر إقليم البحرين مركزا من مراكز التحضر فى شبه الجزيرة العربية حيث لعب سكان هذا الإقليم دورا فعالا فى التأثير والتأثر فى الشعوب التى تعاملت مع منطقة الخليج كحضارات بلاد الرافدين(١) والحضارات الفارسية والسندية واليمنية والمصرية (الفرعونية) .

ومنذ بزوغ فجر الإسلام استجاب سكان هذا الإقليم للدعوة الإسلامية طواعية، فكان إنضمام هذا الإقليم للدولة الإسلامية الفتية مصدر دعم مادى وبشرى وأمنى لهذه الدولة الناشئة، إذ أن أمن شبه الجزيرة العربية كل لا يتجزأ فى كل العصور.

نشأة التعليم فى العصور الإسلامية حينما كانت البحرين جزءا من إقليم البحرين :

وقد شهدت أهم مناطق هذا الإقليم الثلاث من الناحية الحضارية: جزر البحرين، والقطيف والأحساء تأسيس مدارس بدأت بالمساجد ثم انتشت إلى

---

(١) السومريين، البابليين، الكلدانيين، الأشوريين.

البيوت ثم تأسست مبان خاصة للتدريس إبان العصر الراشدى الأموى، العباسى، ثم العصور اللاحقة مثل عصر العيونيين والجبوريين والحقبة البرتغالية(٢) ثم الفارسية(٣) وكذلك العهد الخليفى(٤) ويمكن تصنيف هذه المدارس إلى ثلاثة إتجاهات :

(أ) مدارس لتعليم القرآن الكريم وهى مدارس مختلطة يقوم بالتدريس فى كل منها رجل أو امرأة فى البيت وأحيانا يتولى التدريس فى مثل هذه المدارس الزوجان، ويطلق على هذا النوع من المدارس "المطوع".

(ب) مدارس تهتم بتعليم تلاوة القرآن الكريم بالإضافة إلى تعلم القراءة والكتابة ومبادئ الرياضيات ويتولى التدريس فى كل منها رجل، وأحيانا تكون الدكاكين أماكن لهذا النوع من المدارس وهى ما يطلق عليها "الكتاب" أى مكان تعلم الكتابة.

(جـ) مدارس تهتم بتعليم تلاوةالقرآن الكريم والحديث والمنطق وعلم الفقه والفلك والرياضيات واللغة العربية وآدابها ولايكون التعليم بها مختلطا ويتولى التدريس فيها غالبا عدد من رجال الدين والأدباء ورجال الفكر والفقهاء.

وقد كانت مدارس البصرة والكوفة(٥) بالعراق المدينتان الإسلاميتان

---

(٢) العهد البرتغالى من ١٥٢١ - ١٦٠٢.

(٣) العهد الفارسى من ١٦٠٢ - ١٧٨٣.

(٤) العهد الخليفى من ١٧٨٣ - ١٨٠٢ ومن ١٨١١ حتى الآن إذ أن الفترة من ١٨٠٢ - ١٨٠٨ تعرضت جزر البحرين للإحتلال العمانى فى عهد البورسعيديين، ومن ١٨٠٨ - ١٨١١ تعرضت للإحتلال السعودى خلال عهد الدولة السعودية الأولى.

(٥) كان يطلق على هاتين المدينتين العراقين لأهمية الدور الذى لعبته هاتان المدينتان ليس فقط فى حياة المجتمع العراقى الفكرية والاجتماعية قبل تأسيس بغداد، وإنما لدورهما الفعال أيضا فى حياة مجتمع أقليم البحرين وقد تأسست هاتان المدينتان خلال عهد سيدنا عمر بن الخطاب حيث تأسست البصرة سنة ١٥هـ والكوفة سنة ١٧هـ.

مصدر إشعاع فكرى لإقليم البحرين. حيث كانت المدارس بهما مراكز لتأهيل رجال الفكر والثقافة بمناطق الاقليم الثلاث. لذا فإن الوصال الإجتماعى والثقافى كان قائما بين إقليم البحرين وعراق الإسلام، حيث أن القطيف والإحساء والبحرين شهدت قيام مدارس لعبت دورا رياديا فى نشر الفكر الإسلامى عبر العصور السياسية للحكم الإسلامى.

أهم المدارس ودورها فى نشر الوعى الدينى والثقافى :

لعبت المستويات الثلاثة من المدارس دورا ملحوظا فى تخفيف حدة الجهل وانتشار الأمية وفقا للأمكانات الأهلية المتاحة، إذ أن كل تلك المدارس كانت خاصة.

فالنوع الأول من المدارس اقتصر نشاطه على تعليم الناشئة من الجنسين تلاوة القرآن وأحيانا حفظه.

وأما **النوع الثانى** فكانت مهمته الأساسية تخريج الكتبة للقيام بالأعمال المكتبية اللازمة.

أما **النوع الثالث** فكان يخرج جماعات متعلمة تحرص على استمرارية التعليم الذاتى بعد التخرج أى تواصل اكتساب المعرفة. وهذا النوع الثالث من المدارس يعود إليه الفضل فى نشر الوعى الدينى والثقافى بين أبناء البحرين إذ أن هذا النوع من المدارس كان أساسا لتخريج رجال الدين والمثقفين والمفكرين من أبناء البحرين قبل أن تشهد هذه الجزر تأسيس المدارس النظامية الحديثة كمدرسة الأرسالية الأميركية والمدرسة الإيرانية ومدرستى الهداية الخليفية فى المحرق والمنامة ومدرسة العلوية فى بلاد القديم(٦)

---

(٦) العاصمة الأولى لجزر البحرين حتى منتصف العقد الثالث من القرن التاسع عشر حيث أصبحت المحرق هى العاصمة حتى عام ١٩٢٠ حينما احتلت المنامة مكانة المحرق بوصفها عاصمة لجزر البحرين ولا تزال.

والجعفرية في المنامة(٧) هذه المدارس التي تأسست خلال العقود الثلاثة الأولى من القرن العشرين على التوالي، كان لها الدور الريادي لتحديث التعليم في جزر البحرين.

وتعتبر بلاد القديم، جد حفص، جزيرة النبيه صالح، سترة، الدراز، المصلى ، دمستان، الماحوز مراكز للنوع الثالث من المدارس القطرية التي أخذت على عاتقها تخريج الطبقة المستنيرة في البحرين، بالإضافة إلى مدارس ومعاهد إقليمية في كل من العراق، الهند ، والحجاز ، ومصر، إيران حيث كانت المدارس والمعاهد الأقليمية تخدم نفس التوجه للثقافة والفكر الإسلاميين اللذان يعتبران الخط الأساسي للمناهج الدراسية في مدارس البحرين. وقد خرجت هذه المدارس الكثير من المفكرين الذين خلفوا إنتاجا علميا مدونا يعجز عن إنتاجه كما وكيفا حملة أعلى الشهادات من خريجي مدارس وجامعات القرن العشرين حيث تحديث التعليم.

وعلى الرغم من وجود الكثير من الإنتاج العلمي لرجال الفكر البحرانيين خريجوا التعليم القديم ممثلا في المخطوطات والمطبوعات التي ما تزال تحتضنها مكتبات خاصة في "الخليج ودور الأرشيف والمكتبات الأوربية العامة إلا أن غالبيتها أتت عليه عوادي الأيام بسبب تعرض جزر البحرين لغارات القوى الطامعة في الخليج كغارات العمانيين في عهدي اليعاربة ١٧٠٠ ، ١٧١٨ ، ١٧٢٨ وفي عهد البورسعيديين خلال الأعوام ١٧٩٩ ، ١٨٠٠، ١٨٠٢- ١٨٠٨(٨)

---

(٧) الجعفرية، نسبة إلى المؤسسين الجعافرة، الإمامية أو الإثنى عشرية وهي أكثر فرق الشيعة عددا بالعالم وأكثرهم أعتدالا وهذه المدرسة هي نفسها أبي بكر حاليا.

(٨) تعرضت جزر البحرين للاحتلال العماني خلال هذه السنوات، انظر النبهاني، محمد خليفة: التحفة النبهانية في تاريخ الجزيرة العربية، دار احياء العلوم ببيروت، ١٩٨٦ ص٩٠ ٩١.

١٨١٦- ١٨٢٨(٩)، كما تعرضت البحرين لاحتلال الموحدين خلال عهد الدولة السعودية الأولى من ١٨٠٨-١٨١١ إذ دخلت قوات الموحدين البحرين فى هيئة محرريين من الاحتلال العمانى ثم قلبوا ظهر المجن وأصبحوا محتلين. وقد تم تحرير البحرين من إحتلال الموحدين عام ١٨١١ بسبب الجهود التى قام بها عبد الرحمن بن راشد الفاضل نتيجة لتجميعه قوات من مختلف أنحاء الخليج من ناحية ولحشد قوات الموحدين العسكرية لمواجهة الحملة العثمانية على شبه الجزيرة بقيادة محمد على والى مصر لتحرير مناطق نفوذ الموحدين فى شبه الجزيرة العربية، بل وغزوهم فى عقر دارهم فى الدرعية.

وقد تعرضت البحرين لأضرار مادية وبشرية من جراء هذه الغزوات، فقد تقلص عدد السكان والمدن من ٣٦٠ إلى ٦٠ مدينة وقرية(١٠) . ولتوضيح أثر الغارات الأجنبية على البحرين يمكن الاستنارة بوصف صاحب أنوار البدريين لما حل بالبحرين فيقول :

"وهذه الجزيرة أعنى بها البحرين أحسن المدن الثلاث جامعة(١١) للكمال لكثرة العلماء والمتعلمين والاتقياء والورعيين والشعراء والادباء والمتأدبين وخلص الشيعة المتقدمين وكثرة المدارس والمساجد وفحول العلماء الأماجد وهى مع ذلك ذات نخيل وأشجار وعيون وأنهار وأرضها قابلة لكل الزراعات

---

(٩) نفسه ص٩٨ - ١٠١، ١٠٣ - ١٠٤، انظر لوريمر جـ: جـ. دليل الخليج القسم التاريخى جـ٣، مكتب الترجمة بديوان حاكم قطر، الدوحة ١٩٦٨، ص١٢٧٨ - ١٢٨١، ١٢٩٢ - ١٢٩٧.

(10) Neibuhr, M., Travels Through Arabia and Other Countries in the East, Edinburgh, 1792, P. 152: Faroughy, Abbas: Bahrain Islands, New York, 1950 pp. 64, 66 - 68.

(١١) يعنى البحرين، الإحساء والقطيف.

وبها مغاص الدرالجن من جميع الجهات إلا أنه قد عصفت بها الآن عواصف الأيام ولعبت بأهلها حوادث الدهور والأعوام التى لا تنيم ولا تنام فشتت شمل أهاليها وبددت نظم قاطنيها وفرقتهم فى كل مكان ومزقتهم ايدى سبا من أهل الجور والعدوان. فصارت أكثر رسومها عالية، وبيوتهم على عروشها خاوية وخلت من السمير والمسامر وأنعكست عكس النقيض فكانت كما قال الشاعر :

تنكر منها عرفها فاهيلها غريب وفيها الاجنبى أهيل وأقفرت من أهلها الربوع والمساجد ودرست من أهلها المدارس والمعابد فتجد أكثر قراها رسوما دائرة والقليل بآثار تحكى نضارة أهلها خرابا غير عامرة وقد عمرت أهلها أكثر الأطراف والبلدان ونشروا فيها شعائر الإسلام والإيمان فأكثر العلماء الموجودين ومن سلف البلدان العربية كالقطيف وابى شهر وأطراف فارس ولنجه ومسقط وميناء المحمرة وأطرافها والبصرة وشيراز وكثير من أطراف العراق والعجم منهم حديثون ومنهم قديمون فكانت مصداق المثل أو الدعاء والحديث المرسل الذى ذكره السيد المعاصر السيد محمد باقر فى روضاته كما قدمناه وهو قولهم خرب الله البحرين وعمر أصفهان ولقد فسره وانصف وأن كان منها والآنصاف من شعار اهل الإيمان بما حاصله أن خراب البحرين سبب لعمران أصفهان بأهل البحرين مما فيهم من الصلاح والإيمان والإيتان.(١٢)

يتضح لنا من خلال النص السابق أنه كان بالبحرين العديد من رجال العلم والمفكرين الذين يعود الفضل فى نشأتهم العلمية إلى مدارس النوع الثالث الآنف الذكر الذين تركوا أنتاجا علميا ضخما، الا أن تعرض البحرين لغارات الطامعين كما هو موضح آنفا أدى إلى هجرة انعديد من هؤلاء حفاظا على

---

(١٢) البلادى، الشيخ على الشيخ حسن البحرانى: أنوار البدريين فى تراجم علماء القطيف والإحساء والبحرين، مطبعة النعمان: النجف الأشرف، ١٣٨٠-١٩٦٠م ص٤٩-٥٠.

أرواحم وعلمهم وأعراضهم وأموالهم خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر حيث استقروا فى مدن سواحل الخليج متجاورين فى أحياء عرفت باسم الوطن الأم.(١٣)

ويمكن الاستدلال من خلال الاستشهاد بالنصوص التالية على العدد الكبير من العلماء الذين كانت تزخر بهم جزر البحرين فيقول صاحب كتاب أنوار البدريين :

"حدثنى بعض الصادقين من الأخوان عن جدى لأبى المرحوم الشيخ على ابن المقدس الشيخ سليمان أن بيتنا فى البلاد القديم أجتمع فيه فى عصر(١٤) من الاعصار خمسة وأربعون عالما مجتهدا ومشاركا للاجتهاد دون الطلبة من أولادهم وكانوا أصحاب نعم جسيمة".(١٥)

ويقول أيضا :

"إن فاتحة أقيمت لبعض أشخاص البحرين فى مسجدها المسمى بالمشهد ذى المنارتين فاتفق فيها حضور ثلاثمائة أو يزيدون من العلماء الأفاضل فى وقت من الأوقات فأتى رجل يسأل عن مهمة فى دينه فقصد المشار إليه من بينهم فسأله عنها فأحاله على الذى عن يمينه فسأله فأحاله على الذى الى جانبه وهكذا لم يزل يحيل كل واحد على الآخر حتى أتى على آخر ذلك الصف ثم أحالوه على الأول أى المسئول اولا فأحاله على الذى كان يساره فسأله فأحاله على الذى جانبه وهكذا أتى على آخرهم فاحالوه على الاول فرجع اليه وأجابه عن مسألته أنتهى" .(١٦)

---

(١٣) حى البحارنة (منطقة، فريج) البحارنة، انظر: الريحانى، أمين: ملوك العرب، الجزء الثانى، مطابع صادر ريحانى، بيروت ١٩٥١، ص٢٢٣.

(١٤) عصر بمعنى وقت العصر أى بين الظهيرة والغروب.

(١٥) البلادى، الشيخ على الشيخ حسن البحرانى: المرجع السابق ص٥٠.

(١٦) نفسه ص٥٠ – ٥١.

وشاهد آخر على احتضان جزر البحرين للعديد من رجالات الدين والفكر أنه توجد بجزيرة النبيه صالح مدرسة مندثرة تحتوى على قبور سبعين عالما شهداء كلهم قتلوا فى إحدى غزوات العمانيين اليعاربة خلال عام ١٧٠٠و ١٧١٨و ١٧٢٧(١٧).

ومن بين رجال العلم والمفكرين البحرانيين الذين برزوا منذ القرن السادس عشر وحتى مطلع القرن العشرين حوالى ١٣٣ عالما جلهم تركوا إنتاجا علميا سجلوا من خلاله عطاءهم الفكرى سواء كان فى مخطوطات أو كتب(١٨) ومن بين هؤلاء على سبيل المثال :

١ - الشيخ سليمان الماحوزى(١٩)، والذى بلغت مؤلفاته ٦٢ بين كتاب ورسالة فى الاحكام الدينية المختلفة.

٢ - الشيخ حسين الشيخ محمد الشيخ أحمد آل عصفور الدرازى(٢٠) البحرانى بلغت مؤلفاته ٤٨ بين كتاب ورسالة.

٣ - الشيخ عبد الله الحاج صالح السماهيجى(٢١) البحرانى، وألذى بلغت مؤلفاته حوالى ٤٤ كتاب ورسالة .

---

(١٧) نفسه ص .

(١٨) نفسه من ص٥٦ - ٢٧٣، انظر أيضا: البحرانى، الشيخ يوسف بن أحمد لؤلؤة البحرين، مكتبة العلوم العامة (سنة ومكان النشر غير موجودين).

(١٩) نسبة إلى الماحوز احدى قرى البحرين العريقة.

(٢٠) نسبة إلى الدراز احدى قرى البحرين العريقة.

(٢١) نسبة إلى سماهيج احدى قرى البحرين العريقة أيضا وتشتهر بوجود عدد من البساتين والينابيع أشهرها ريًا.

٤ - الشيخ يوسف بن الشيخ أحمد بن الشيخ إبراهيم آل عصفور الدرازى البحرانى والذى بلغت مؤلفاته ٢٠ بين كتاب ورسالة فى الاحكام المختلفة.

٥ - الشيخ أحمد الشيخ صالح بن طعان بن ناصر بن على السترى(٢٢) البحرانى والذى بلغت مؤلفاته ٢٣ بين كتاب ورسالة.

٦ - كمال الدين الشيخ ميثم بن على بن ميثم البحرانى المشهور بالعالم الربانى وهو من كبار رجال العلم والأدب وله مؤلفات ما تزال باقية إلى اليوم وقبره فى الماحوز وهو أحد المزارات الهامة فى البحرين.

هذا سيل من فيض من رجال الفكر الذين خرجتهم مدارس النوع الثالث التى أهتمت بالتركيز على أتقان اللغة العربية وآدابها بالاضافة الى شتى حقول المعرفة وخاصة ما يتعلق بالعلوم الإسلامية والفكر الإسلامى بشكل عام.

نظام التعليم فى المدارس القديمة ذات التوجهات الفكرية ودورها فى نشر الفكر والثقافة الإسلامية :

يطلق على نظام التعليم فى مدارس النوع الثالث نظام الحوزات العلمية(٢٣)، إذ تتكون الحوزة من عدد من المدارس موزع على عدد من القرى والمدن وكانت المدارس تتخذ من المساجد مكانا لها. وكانت الحوزات تتركز فى المدن الرئيسية حيث تضم ثلاث حوزات :

---

(٢٢) نسبة إلى جزيرة سّرة فى البحرين وتضم عدداً من القرى وهى: المعامير واديان، نويدرات، مركوبان، الخارجية، خريان، سفالة، حالة أم البيض، القرية، مهزه، العكر الشرقية، العكر الغربية.

(٢٣) الحوزة: وهى حلقة أو مجموعة من العلماء، وتعتبر بمثابة المجلس العلمى الأعلى لمجموعة من المدارس تتبعها يتولى رسم السياسة التعليمية، واعداد المناهج الدراسية لتلك المدارس.

أولا : الحوزة العلمية فى بلاد القديم التى كانت تعتبر عاصمة البحرين آنذاك حتى العهد الخليفى ١٧٨٣ حينما سيطر العتوب على جزر البحرين بزعامة الخليفيين ممثلين فى أحمد بن محمد الخليفة الذى كنى بالفاتح بمناسبة ضم البحرين إلى النفوذ الخليفى العتوبى.

وهناك عدد من المدارس يتبع حوزة بلاد القديم منها مدرسة الماحوز القرية التى خرجت الكثير من العلماء والمجتهدين.

ثانيا : الحوزة العلمية فى جد حفص المدينة الثانية فى البحرين آنذاك واحدى المدن الهامة حاليا فى البحرين، ومن المدارس التابعة لحوزة جد حفص :

(أ) مدرسة القدم .

(ب) مدرسة بورى.

(جـ) مدرسة الشاخورة، مسجد السدة فى جد حفص، وكانت المدرسة التى إتخذت من المسجد مقرا لها مشهورة بالأبحاث الفقهية العالية، حيث برزت شهرتها خلال العهد البرتغالى حيث كان يؤم هذه المدرسة العديد من طلاب العلم من جميع أنحاء البحرين.

(د) مدارس آل الصادقى تتمركزان فى مسجدين فى جد حفص فى محلة الشارى كما تسمى، وأمتازت هاتين المدرستين بتخريج كبار علماء الحديث كالسيد ماجد الصادقى الذى هاجر إلى أصفهان بايران ولذلك يقال خرب الله البحرين وعمر أصفهان لكثرة العلماء الذين شردوا من البحرين أثر تعرضها للغزوات المختلفة خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر على أيدى العمانيين والموحدين، فهاجروا حفاظا على أرواحهم وعلمهم.

(هـ) مدرسة الشيخ داود بن أبى شافيز وهذا المسجد لايزال يؤدى رسالته العلمية فى مجال الفكر الإسلامى والدراسات الدينية ومن أبرز رجال الفكر الإسلامى فى البحرين الذين لايزالون يقومون بمهمة التدريس فيه الشيخ

سليمان المدنى، وهذه المدرسة مجـاورة إلـى بيتـه، ومدرسـة الشـيخ داود هـذه كانت تشتهر بتخريج المتخصصيين فى الفلسفة والعلوم الفكرية بل إن مؤسسها كانت له مدرسة فكرية فى الفلسفة والمنطق.

ثالثا : الحوزة العلمية فى جزيرة النبية صالح ومن مدارسها :

(أ) مدرسة سترة.

(ب) بالإضافة إلـى أربـع مـدارس تتبـع الشـيخ داود فـى نفـس الجزيـرة والتى خرجت الكثير من العلماء والمجتهدين، وتعرضت هذه المـدارس لنكبـة خلال الغزو العربـى العمـانى للبحريـن فـى عـامى ١٧١٨و ١٧٣٨، إذ بلغـت الخسائر البشرية فى محيط رجال الفكر ما بين ٤٠- ٧٠ عالما، بالإضافة إلى مصادرة آلاف المخطوطات والكتب من هذه المدارس.(٢٤)

إلى جانب الحوزات العلمية ومدارسها هناك مجمع علمى فى جد حفص أسسه الشيخ داود بن أبى شافيز يعقد كل يوم خميـس مـن كـل أسـبوع صباحـا لمدة أربع ساعات تقريبا ويحضره كبـار العلمـاء مـن البحريـن بالاضافـة إلـى العلماء الذين يتواجدون فى البحرين من الخارج آنذاك، حيث يتبـادلون الـرأى والنظر حيال مختلف القضايا المستعصية والظواهر الإجتماعية الموجودة ليس فقط على المستوى القطرى والإقليمى بل أيضا على المسـتوى العـالمى، حيـث ترد مسائل دينية تتعلق بالأحكام الإسلاميـة مـن شـتى أنحـاء العـالم الإسـلامى يستفسرون عن حلوم لها.

ويعتبر يومى الخميس والجمعة عطلة رسمية للحوزة.

---

(٢٤) البلادى، الشيخ على الشيخ حسن البحرانى: المرجع السابق.

ومدرسة البحرين الفقهية تتميز عن مدرسة العراق بأمور لعل أهمها(٢٥) :

أن مدرسة البحرين تلتزم بمصدرين للتشريع فقط ولا تجيز العمل بالرأى والاجتهاد والمصادر العقلية فى مقام استنباط الأحكام، وهذان المصدران هما :

١ - الكتاب . ٢ - السنة.

الدور العلمى للحوزة ومستوى التعليم بها :

تهدف المناهج العلمية للحوزة لاعداد طلاب ذوى أفكار قادرة على إستيعاب الفلسفة الغربية لتثبيت دعائم الفكر والثقافة الإسلامية .

ويمكن تقسيم مراحل الدراسة فى الحوزة إلى ٤ مراحل :

الأولى : درجة دراسات المقدمات الأولى، وفى هذه المرحلة يتلقى الطالب الدروس فى علوم الفقه اللغة العربية وأصول الدين والمنطق وشيئا يسيرا من الفقه المجرد عن الدليل.

الثانية : مرحلة المقدمات الثانية، حيث يتلقى فيها الطالب توسعة فى علوم المنطق وعلم الكلام والفلسفة وأصول الفقه والحديث.

الثالث : مرحلة السطوح العليا، وفيها يتوسع الطالب فى دراسة كتب الفقه الاستدلالى، ومناقشتها لتتكون عنده ملكة القدرة على الفقاهة والاستنباط وأصدار الإحكام.

الرابعة : حضور أبحاث كبار الفقهاء، لمعرفة طرائقهم فى الاستدلال ومناقشتهم أيضا فى ذلك لتقوية ملكته على الاستنباط .

---

(٢٥) مقابلة شخصية أجراها الباحث مع الشيخ سليمان المدنى فى أبريل ١٩٨٧ بالبحرين بمنزله فى جد حفص.

طريقة التدريس بالحوزة :

١ - طريقة التدريس فى الحوزات العلمية تختلف عن طرق وأساليب التدريس فى المدارس المعاصرة المتفرنجة أى التى أتبعت أساليب التعليم الغربية.

عادة تكون الدراسة فى حلقات. والحلقة لا تكون محدودة العدد، قد تكون من أستاذ وتلميذ واحد وقد تصل إلى ٥٠أو ٦٠طالبا وأستاذ واحدا، والمهم فى الأمر أن يكون الطالب والاستاذ متجاوبان مع بعض. حيث يتح هذا النوع من التعليم للطالب حرية اختيار أستاذه، وللاستاذ الحق فى قبول الطالب أو رفضه وللطالب الحق فى ترك هذه الحلقة إلى حلقة أخرى فى نفس المستوى يديرها أستاذ آخر، اذا وجد نفسه أكثر تجاوبا من الأخرى. ولكن ليس للأستاذ بعد الموافقة على قبول الطالب أن يرفضه ثانية. وعادة ما تحتوى المدرسة على العديد من الحلقات سواء كان بالمساجد أو بمبانى خاصة تحتوى على عدد من الغرف ولكل حلقة غرفة، أما إذا كانت المدرسة تستخدم المسجد فأن الحلقات تكون موزعة بالمسجد مع ترك مسافات بينها تحاشيا لايذاء طلاب الحلقات الأخرى.

فى المدارس الحديثة يكون الأعتماد على جهد الطالب الذى يترتب عليه مراجعة كافة المصادر التى أشار إليها المحاضر فى محاضرته ويعاون المحاضر الطالب فى الحصول على المصادر المطلوبة حتى يتأكد المحاضر أن الطالب أستوعب المطلب العلمى.

فى المرحلتين الأخيرتين : السطوح والبحث الخارجى من حق الطالب أن يحتفظ بوجهة نظره الشخصية دون خوف من معارضة المحاضر لرأيه. ويقيم الأستاذ الطالب على مقدار ما أستوعب من الموضوع العلمى ومدى جديته فى قراءة المصادر. وابتداء من المرحلة الثانية يحق للطالب إختيار تقديم مادة على أخرى.

وفى مراحل البحث الخارج يتولى التدريس بهذه المرحلة علماء فى مستوى المرجعية أو الإجتهاد حيث يشرفون على إعداد الطلبة لابحاثهم وتوجيهها التوجيه السليم.

ويمكن القول أن الحوزات العلمية بالبحرين التى كانت تدير العديد من المدارس لا تقل شأنا من حيث المستوى العلمى لخريجيها وأساتذتها ومناهجها العلمية عن مثيلاتها فى كل من النجف، كربلاء، الحلة ، الناصرية، المحمرة ، البصرة، القطيف، الاحساء ، قم ، خراسان، أصفهان، حيدر آباد وغيرها.

كما أنه يمكن القول أن الإنتاج الفكرى لخريجى الحوازات العلمية البحرانية لا يمكن أن يصل إليه خريجو التعليم الحديث فى العالمين العربى والإسلامى حتى على مستوى حملة أعلى الشهادات الذين لا يفتقرون فقط إلى الثقافة الإسلامية وإنما ضحالة المامهم بإتقان قواعد اللغة الأم (العربية).

حيث يصعب حتى على أغلبية حملة الماجستير والدكتوراه، أن يحاضروا باللغة الفصحى فى مجال الدراسات الإسلامية واللغة العربية وآدابها بالإضافة إلى العلوم الإجتماعية والإنسانية بشكل عام(٢٦).

وقد بلغ الاستهجان باللغة العربية حتى على صعيد المؤتمرات العلمية، فقد عقد المؤتمر العالمى الخامس للتربية الإسلامية خلال الفترة من ٨ - ١٢ مارس ١٩٨٧، والذى نظمه المركز العام لجمعيات الشباب المسلمين العالمية بالقاهرة، فكانت البحوث التى قدمت خلال المؤتمر قد أعد ٩٥٪ منها تقريبا بواسطة أساتذة جامعات وقد بلغت نسبة البحوث العربية التى قدمت للمؤتمر باللهجة العامية ما بين ٦٠ - ٧٠٪(٢٧).

---

(٢٦) نفسه. انظر أيضا، المحبوبة، جعفر باقر: ماض النجف وحاضرها، سنة ومكان النشر غير مدونة، ص٣٧٩ - ٣٨١.

(٢٧) مقابلة مع الدكتور محمد فريد حجاب.

وقد اقتصرت الحوزات العلمية ومدارسها في البحرين على الجعافرة وهم شيعة أهل البيت من الإمامية إما مدارس المطوع والكتاتيب فكانت منتشرة فى مختلف أنحاء البحرين يؤمها المسلمون من مختلف المذاهب.

كذلك فقد كانت لسكان هذه الجزر المسلمين السنة مدارس تجمع بين المستويات الثلاثة المطوع والكتاتيب والدراسات الإسلامية الفكرية واللغة العربية وآدابها حيث ظهرت هذه المدارس منذ عشرينات القرن التاسع عشر فى كل من مدينتى المحرق والمنامة وقد لعبت دورا لا ينكر فى نشر الوعى الدينى والثقافى منها:

مدرسة الشيخ راشد بن عيسى بن أحمد بن خميس.

مدرسة حسين بن سلمان بن مطر، مدرسة محمد بن حسين الخاطر، مدرسة الغتمان، ومدرسة الشيخ أحمد بن مهزع(٢٨).

تحديث التعليم أو فرنجته فى البحرين :

بدأ تحديث التعليم فى البحرين منذ مطلع القرن العشرين وذلك بإتباع النظام الغربى فى التعليم أو فرنجته، وقد شمل اغتراب التعليم فى البحرين المبانى ومحتوياتها من غرف الدراسة وما تحويه من مقاعد ووسائل تعليمية ونظام الحصص وتوزيع المواد الدراسية واعداد المناهج والإدارة المدرسية والموجهين التربويين والقيادات التربوية بدائرة المعارف التى تحولت فيما بعد إلىوزارة التربية والتعليم منذ مطلع العهد الاستقلالى فى١٤أغسطس ١٩٧١م.

ويمكن القول أن الإرسالية الأمريكية التى تأسست فى البحرين عام ١٩٠٤ كانت أولى تجارب التعليم النظامى الحديث وكانت نسخة من المدارس

---

(٢٨) الخاطر، مبارك: ناصر الخيرى، الأديب الكاتب (١٨٧٦ - ١٩٢٥)، المطبعة الحكومية بالبحرين ١٩٨٢، ص٧.

الغربية سواء أكان ما يتعلق بالخط العام للمنهج التعليمى واتجاهاته العامة الإجتماعية والثقافية أو نظم وأساليب التعليم وقد تغير اسم هذه المدرسة إلى مدرسة الرجاء فى مطلع الثمانينات والتسمية تعتبر ذات صبغة دينية، وهناك ٤ مراحل دراسية فى هذه المدرسة.

(أ) مرحلة الروضة ومدتها عام دراسى كامل.

(ب) المرحلة التمهيدية ومدتها عام أيضا.

(جـ) المرحلة الإبتدائية ومدتها ٦ سنوات.

(د) المرحلة الإعدادية ومدتها ٣ سنوات.

ويبلغ مجموع سنوات المرحلة الدراسية أحد عشر عاما. وقد أصبحت عشر سنوات فقط بعد الغاء الروضة.

بالنسبة للمناهج الدراسية يتم تدريس مادة اللغة العربية الحساب واللغة الإنجليزية والتربية الدينية وفقا للمنهج المسيحى منذ المرحلتين الأوليتين.

وقد بدئ فى تدريس التربية الدينية الإسلامية فى هذه المدرسة خلال العام الدراسى ٦٨/ ٦٩ كخطوة أولى لتدخل الوزارة فى مناهج هذه المدرسة، ويتم تدريس هذه المادة من بداية المرحلة الإبتدائية. كما بدئ فى تطبيق مناهج الوزارة فى هذه المدرسة منذ العام الدراسى ٧٠/ ١٩٧١ تقريبا، عدا اللغة الإنجليزية والتربية الدينية المسيحية، فتنفرد إدارة المدرسة بوضعها بالتنسيق مع الكنيسة الإنجيلية الوطنية بالبحرين.

وتعطل هذه المدرسة يومى الجمعة والآحد أسبوعيا. أما جنسيات المدرسات اللاتى يدرسن فى هذه المدرسة، فبعضهن أمريكيات تعلمن اللغة العربية فى لبنان، وكذلك هناك مدرسات عربيات مسيحيات من مصر، فلسطين، لبنان، وبعضهن يأتين من الضفة الغربية، أو زوجات بعض العاملين الأجانب فى البحرين.

وهناك نشاط اجتماعى تبشيرى يتم بين تلاميذ هذه المدرسة ويتمثل فى:

١ - توزع نشرات أسبوعيا على الطلبة تأتى من لبنان مكتوبة باللغة العربية وكان لهذه المنشورات هدف أعلامى للفكر المسيحى ففى الوقت الذى تبرز فيه هذه المنشورات حسن النية تجاه الإسلام، تتضمن تلك المنشورات عناوين لمفكرين يتولون الدعاية للحضارة الغربية والفكر المسيحى لإتاحة الفرصة للتلاميذ أو ذويهم للأتصال بتلك الشخصيات التى تقوم بدورها بمراسلة من يتصلون بهم ويزودونهم بالكتيبات أو الكتب المجانية الدعائية.

٢ - إقامة احتفالات خلال أعياد الميلاد والأعياد الدينية المسيحية الأخرى. حيث ترسل مع التلاميذ دعوات إلى أولياء أمورهم ترجوهم الإذن لأولادهم للحضور إلى المدرسة للمشاركة فى اللإحتفال بأعياد الميلاد، حيث يحضرون إلىالمجلس فى البيت الشرقى(٢٩)، حيث يشاهد التلاميذ التمثليات التى تعبر عن مناسبة عيد الميلاد، كما كانت توزع هدايا رمزية على التلاميذ فى نهاية الأحتفال، اضافة إلى بعض المأكولات الخفيفة، ويقوم التلاميذ سلفا بدفع تبرعات للإعداد لمثل هذه الاحتفالات(٣٠).

وكانت المدرسة الإرسالية تضم مكتبة يوجه التلاميذ بقضاء وقتهم فيها، حيث كانت تضم كتباً ومجلات يغلب عليها الطابع التبشيرى وخدمة الفكر المسيحى الغربى.

يمكن القول أن خضوع البحرين للحماية البريطانية وكونها مركزا للنفوذ البريطانى السياحى والعسكرى فى المنطقة، فقد أدى ذلك بالتالى إلى

---

(٢٩) المكان الحالى لمدرسة الرجاء بالمنامة.

(٣٠) مقابلة شخصية مع تلميذ بحرينى مسلم وتلميذة غير بحرينية تلقيا تعليمهما الابتدائى والاعدادى بهذه المدرسة.

توفير المناخ الملائم لنجاح الخدمات الإجتماعية للإرسالية الأمريكية التى اتخذت من البحرين مركزا لخدماتها الصحية والتعليمية فى المنطقة المصبوغة بصبغة تبشيرية كذلك فإن نمو النشاط التعليمي والصحى للمركز التبشيرى يعتبر بحد ذاته دعاية فعالة للحضارة الغربية.

لذا فإن توفير الحماية لمركز الإرسالية بالمنطقة ورعاية نشاطاتها المختلفة يعتبر واجبا اخلاقيا من قبل بريطانيا. من هنا يمكن القول أن النشاط التبشيرى والاستعمارى وجهان لعملة واحدة وهى خدمة الحضارة الغربية.

ولا شك أن غياب مثل هذه المدارس فى البحرين خلال العقد الأول والثانى قد ساعد على استقطاب الكثير من أطفال وشباب البحرين من الجنسين وخصوصا من أبناء الفئات الثرية، والميسورين.

لم يكن الأهالى يدركون جميعهم الأخطار المحدقة بالتحصيل العلمى لأولادهم وبناتهم وما يتعلمون من قيم إجتماعية ودينية. كذلك كانت المدرسة الإيرانية هى ثانى مدرسة فى البحرين حذت حذو مدرسة الإرسالية فى تطبيق النظام الغربى فى التعليم، حيث تأسست فى بداية العقد الثانى من القرن العشرين.

وكان تأسيس مكتبة اقبال أوال عام ١٩١٣(٣١) التى تحولت إلى ناد بعد وقت قصير بواسطة بعض المتعلمين مثل محمد صالح خنجى أحد خريجى الأزهر وناصر الخيرى أحد تلاميذ تلك المدرسة وآخرون من طليعة المتعلمين، ويعد ذلك النشاط خير شاهد على وعى بعض أفراد المجتمع للتوجيهات الدعائية للفكر المسيحى بشكل خاص والحضارة الغربية بشكل

---

(٣١) بالمنامة فى شارع الشيخ عبد الله، للمزيد من المعلومات انظر الخاطر مبارك: القاضى الرئيسى قاسم بن مهزع، البحرين ١٩٧٥، ص١٣٦ - ١٣٧، انظر أيضا، الكتابات الأولى الحديثة لمثقفى البحرين ١٨٧٥ - ١٩٢٥، البحرين ١٩٧٨، ص٣٩ -٤٠.

عام. ولذلك فإن نادى اقبال أوال قد أخذ على عاتقه نشر الوعى الدينى والوطنى بين أفراد المجتمع عن طريق اعداد المحاضرات القيمة من قبل الأعضاء التى كانت تتضمن نقدا للأبعاد الحقيقية للتعليم فى هذه المدرسة ونشاطاتها الثقافية والإجتماعية ونقداً أيضا للنفوذ البريطانى المتنامى فى البحرين والخليج والذى يقوم بحماية البعثة الأمريكية ونشاطاتها سواء كانت الصحية – أو التعليمية – أو التبشيرية.

لذا فإن تأسيس مدرسة الهداية الخليفية بالمحرق ثم المنامة، كمدارس أهلية بدعم من رجال البر والإحسان ما هو إلا رد فعل من قبل الغيورين من أهالى البحرين لحماية الناشئة من الالتحاق بتلك المدرسة والتأثر بدسائس مناهجها. كذلك تم تأسيس مدرسة العلوية فى بلاد القديم عام ١٩٢٨ ومدرسة الجعفرية فى المنامة (أبو بكر حاليا) ١٩٣٠ بجهود رجال الخير.

مساوئ التعليم الحديث :

تتمثل مساوئ التعليم الحديث فى البحرين فى إهمال الإهتمام بمادة اللغة العربية والتركيز على النحو وعدم توفير المدرسين الأكفاء لهذه المادة، وكذلك الحال بالنسبة لمادة التربية الإسلامية بالإضافة إلى ذلك أن تدريس مادة التربية الإسلامية فى البحرين تعانى من المشاكل بسبب التباين المذهبى إذ أن منهج التربية الإسلامية فى مراحل التعليم العام موضوعة وفقا لفقه المذاهب السنية بينما غالبية المجتمع البحرانى ينتمون إلى مذهب الشيعة الإثنى عشرية فالطالب والمدرس يكونان فى مأذق بين منهج المادة الوزارى وبين الإنتماء المذهبى. وهذا بدوره يؤدى بالتلميذ إلى النفور وعدم الإهتمام بهذه المادة والتوسع فى مطالعاته فيها. ويقترح الباحث هنا اعداد منهج يتفق عليه عن طريق اعداد لجنة مشتركة تمثل البارزين من المهتمين بالدراسات الإسلامية من الطائفتين المسلمتين السنة والشيعة لدعم التقارب بين المدارس الفكرية

للمذاهب الإسلامية المختلفة. ولا شك أن هذا بدوره يعتبر من الوسائل التى تدعم الوحدة الوطنية، وتخفف حدة التعصب المذهبى الأعمى والتخلص من عقدة التقوقع المذهبى خصوصاً بين الطلبة فى مرحلة التعليم الجامعى.

ايجابيات التعليم الحديث:

أما بالنسبة لإيجابيات التعليم الحديث فتتمثل فى:

(أ) توفير الكوادر البشرية لتغطية حاجة الدولة فى شتى مرافق الخدمات بالقطاعين الخاص والعام.

(ب) أن التعليم الحديث بصفته نظاما من بناة الفكر الغربى فإن ارتباط أجهزة التربية والتعليم فى البحرين بالمؤسسات التربوية الغربية سواء كان ما يتعلق بتأهيل الخبرات التربوية والتعليمية البحرانية فى تلك المؤسسات الغربية أو الاستعانة بالخبرات الغربية فى مدارس ومعاهد وكليات البحرين يجعل البحرين فى مستوى التعايش مع مختلف تطورات العصر فى شتى المجالات التنموية ويخلق جيلا واعيا ذو ثقافة ومهارات متطورة.

الخاتمة

بعد دراسة نظم التعليم التقليدية الإسلامية وأساليبه بالإضافة إلى دراسة تحديث التعليم أو فرنجته يتضح لنا أن هذه الجزر قد شهدت نهضة علمية متواضعة قبل التحديث لا يمكن للباحث أن يمر عليها بعجالة، ففى ذلك اجحاف لمنطق الحقيقة والتاريخ. فبالنسبة لنظام التعليم قبل التحديث يمكننا استنتاج الآتى:

١ - لعبت مدارس المطوع والكتاب والحوزة دوراً كبيراً فى نشر الوعى والفكر الإسلاميين وحفظت لأهالى هذه الجزر هويتهم الدينية من خلال تنشئتهم تنشئة إسلامية عربية.

٢ - أن خريجى هذه المدارس قد تعلموا أو حفظوا تلاوة القرآن وتعودوا الفصاحة فى النطق وفى إثراء ثقافتهم وفكرهم الإسلامى العربى حيث ساعدهم ذلك على البراعة فى الحديث والتعبير.

٣ - أن تدريس اللغة العربية وهى لغة القرآن قد أعطى اهتماماً كبيراً فى مدرستى الحوزة والكتاب من خلال القراءة والشعر والأدب فنشأ خريجو هذه المدارس متقنين للغتهم الأم. فليس غريباً على هذه المدارس التحدث أو الكتابة بلغة بليغة.

أما بالنسبة لتحديث التعليم، فيمكن استنتاج الآتى:

١ - أن المناهج الدراسية فى مراحل التعليم العام قد ركزت على المواد التى تؤهل التلاميذ للعمل أو لمواصلة الدراسة كالعلوم الاجتماعية والرياضيات واللغة الإنجليزية والتربية الرياضية والتربية الفنية، وانتقص حق اللغة العربية والدراسات الإسلامية، فكان ذلك وبالا على الأجيال التى تلقت هذه المناهج ولا تزال.

٢ - أن نسبة ليست قليلة من مدرسى اللغة العربية ليست مؤهلة لتدريس هذه المادة نتيجة لافتقارهم للخبرة والثقافة بل الرغبة أحيانا. ولا شك أن ذلك يعود بأوخم العواقب على الأجيال المتلاحقة من خريجى مراحل التعليم العام فى البحرين إلى درجة أن خريجى هذه المدارس لا يجيدون الكتابة أو القراءة أو التحدث بلغة سليمة، فكيف ستكون النتيجة بالنسبة لأولاد هؤلاء حينما يقومون ببناء أسر لهم، لذا يمكن القول أن سلبيات هذه المناهج تعتبر جناية فى حق المئات من الأجيال اللاحقة.

٣ - أن نسبة ليست قليلة من مدرسى التربية الدينية فى مراحل التعليم العام ليست مؤهلة لتدريس هذه المادة نتيجة لعدم استقامتهم خلقيا وغياب الخبرة والثقافة الدينية بل وغياب الرغبة فقد يعهد إلى أحد المدرسين بتدريس التربية الدينية لتكملة جدولة، خصوصا فى سنوات التأسيس الثلاث بالمرحلة الإبتدائية. فكثيرا ما يحدث عدم اتقان المدرس للنحو فكيف يمكن لهذا المدرس أن يدرس التلاميذ التلاوة الصحيحة، ففاقد الشئ لا يعطيه. وينبه الباحث إلى خطورة التغاضى عن هذه المشكلة الحساسة فى التعليم. فالقرآن واللغة العربية صنوان، بل أن الباحث يعتقد أن القرآن هو واحة اللغة العربية. إذ أن تعليم التلاميذ للتلاوة سيساعد على اتقانهم للغة العربية تحدثا وكتابة ولغة متى توفر المدرسون الأكفاء.

وفى الحقيقة فإن ضحايا مناهج التعليم الحديث التى أدت إلى افتقار الخريجين إلى اتقان لغتهم وضحالة ثقافتهم الإسلامية أو عدمها بالإضافة إلى جهلهم بالقرآن لا تقتصر على خريجى مراحل التعليم العام وإنما تمتد إلى خريجى الجامعات بل وإلى أساتذة الجامعات أيضا. فهناك نسبة من أساتذة الجامعات لا يتقنون اللغة العربية وتراهم يلقون محاضراتهم باللهجة العامية، فكيف ستكون يا ترى حصيلة الطلاب، وما مصير اللغة العربية الفصحى. إن

الباحث يوصى القائمين على أجهزة التعليم بالعالم العربى عامة وبالبحرين خاصة بما يأتى:

١ – تعزيز مادة اللغة العربية فى مراحل التعليم العام عن طريق:

(أ) زيادة الحصص وتغيير المناهج بصورة مستمرة لتلبية الحاجة واستيعاب التطور الاجتماعى والثقافى.

(ب) إعداد المدرس الكفء للقيام بهذه المهمةالخطيرة حفاظا على كيان المجتمع التراثى.

(جـ) خلق الحوافز المختلفة للمتفوقين فى اللغةالعربية.

(د) إيجاد مسابقات مختلفة بين التلاميذ لتعزيز اللغة العربية وإقبالهم على إتقانها.

(هـ) جعل التدريس باللغة العربية الفصحى اجبارياً فى المراحل النهائية بالتعليم العام وكذلك فى التعليم الجامعى.

٢ – تعزيز مادة التربية الإسلامية فى مراحل التعليم العام عن طريق:

(أ) زيادة الحصص المقررة لهذه المادة.

(ب) تغيير المناهج بشكل مستمر كى يواكب تطورات العصر، حتى يكون تقبل المادة بشكل سلس وعصرى.

(جـ) اعداد المدرس الكفء من ناحية المستوى الأخلاقى، الألتزام الدينى، اتاحة الفرص لتطوير خبراته وثقافته، لكى ينعكس على تلاميذه بشكل ايجابى.

(د) إيجاد فرص للناشئة كى يتعلموا تلاوة القرآن الكريم سواء كان بالمساجد أو المدارس الحكومية، عصراً، ويحيى الباحث تجربة وزارة العدل بالبحرين لتخصيصة مراكز لتعليم تلاوة القرآن وحفظه فى المساجد ويطالب بتوسيعها جغرافيا لتعم الفائدة.

٣ – عقد ندوات ومحاضرات على مستوى التعليم العام والعالى والمجتمع للتوعية بالتركيز على الاهتمام بتلاوة القرآن ومحاولة التحدث بلغة قريبة من الفصحى على مستوى الأسرة، لكى يستمر البناء ويثمر، لأنه لا فائدة من التعويل على الجهات الحكومية، دون أن تتحمل الأسرة جزءاً من المسئولية، مثل حث الأولاد على تلاوة ما تيسر من القرآن يوميا.

إن هذه المقترحات لا تحمل فى طياتها توجها ايدلوجياً، بل تحمل رأيا علميا ممحصا، يعز عليه أن تضيع لغة القرآن أساس التراث الدينى والقومى، فإذا لم يكن لنا اهتمام بالحفاظ على هويتنا الدينية، فعلى الأقل يجب أن يكون لنا هم فى الحفاظ على هويتنا القومية وهذا أضعف الإيمان.

المصـــادر

أولاً: الأولية :

(أ) الدراسات :

١ – البلادى، الشيخ على الشيخ حسن البحرانـى: أنـوار البدريـن فـى تراجـم علماء القطيف والإحساء والبحرين، مطبعة النعمـان، النجـف الأشـرف ١٣٨٠هـ – ١٩٦٠م.

٢ – البحرانى، الشيخ يوسف بن أحمد: لؤلؤة البحرين، مكتبـة العلـوم العامـة، سنة ومكان الطبع غير مكتوبة.

٣ – النبهانى، محمد خليفة: التحف النبهانية فى تـاريخ الجزيـرة العربيـة، دار إحياء العلوم – بيروت ١٩٨٦م.

4 - Neibuhr, M., Travels Through Arabia And Other Countries in the East, Edinburgh, 1792.

(ب) المقابلات الشخصية:

١ – مقابلة شخصية مع الشيخ سليمان الشيخ محمد على المدنى فـى البحريـن فى أبريب ١٩٨٧م بمنزله فى جد حفص.

٢ – تم عقد لقاء بجامعة البحرين فى أبريل ١٩٨٧ مع تلاميذ أنهـوا تعليمهم بمدرسة الإرسالية الأمريكية بالبحرين خلال السبعينات من هذا القرن.

٣ – التقى الباحث مع الدكتور محمـد فريـد حجـاب، أسـتاذ الفلسـفة الإسـلامية المسـاعد بجامعـة البحريـن، كليـة العلـوم والآداب والتربيـة دائـرة اللغـة العربيـة والدراسـات الإسـلامية، الـذى مثـل الكليـة فـى المؤتمـر العـالمى الخامس للتربية الإسلامية الذى عقد بالقاهرة خلال الفـترة مـن ٨ – ١٣ مـارس ١٩٨٧، حيـث قـدم بحثـا لمؤتمـر بعنـوان: "الفكـر الـتربوى فـى الإسلام بين الوحدة والتنوع".

ثانيا : الثانوية :

(أ) الدراسات :

١ - الريحانى، أمين: ملوك العرب جزءان، مطابع صادر الريحانى بيروت، ١٩٥١م.

٢ - Faroughy Abbas: Bahrain Islands, New York, 1950.

٣ - لوريمر، ج . ج: دليل الخليج، القسم التاريخى، جـ٣، مكتب الترجمة بديوان حاكم قطر، الدوحة ١٩٦٨م.

٤ - الخاطر، مبارك: القاضى الرئيى الشيخ قاسم بن مهزع البحرين ١٩٧٨م.

٥ - ــــــــــــ : الكتابات الأولى الحديثة لمثقى البحرين ١٨٧٥ - ١٩٢٥ البحرين ١٩٨٧م.

٦ - ــــــــــــ : ناصر الخيرى، المطبعة الحكومية البحرين ١٩٨٢.

٧ - المحبوبة، جعفر باقر: ماض النجف وحاضرها، سنة ومكان النشر، غير مدونة.

بداية الكارم ومعناه

في العصر الفاطمى

د. محمد بركات البيلى

كلية الآداب - جامعة القاهرة

تناول كثير من الباحثين موضوع الكارم بالبحث والدراسة لما له من أهمية فى التاريخ الاقتصادى خاصة فى مصر الإسلامية. وإذا كان المستشرقون هم أكثر الدارسين اهتماما بهذا الموضوع وقدموا فيه جهودا متميزة، فقد عنى به أيضا بعض الباحثين العرب ومنهم من جاء فيه بأراء غير مسبوقة، إلا أنه من الملاحظ أن غالبية الدارسين قد تناولوا الكارم بشىء من التعميم وبدون تمييز بين مراحله المختلفة فحكموا على أوله بما وجدوه عن آخره على الرغم من أن التطور الذى أصابه الكارم قد أوجد تفاوتا فى طبيعته من مرحلة لأخرى وقد أدى تجاهل الدارسين لهذا التطور أو تغافلهم عنه إلى تضارب آرائهم حول الكارم فى أكثر من ناحية.

كان أول ما إختلف فيه الدارسون بشأن الكارم هو اسمه الذى لم ينتهوا فى تفسيره بعد إلى رأى قاطع(١) وقد عرض صبحى لبيب فى بحث له عن الكارمية(٢) بعض الآراء التى سبقته فى تفسير اسم الكارم وأدلى برأيه فيها

---

(١) عطية القوصى : تجارة مصر فى البحر الأحمر منذ فجر الإسلام حتى الخلافة العباسية، ص١٠١.

(٢) صبحى لبيب : التجارة الكارمية وتجارة مصر فى العصور الوسطى، المجلة التاريخية المصرية، مايو ١٩٥٢ ص ص٥ - ٥٢.

فذكر أن كترمير أخذ بقول القلقشندى إن اسم الكارم مأخوذ عن الكانم وهى منطقة من السودان الغربى تقع بين بحر الغزال وتشاد ثم انتشر هذا الاسم بين من اشتغلوا بتجارة البهار بعد أن وقع فيه تصحيف وأصبح كارم. ومع أن لبيب يشك فى صحة هذا الرأى إلا أنه يرى عدم التقليل من أهميته نظرا لما وجده عند الملاح العربى ابن ماجد من أن طريق التجار لاستجلاب الفلفل قديما كان إلى بلاد الكانم. ثم أشار لبيب بعد ذلك إلى رأى ليتمان الذى يفترض أن اسم الكارم مأخوذ عن كلمة كوراريما Kuararima وهى كلمة أمهرية تعنى الحبهان الذى كان تابلا من التوابل التى تاجر فيها الكارمية ثم تصحفت هذه الكلمة وأصبحت كارم وأطلقت على هؤلاء التجار. ويستدرك لبيب على ليتمان بأنه إذا كان يقترح إرجاع تسميتهم إلى سلعة من سلعهم فمن الجائز أيضا أن ترد نسبتهم إلى العنبر وهو الكارم وبرهن لبيب على وجهة نظره بأنه "كان فى القاهرة سوق مشهور للعنبر أو الكارم وذلك لنفاق تجارته إذ .يكاد يوجد بأرض مصر امرأة وإن سفلت إلا ولها قلادة من العنبر الأصفر أو الكارم"(٣) لكننا نستدرك على إستدراك لبيب بأن المقريزى الذى إستند إليه لبيب فيما رآه آنفا واقتبس عنه عبارته السابقة وإن لم يشر صراحه إلى ذلك قد ذكر أن سوق العنبر المشار إليه كان يوجد مكانه إبان الدولة الفاطمية سجن لأرباب الجرائم يعرف بحبس المعونة، وقد ظل قائما حتى أيام السلطان قلاوون الذى "هدم حبس المعونة وبنى فى موضعه سوقا أسكنة بياعى العنبر وكان للعنبر إذ ذلك - أى فى سلطنة قلاوون - بديار مصر نفاق وللناس فيه رغبة زائدة ولايكاد يوجد بأرض مصر إمرأة ولو سفلت إلا ولها قلادة من عنبر"(٤) وعلى ذلك، يبدو أنه من غير المعقول أن يظل نشاط هام

(٣) نفس المرجع ، ص ص٥ - ٥٣.

(٤) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار جـ٢ ص٤٧٤.

مثل الكارم بغير اسم منذ ظهوره حتى يتخذ له إسم فى سلطنة المنصور قلاوون.

وكان جوايتاين ممن حاولوا تفسير اسم الكارم، إذ يرى أن كلمة كارم ليست عربيةالأصل مستندا فى ذلك إلىتبرير يصعب قبوله أو فهمه وهو ورود كلمة كارم فى وثائق الجنيزة ذات مرة دون أن تلحق بها أداة التعريف "ال" ويبدو أنه لم يفهم أن لتعريف الأسماء فى لغة العرب صورا عديدة منها التعريف بالاضافة وهو ماجاءت الكلمة معرفة به فى الوثيقة المشار إليها "كارم السنه"(٥) ويضيف جوايتاين أنه لايوجد فى العربية كلمة تحمل معنى يتصل بنشاط الكارم بينما توجد فى لغة التاميل بجنوب الهند كلمة "كاريام" التى من معانيها الأعمال أو الأشغال، ولما كانت أعمال الشرق الأوسط الرئيسية مع ساحل الهند الشرقى هى فى الأصل أعمال تجارية فمن المحتمل أن يكون ذلك الاسم قد أطلق على ملاك السفن والتجار المترددين على هذه البلاد"(٦).

من الواضح أن جوايتاين قد نحا منحى ليتمان فى إيجاد أصل غير عربى لكلمة كارم ولكن ينتقص من صحة رأى جوايتاين أن اسم الكارم لم يطلق على كافة التجار المترددين على الهند من مختلف الأمصار الإسلامية وإنما كان يطلق على فئة بعينها يعرفها أحد الباحثين بأنها "طائفة من التجار تأسست فى مصر وعدن أثناء العصر الفاطمى وتزايدت أهميتها فى أيام الأيوبين والمماليك مما أدى إلى تحكمهم فى تجارة البحر الأحمر والمحيط الهندى"(٧). وعلى الرغم من تحفظنا على دقة هذا التعرف فإنه يدل على أن

(5) India Book, No. 215. Univ. Liberery - Cambridge. Ts Box 28. Fol. 33, p.1.

(٦) بداية تجار الكارم وطبيعة تنظيمهم. "من كتاب دراسات فى التاريخ الإسلامى" ترجمة عطية القوصى ص ص٢٧٩-٢٩٠.

(7) King; Historical Dictionary of Egypt, Cairo, 1984, p.384.

اسم الكارم لم يكن يشمل كافة المترددين على الهند، ولدينا تراجم لعديد من التجار ذهبوا إلى الهند والصين فى عصر الكارم - إن صح هذا التعبير ـ ولم يكونوا كارمية منهم على سبيل المثال الشيخ أبو العباس الحجازى كان ممن أقام بأرض الصين والهند أربعين سنة وقد قابله أبو حامد الغرناطى بمصر سنة ٥١٢هـ ورأى له بالقاهرة من الحمامات والخانات والدكاكين ما يدخل عليه كل يوم جملة من المال وكان له سبعة أولاد من سبعة أنواع من الجوارى، صينية وهندية وحبشية وسرنديبية وغيرهن ومع ذلك لم ينعت بالكارمى وإنما لقب بالحجازى(٨) وتاجر آخر من المغرب أشار إليه أبو حامد الغرناطى أيضا، سافر إلى الصين فى البحر وأقام بها مدة ووصل إلى بلده المغرب بأموال عظيمة وكان يعرف بعبد الرحيم الصينى(٩) وغير ذلك مما يدل على أن اسم الكارم لم يكن يشمل كافة التجار المترددين على الهند وهو ما ينتقص من صحة الرأى الذى ذهب إليه جوايتاين.

أما الشاطر بصيلى فقد رأى أن كلمة كارم تتكون من مقطعين أولهما "كار" بمعنى حرفة أو عمل أو تجارة وثانيهما "يم" بمعنى المحيط أو البحر أو النهر الكبير ثم سقط حرف الياء من "كاريم" فصارت "كارم" التى تعنى ـ فى رأيه - حرفة التجارة فى البحار(١٠) مع أنه لو سار نحو الدلالة اللفظية المنطقية لهذا التقطيع الذى أجراه - وهو تقطيع مقبول ـ لوجد أن كلمة كارم تعنى "كار البحر" وهو معنى قد يدل على المشتغلين بأمور الملاحة من نواتية وربابنة ونواخذة أكثر مما يدل على التجار الذين يركبون البحر ، ويظهر

---

(٨) تحفة الألباب، ص١٠٨.

(٩) نفس المصدر نفس الصفحة.

(١٠) الشاطر بصيلى: الكارمية ، المجلة التاريخية المصرية ١٣ / ١٩٦٧ ، ص ص٢١٧-٢٢١.

الفرق بين الدلالتين واضحا فيما كتب عن الرحلات البحرية فى بحار المشرق، فعلى سبيل المثال يميز بُزرك فى عبارة واحدة بين "تجار البحر" و "البحريين"(١١) وهو ما يتفق مع تمييزنا بين "حرفة التجارة فى البحار" التى يراها البصيلى تفسيرا لكلمة كارم وبين "كار البحر" الذى يبدو لنا كدلالة لفظية لذلك التقطيع المقبول الذى أجراه البصيلى، ومع ذلك فلعلنا نستطيع أن نجد تفسيرا أخر لكل مقطع من مقطعى الكلمة.

بالنسبة للمقطع الأول وهو "كار" فمن الشائع تفسيره بمعنى الحرفة أو العمل وهو استخدام دارج لايوجد فى لسان العرب وإنما يوجد فيه "الكار" بمعنى سفن منحدرة فيها طعام بموضع واحد(١٢) وربما يكون لهذا المعنى صلة بموضوع الكارم خاصة إذا أخذنا فى الإعتبار ملاحظتين هامتين هما:

أولاً: وصلت إلينا أقدم إشارة عن الكارم عند ابن أيبك الدوادارى فيما ذكره عن غلاء سنة (٤٥٦هـ/١٠٦٣م)، إذا يجعل من أسباب ذلك الغلاء : قلة التجار وانعدام الوارد وانقطاع الكارم(١٣) ويدل ذلك - إذا صح فهمنا - على أن الكارم لم يكن حينذاك مجرد تجارة فى التوابل والكماليات ولكنه كان يشتمل على سلع غذائية مؤثرة يتسبب انقطاعها فى غلاء الأسعار، ولعل ذلك له صلة بتفسير "الكار" بأنه سفن منحدرة فيها طعام، ويبدو أن كلمة "كار" بمعنى سفينة مصرية الأصل، إذ يذكر أحد باحثى المصريات أنه وردت فى الكتابة المصرية منذ عصر الدولة الحديثة كلمةكار فى صيغتين Krr و Kr

---

(١١) عجايب الهند، ص١٤١. يقول "ومن طريف أخبار تجار البحر ومن ركبه ما حدث من اسحاق بن اليهودى.. فحدثنى غير واحد من اخواننا البحريين أنه ورد عمان من الصين فى مركب لنفسه وجميع ما فيه له".

(١٢) ابن منظور : لسان العرب ، مادة كور.

(١٣) الدرة المضيئة فى أخبار الدولة الفاطمية ص ص٣٨٠-٣٨١.

ومعناهما مركب وإن كانت الأولىKrr أكبر حجما من الثانية Kr وتستخدم الأولى Krr فى نقل الحبوب بينما تستخدم الثانية .Kr فى نقل البضائع المختلفة وفى نقل البضائع من مركب إلى آخر ويضيف الباحث أن تسمية هذه المركب Kr تقترب من تسمية "كار أو كارات وكان مركبا للزاد والطعام والمتاع وكثيرا ما يتعرض للسرقة نظرا لما يحمله على ظهره من مؤن ومواد تموينية وذلك فى العصر الإسلامى"(١٤).

ثانياً : أبدى جوايتان ملاحظة هامة عن بداية الكارم استمدها من دراسته لوثائق الجنيزه مؤداها أن الكارمية لم تظهر فى البداية كجماعة تجارية كبرى وإنما ظهرت كقافلة من السفن أو مجموعة من النواخذة يسافر التجار على سفنهم التى تنقل البضايع فى حماية أصحابها الشخصية أو حماية وكلائهم(١٥) ولايعز على الفهم ملاحظة ما لذلك من علاقة بتفسير الكارم على أنه سفن.

أما عن المقطع الثانى وهو "يم" فقد يعنى به "البحر الذى لايدرك قعره ولا شطاه" أو يعنى به النهر الكبير، ولكن ابن منظور خص نهر النيل بمصر باسم اليم فهو الذى أمرت أم موسى حيث ولدته وخافت عليه من فرعون أن تجعله فى تابوت ثم تقذفه فى اليم(١٦) قال الله تعالى ﴿فاقذفيه فى اليم فليلقه اليم بالساحل﴾(١٧) وعند المسعودى ما يؤيد ذلك إذ يقول "وليس فى أنهار الدنيا نهرا يسمى بحرا ويما غير نيل مصر لكبره واستبحاره"(١٨). وعلى ذلك

---

(١٤) ومن الملاحظ أن كلمة Carry فى الإنجليزية ومشتقاتها تخص الحمل والنقل.

(١٥) بداية الكارم وطبيعة تنظيمهم، ص ص ٢٧٩ - ٢٩٠.

(١٦) لسان العرب ، مادة يم .

(١٧) سورة طه : آية ٢٩.

(١٨) مروج الذهب ومعادن الجوهر، جـ٢ ص٣٠٠.

فاليم المشار إليه فى المقطع الثانى من كلمة كارم ليس هو المحيط الهندى وإنما هو بحر النيل كما تسميه المصادر العربية وقد يكون البحر الأحمر أو قد يكون البحران معا هما المعنيان باسم اليم الذى هو المقطع الثانى من الكارم لاسيما وأن رحلة الكارم كانت تمخر عباب البحرين كليهما فتبحر فى البحر الأحمر حتى عيذاب ثم تحمل منها البضائع على الظهر عبر صحراء مصر الشرقية إلى قوص لتبحر بها المراكب ثانية" من قوص إلى فندق الكارم بالفسطاط فى بحر النيل"(١٩). وهذه الرحلة من الجنوب إلى الشمال تتفق مع تفسير لسان العرب للكار بأنها سفن منحدرة فانحدارها هو اتجاهها شمالا من مصر العليا إلى مصر السفلى، لاسيما وأن وثائق الجنيزة التى استعرضها جوايتاين فى بحثه عن بداية الكارم تشير كلها إلى رحلة كارم فى اتجاه واحد فقط من الجنوب إلى الشمال أو السفن الواردة إلى عيذاب دون الصادرة عنها ففى وثيقة منها يتحدث أبو ذكرى كوهين المقيم بالقاهرة عما وصله فى الكارم(٢٠) وفى وثيقة ثانية يخبر رجل زوجته بالقاهرة أنه سيرسل إليها بعض الهدايا فى الكارم(٢١) وفى وثيقة ثالثة جزء من خطاب ورد من عدن، يخبر فيه تاجر زميله بمصر بالبضائع التى صدرها إليه فى الكارم(٢٢)، وهكذا تشير تلك الوثائق وغيرها إلى كارم يرد إلى مصر دون إشارة إلى ما يصدر عنها ويدعونا ذلك إلى التساؤل: هل كان اسم الكارم يقتصر على المراكب القادمة إلى عيذاب دون المراكب الصادرة عنها، ومع أنه من البديهى أن يكون النشاط البحرى ذهابا وإيابا إلا أن الوثائق المشار إليها لم تشر إلا إلى الكارم الوارد إلى مصر. وربما يدعم ذلك ما ذكره القلقشندى عن

---

(١٩) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ٣ ص٤٦٤.

(20) India Collection No. 221 M.S. British Musuem.

(21) India Book No. 214 M.S Univ. Liberary Cambridge, New Sesies J.23.

(22) India Book No. 229 M.S Univ Libr. Cambridge.

الأسطول الفاطمى الذى كان مرابطا بعيذاب ليتلقى الكارم(٢٣) أى يستقبل السفن القادمة إلى عيذاب. وفضلا عن ذلك فقد كانت لسفن الكارم رحلة سنوية موسمية منتظمة، يدل على انتظامها عبارة انقطاع الكارم "التى وردت عند ابن أيبك الداودارى ويدل على سنويتها وموسميتها عبارة "وما كنا غير قعود تنتظرك فى كارم السنة" التى وردت فى إحدى وثائق الجنيزة(٢٤) بمعنى أن الكارم يأتى سنويا فى موسم معين معروف ينتظر الناس قدوم الكارم فيه . ويبدو أن موسم قدوم الكارم إلى مصر كان محكوما بطبيعة الرياح والملاحة فيما يسميه المسعودى البحر الحبشى "ولكل من يركب هذا البحر من الناس رياح يعرفونها فى أوقات تكون منها مهابها، قد علم ذلك بالعادات وطول التجارب يتوارثون علم ذلك قولا وعملا ولهم فيها دلائل وعلامات يعملون بها فى [illegible] هيجانه وأحوال ركوده وثوراته"(٢٥). وقد ذكر ناصر خسرو أنه مكث فى عيذاب ثلاثة أشهر ينتظر الابحار إلى جده وعلل انتظاره بأن "السفينة لم تقلع إذ كانت الريح شمالية وكان ينبغى لرحلتنا ريح الجنوب"(٢٦) ويرى لومبارد أن تنظيم الملاحة فى تلك النواحى كان يخضع خصوصا للرياح الموسمية(٢٧).

فى ضوء ما تقدم يمكننا القول إن الكارم كان فى الأصل اسما مصريا محليا تعرف به المراكب النيلية لكنه اتسع ليشمل السفن القادمة فى البحر

---

(٢٣) صبح الأعشى ، جـ٣، ص٥٢٠.

(24) India Book No. 215. Univ Libr. Cambridge Ts Box 28. Fol. 33. p.I.

(٢٥) مروج الذهب ومعادن الجوهر، جـ١ ص ص٢٤٣-٢٤٤.

(٢٦) سفر نامة، ص١٣٤.

(٢٧) الإسلام فى مجده الأول ، ص١٢١.

الأحمر إلى عيذاب فأصبحت رحلة الكارم طويلة تمتد من عدن إلـى الفسطاط يقطع شوط منها فى البحر الأحمر وشوط آخر فى نهر النيل(٢٨).

أما عن بداية الكارم، فيمكن القول إن وجوده فى العصر الفاطمى لم يعد محل خلاف، وقد دلت عليه بعض الأدلة الحاسمة مثل اشارة ابن ايبك الداودارى إلـى أن انقطاع الكارم كان من أسباب غلاء سنة (٤٥٦هـ/١٠٦٢م). وإشارة القلقشندى إلى تمركز اسطول فاطمى لتلقى وحماية سفن الكارم الواردة إليها فضلا عما جاء فى بعض وثائق الجنيزة التى ترجع إلى العصر الفاطمى من اشارات صريحة إلى الكارم(٢٩) ولقد أقر كل من صبحى لبيب(٣٠) وأشتور(٣١) بوجود الكارم فى العصر الفاطمى استنادا إلى نص القلقشندى المشار إليه وإن كان اشتور قد علق على أخذ فيشل Fischel برواية المقريزى عن وصول الكارمية إلى مصر سنة (٥٧٧هـ / ١١٨٩م) وأنهم طلب منهم زكاة أربع سنين(٣٢) بأن "المؤرخين المصريين لم يقولوا أنهم قدموا لأول مرة فى تلك السنة" ثم يضيف "أن الفاطميين بذلوا جهودا كبيرة ليجذبوا تجارة التوابل من الخليج الفارسى إلى البحر الأحمر وأقاموا مراكز تجارة على الطريق إلى الهند"(٣٣) وأشار فى هذا الصدد إلى ما أثبته برنارد لويس فى بحثه عن الفاطميين والطريق إلى الهند(٣٤).

---

(٢٨) يمكن اعتبار نقل البضايع على الظهر عبر الصحراء تتمة لرحلة المراكب على اعتبار أن الابل سفن الصحراء.

(٢٩) جواتياين : المرجع السابق ، ص ص٢٧٩ - ٢٩٠.

(٣٠) التجارة الكارمية وتجارة مصر فى العصور الوسطى، ص ص٣ - ٥٣.

(31) Ashtor, "The Karimi Merchants" JRAS (1956) PP.45-56.

(٣٢) السلوك لمعرفة دول الملوك جـ١ ص٧٢.

(33) Ashtor, Op. cit. pp. 45-56.

(34) Lewis B., "The Fatimids and the route to India" Revue de la faculte des sciences - economiques de l'universite Estanbul, II pp. 50:54.

لم تعد القضية إذن هى اثبات وجود الكارم فى العصر الفاطمى وإنما القضية الآن هى تحديد بداية الكارم فى ذلك العصر الطويل الذى امتد فى مصر لأكثر من قرنين من الزمان (٣٥٨ - ٥٦٧هـ). وإذا طرحنا جانبا محاولة الشاطر بصيلى الجدلية لإفتراض وجود الكارم قبل العصر الفاطمى لانعدام الأدلة التى تؤيد مثل هذا الفرض(٣٥) فإن إشارة ابن ايبك الدوادارى إلى انقطاع الكارم سنة (٤٥٦هـ/١٠٦٣م) تعد أقدم ما وصل إلينا عن الكارم صراحة، فهى أقدم من كل الإشارات التى جاءت عن الكارم فى وثائق الجنيزة التى استعرضها جواتياين فى بحثه عن بداية الكارم(٣٦) بل إنها تدل على أن الكارم الذى انقطع فى تلك السنة كان معروفا قبل هذا التاريخ(٣٧) أى أنه يرجع إلى العصر الفاطمى الأول أو على الأقل إلى خلافة المستنصر بالله الفاطمى آخر خلفاء العصر الفاطمى الأول لكن ناصر خسرو الذى زار مصر وقتذاك ورحل عنها سنة (٤٤٢هـ/١٠٥٠م) قبل تاريخ اشارة ايبك بثلاثة عشر عاما فقط - لم يشر إلى الكارم على الرغم من أنه ركب البحر الأحمر من القلزم إلى الجار مرتين فى عامين متوالين ٤٣٩هـ، ٤٤٠هـ/١٠٤٨-١٠٤٩م، وكان رحيله عن مصر نهائيا عن طريق الصعيد الأعلى - على حد قوله - لكنه صعد فى النيل حتى أسوان متخطيا قوص التى يشار إليها عادة على أنها نهاية الطريق البرى إلى عيذاب، ويبدو مما ذكره ناصر خسرو أن الطريق بين أسوان وعيذاب كان هو الطريق المعهود فى وقته لقطع الصحراء فهو الطريق الذى يسلكه الحجاج أو على حد قوله "كان حينذاك الموسم الذى يعود

---

(٣٥) الكارمية . المجلة التاريخية المصرية ١٩٦٧/١٣ ص ص٢١٧ - ٢٢١.

(٣٦) أقدم تلك الوثائق ترجع إلى سنة ١٠٩٧ بعد تاريخ اشارة ابن ايبك نحو ثلاثة عقود ونصف.

(٣٧) أيمن فؤاد سيد : الدولة الفاطمية فى مصر ، ص٣٠٨.

فيه الحجاج على الجمال فانتظرناهم لنستأجرها ونذهب بها وهى راجعة"(٣٨) وكانت الابل معتادة على السير فى هذا الطريق حتى حفظته وصارت تقطعه دون توجيه "فهى تسير غير محتاجة لأحد يسوقها متجهة من تلقاء نفسها ناحية المشرق فى هذه الصحارى حيث لا أثر ولا علامة تدل على الطريق"(٣٩) فهل يعنى نشاط الملاحة عن طريق القلزم من ناحية وارتياد طريق عيذاب ـ اسوان من ناحية أخرى، فضلا عن عدم اشارة ناصر خسرو إلى الكارم، أن الكارم لم يكن قد ظهر بعد؟!

ليس من المعقول أن يظهر الكارم فجأة فى هذه المدة القصيرة بين عدم اشارة ناصر خسرو الذى رحل عن مصر سنة ٤٤٢هـ/١٠٥٠م وبين اشارة ابن ايبك إلى الكارم سنة ٤٥٦هـ/١٠٦٣م ولكن يبدو أن الكارم كان حتى منتصف القرن الخامس الهجرى نشاطا ملاحيا محليا تعرف به السفن المنحدرة فى النيل حاملة الطعام والمؤن إلى الفسطاط، ولدينا عند المسبحى اشارة إلى ابن سعدان القماح الذى كان شيخا من وجوه السماسرة فى القمح بساحل الصعيد بمصر وتوفى سنة ٤١٥هـ(٤٠) ولذلك كان انقطاع الكارم من أسباب غلاء سنة ٤٥٦هـ كما أشار ابن ايبك الذى ميز فى اشارته بين الكارم والتجارة فذكر قلة التجار وانعدام الوارد وانقطاع الكارم"(٤١). وقد لاحظ جواتياين من خلال دراسته لوثائق الجنيزة أن الكارم لم يظهر حتى نهاية العصر الفاطمى كجماعة تجارية كبرى وإنما ظهر كقافلة من السفن كما سبق أن أشرنا، كما لاحظ أيضا أن كلمة التاجر الكارمى التى صارت شائعة فى

---

(٣٨) سفر نامة ، ص ص ١٢٦ - ١٣٢.

(٣٩) نفس المصدر ، ص١٣٣.

(٤٠) أخبار مصر فى سنتين ، ص٢١٦.

(٤١) الدرة المضية ، ص٣٨١.

العصر المماليكى لم تكن قد اكتشفت بعد فى وثائق الجنيزة التى ترجع إلى العصر الفاطمى(٤٢) وقد أشرنا إلى أن بعض التجار سافروا إلى الهند والصين ولن ينعتوا بأنهم كارمية مثل الشيخ أبى العباس الحجازى(٤٣) ومثل التاجر عبد الرحيم الصينى(٤٤). وأيضا أبو اسماعيل إبراهيم بن تج الشريف الحسنى المتوفى سنة ٤١٥هـ وكان وكيلا للتجار وحملت الضائع إليه والمتاجر من كل ناحية وخلف مالا كثيرا ولم ينعت بأنه كارمى(٤٥). وعلى ذلك، فلم يكن التجار الذين يركبون البحر إلى عدن ومنها إلى الهند والصين قد نعتوا بعد بأنهم كارمية لأن الكارم ـ كما ذكرنا ـ كان لايزال نشاطا محليا، وربما كان جزء من تجارة الشرق يحط فى عيذاب ويحمل منها إلى اسوان ليحمل منها فى النيل إلى الفسطاط كما ذكر ناصر خسرو(٤٦) لكنه كان جزء محدودا إذ كانت تجارة الشرق حينذاك تتقاسمها عدة موانىء على البحر الأحمر، وقد ذكر اليعقوبى المتوفى سنة ٢٨٤هـ كل من القلزم وعيذاب كمينائين يفد إليهما التجار ويركب منهما إلى الحجاز واليمن(٤٧) لكن القلزم كان أعلى شأنا من عيذاب أيام نشاط التجار اليهود الراذانية حتى أن ابن خردانبة الذى وصف طريق الراذانية لم يشر إلى عيذاب على الاطلاق(٤٨)، وبينما وصف الاصطخرى القلزم بأنها تامة العمارة بها فرضة مصر والشام

---

(٤٢) بداية الكارم وطبيعة تنظيمهم ، ص ص٢٧٩ – ٢٩٠.

(٤٣) تحفة الألباب ، ص ص ١٠٦ – ١٠٧.

(٤٤) نفس المصدر ، ص١٠٨.

(٤٥) المسبحى : المصدر السابق ، ص٢٣٠.

(٤٦) سفر نامة ، ص١٣٤.

(٤٧) كتاب البلدان ، ص٨٩، ص٩٤.

(٤٨) المسالك والممالك ، ص١٥٤.

ومنها تحمل حمولات الشام ومصر إلى الحجاز واليمن وسواحل هذا البحر" فإنه لم يزد فى وصف عيذاب عن أنها "حصنى على البحر يسمى عيذاب"(٤٩) ولم يزد ابن حوقل فى وصفه للمينائين عن الاصطخرى(٥٠) بينما ربط المقريزى بين القلزم والتجار الراذانية وذكر أن الحاكم بأمر الله الفاطمى سامح أهل القلزم مما كان يؤخذ من مكوس المراكب سنة ٣٨٧هـ(٥١).

لقد كان التجار الراذانية هم المختصون بتجارة الترانزيت أو ما يسميه كوك Cook التجارة البعيدة المدى(٥٢) ساعدهم على ذلك أنهم كانوا جماعات منظمة متمركزة على حافات طرق التجارة العالمية ولها اتصالاتها الدولية فيتبادلون المعلومات عن الفرص التجارية المتاحةفىمختلف جهات العالم(٥٣). ومن ثم رأى هايد أن تفسير اسمهم على أنهم "جوابو البلاد العارفين بالطرق" أصح من أن يكون اسمهم مشيرا إلى أصلهم(٥٤) الذى يظن البعض أنه نسبة إلى نهر رودونو أو الرون(٥٥) أو أنهم من مقاطعة بروفانس(٥٦) وواقع الأمر أن ما ذكره ابن خرداذبة عن الراذانية يختص بخط سيرهم دون أصلهم وأغلب الظن أنهم كانوا لاينتمون إلى مكان واحد وإنما كانوا ينتمون إلى الشرق والغرب معا(٥٧) يدعم ذلك قول بزرك "من طريف أخبار تجار البحر

---

(٤٩) مسالك الممالك ، ص٣٠ ، ص٣١.

(٥٠) صورة الأرض ، ص٥٣، ص٥٥.

(٥١) خطط، جـ١ ص ص ٣٩٨ - ٣٩٩.

(٥٢) تراث الإسلام ، جـ١ ص٣٣٦.

(٥٣) نفس المرجع ، نفس الصفحة، ولومبارد: المرجع السابق، ص٣٠٥، وهايد : تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى جـ١ ص١٤٢.

(٥٥) لومبارد : المرجع السابق ص٣١٣.

(٥٦) آدم متز : تاريخ الحضارة الإسلامية جـ٢ ص٣٧١.

(٥٧) هايد : المرجع السابق ، جـ١ ص١٤٢.

ومن ركب واستغنى فيه ما حدث عن اسحاق بن اليهودى وكان رجلا يتصرف مع الدلالين بعمان فوقع بينه وبين رجل من اليهود خصومة فهرب من عمان إلى بلاد الهند ومعه نحو مائتى دينار لم يملك سواها وغاب عن البلد نحو ثلاثين سنة فلما كان فى سنة ٣٠٠هـ ورد عمان فى مركب لنفسه وجميع ما فيه له"(٥٨). ووفقا لآدم متز فإن الراذانية عرفوا "عند المسلمين فى القرن الثالث الهجرى باسم مجرد وهو تجار البحر"(٥٩) أى أن اسحاق بن اليهودى الذى روى بزرك بعضا من طريف أخباره كان من التجار الراذانية وكان مقيما بعمان وكان أشبه بالعرب من غيرهم حتى أن أحد ملوك الصين ناداه يا عربى(٦٠) وهذا إن دل على شىء فإنما يدل على أن بعض الراذانية كانوا ينتمون إلى المشرق.

على أى حالة اختفى اليهود الراذانية من التجارة العالمية منذ أواخر القرن الرابع وقد كان لذلك بطبيعة الحال أثره السيىء على مدينة القلزم فقلت مواردها ولعل ذلك كان وراء مسامحة الحاكم بأمر الله أهل القلزم سنة ٣٨٧هـ مما كان يؤخذ من مكوس المراكب كما أشار المقريزى(٦١) ولدينا نص عند المسبحى يدل على ظهور جماعات تجارية جديدة على الساحة، إذ يشير إلى الخياسين الذين يحملون الجبن للخيسى إلى مصر" وهم نصارى يأتون من بلاد الروم" وقد ركب معهم إلى انطاكية رجل يدعى جيش النصرانى، فر من تعنت الحاكم بأمر الله حينذاك مع النصارى وتشديده عليهم ثم عاد إلى مصر بعد وفاة الحاكم بأمر الله وتوفى سنة ٤١٤هـ فدفنه أصهاره

---

(٥٨) عجائب الهند، ص١٤١.

(٥٩) تاريخ الحضارة الإسلامية ، جـ٢ ص٣٧١.

(٦٠) بزرك : المصدر السابق ، ص١٤١.

(٦١) خطط ، جـ١ ص ص ٣٩٨ – ٣٩٩.

بالقصير(٦٢) التى يبدو أنها كانت وقتذاك احدى الموانى التى تحط بها تجارة الشرق(٦٣) وفى هذا دليل آخر على اختفاء التجار الراذانية الذين كانوا يركبون طريق القلزم - جده أى أنهم يتجهون من القلزم إلى موانىء الجزيرة العربية مباشرة ويسلكون نفس الطريق فى العودة فكان تحول الطريق الملاحى من الساحل الآسيوى للبحر الأحمر إلى ساحله الافريقى لايعنى فقط اختفاء مشاركة الراذانية فى التجارة العالمية وإنما كان أيضا مؤشرا إلى ظهور نشاط جديد هو الكارم.

وكان الكارم لايزال نشاطا محليا حتى بداية القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى، - كما ذكرنا - إلا أنه أخذ فى النصف الثانى من هذا القرن يتسع اتساعا كبيرا ويشارك فى التجارة العالمية كأهم طريق لتجارة الشرق، ويبدو أن هذا التحول كان نتيجة للعوامل الآتية :

أولا : اختفاء التجار الراذانية لتنقسم التجارة البعيدة المدى إلى جناحين أحدهما فى البحر المتوسط وسيطر عليها تجار المدن الإيطالية(٦٤) والآخر تجارة الشرق التى أصبحت تحت سيطرة رعايا الدولة الإسلامية من المسلمين وأهل الذمة، وقد تدفقت تجارة الشرق بداية عبر الخليج الفارسى لكن تدهور الدولة العباسية واضطرابها فى الوقت الذى تزايد فيه اهتمام الفاطميين بعد استيلائهم على مصر بتحويل تجارة الشرق إلى البحر الأحمر(٦٥) كان عاملا

---

(٦٢) راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادى فى عهد الفاطمين، ص٢٨١.

(٦٣) عطية القومى : المرجع السابق ، ص٤.

(٦٤) نفس المرجع، نفس الصفحة، وأندرية ميكيل: الإسلام وحضارته ، ص١٨٠.

(٦٥) لومبارد : المرجع السابق ص٣٣١. وأندرية ميكيل : المرجع السابق، ص١٨٥، وأيمن فؤاد السيد: العرب وطريق الهند فى أواسط القرن السادس الهجرى، المؤرخ المصرى عدد ١٩٩٢/٨، ص ص٦٥-٨١.

حاسما لصالح طريق البحر الأحمر وجعل تجارة الشرق تتدفق من عدن على السواحل المصرية بعد أن تجرى فى عدن ـ أو فيما حولها ـ عملية مسافته تنقل فيها البضائع من سفن المحيط الكبيرة إلى سفن البحر الأحمر الملائمة للإبحار فيه(٦٦) إذ كانت مراكب المحيط ضخمة عالية ولها غاطس عميق فصعب ابحارها فى البحر الأحمر المليء بالصخور وبواسطة ربابنة لاخبرة لهم به بينما كانت مراكب البحر الأحمر عريضة دون غاطس عميق كيلا يصطدم بالصخور المرجانية وتعرف باسم الجلاب(٦٧). وقد شار المقدسى إلى أنه ركب الجلبة فى بحر اليمن(٦٨) وقد وصفها ابن حبير وصفا مسهبا(٦٩).

ثانيا : لما كانت الملاحة فى البحر الأحمر أمرا شاقا تكتنفه الصعوبات فقط كان لنهر النيل الذى يسير موازيا لهذا البحر أهمية كبيرة كطريق للملاحة النهرية(٧٠) بديل للطريق البحرى أو مكملا له لاسيما وأن موسم الكارم كان مواكبا لتحسن ظروف الملاحة فى النيل فقد كان الكارم يأتى إلى مصر فيما يبدو فى فصل الصيف الذى يفيض فيه نهر النيل لايدل على ذلك فقط أن الملاحة فى جنوب البحر الأحمر كانت تستفيد من الرياح الموسمية التى تتسبب فى سقوط الأمطار على هضبة الحبشة المسببة للفيضان، وإنما يدل عليه أيضا بعض الشواهد التاريخية مثل رؤية ابن جبير للقوافل العيذابية

---

(٦٦) هايد : المرجع السابق ، جـ٢ ص٢٨.

(٦٧) آدم متز : المرجع السابق، جـ٢، ص٤٢٨، وعبد العزيز الدورى : تاريخ العراق الاقتصادى ص٢٤٥.

(٦٨) أحسن التقاسيم ، ص٩٧.

(٦٩) رحلة ابن جبير ، ص٤٢.

(٧٠) آدم متز : المرجع السابق جـ٢ ص٤٣٤.

والقوصية صادرة وورادة فى النصف الثانى من شهر يونية(٧١) وقبل ذلك بعامين فى سنة ٥٧٧ وصلت سفن الكارم الفسطاط فى ربيع الأول المقابل تقريبا لشهر مايو فى وقت مبكر لم يعتده الناس من قبل(٧٢).

ثالثا : كانت الظروف الاقتصادية والسياسية التى شهدتها مصر منذ منتصف القرن الخامس الهجرى عاملا حاسما فى أن تصبح موانىء مصر الجنوبية على البحر الأحمر محط تجارة الشرق، إذ أدت الأزمات الاقتصادية التى عانت منها مصر فى خلافة المستنصر بالله الفاطمى خاصة الشدة المستنصرية إلى خراب الدلتا وهجر قوافل الحجاج والتجار لطريق سيناء البرى وطريق القلزم البحرى، وازدياد الاقبال على طريق النيل النهرى(٧٣) ثم أدت الحروب الصليبية إلى توقف طريقى سيناء والقلزم تماما إذ هدد الصليبيون الطريقين ومنعوا الناس من ارتيادهما(٧٤) وللمقريزى عبارة هامة يقول فيها "حجاج مصر أقاموا زيادة على مائتى سنة لايتوجهون إلى مكة إلا من صحراء عيذاب وكذلك تجار الهند واليمن والحبشة يردون فى البحر إلى عيذاب ثم يسلكون هذه الصحراء إلى قوص ومنها يردون مدينة مصر من أعوام بضع وخمسين وأربعمائة إلى أعوام بضع وستين وستمائة وذلك منذ كانت الشدة العظمى أيام الخليفة المستنصر بالله وانقطاع الحج فى البر"(٧٥) ولقد زاد من اقبال السفن على ميناء عيذاب أن الفاطميين اهتموا بتأمين الطريق إليها من القراصنة فجعلوا فيها أسطولا يتلقى السفن القادمة إليها كما

---

(٧١) رحلة ابن جبير ، ص٣٨.

(٧٢) المقريزى : السلوك ، جـ١ ص٧٢.

(٧٣) عطية القوصى : المرجع السابق ، ص١٢٩.

(٧٤) ابن جبير : رحلة ص٤٤. وهايد: المرجع السابق جـ٢ ص٢٩.

(٧٥) خطط ، جـ١ ص٣٧٩.

أشار القلقشندى. ويبدو ان مدن الصعيد الأعلى قد تنافست على أن تكون محط القوافل القادمة من عيذاب وكان لأسوان قصب السبق فى البداية إذ كانت منتهى رحلة ناصر خسرو سنة ٤٤٣هـ/١٠٥٠م لكن سرعان ما أصبحت قوص هى نهاية الطريق الممتد عبر الصحراء من عيذاب إلى نهر النيل(٧٦) إذا كان طريق أسوان - عيذاب رغم قصره عن طريق قوص - عيذاب شاقا عسيرا قليل الماء فضلا عن حرارته الشديدة(٧٧) فضلا عن اهتمام الفاطميين بقوص حتى أنها صارت كبرى ولايات الصعيد فى العصر الفاطمى الثانى.

ونتيجة لما سبق فقد تدفقت تجارة الشرق على طريق عيذاب - قوص لتحمل فى نهر النيل على مراكب الكارم المنحدرة شمالا من قوص إلى الفسطاط التى ترد إليها "متاجر البحر الاسكندرانى والبحر الحجازى"(٧٨) ومن ثم تكتمل فيها حلقة التجارة العالمية عبر طريق البحر الأحمر - النيل - البحر المتوسط، وطغت تجارة الشرق على نشاط الكارم المحلى حتى أصبح الكارم علما عليها واسما لها.

وقد أدت المكاسب الضخمة من تجارة الشرق المحمولة على الكارم إلى تقارب العاملين فى هذا الحقل من ربابنة ونواخذة وتجار وتجمعوا تدريجيا على هيئة طائفة حرفية فى عصر شهد بداية الطوائف الحرفية، إذ ساعدت روح التسامح التى غلبت على العصر الفاطمى على أن ينتظم أرباب كل حرفة فى طائفة تجمعهم دون النظر إلى الاعتبارات الدينية(٧٩) ومن ثم وجدنا

---

(٧٦) الزهرى: الجغرافيا ص٤٣. وهايد: المرجع السابق، جـ٢ ص٣٠، وراشد البراوى : المرجع السابق ، ص٢٩٠.

(٧٧) وراشد البراوى : المرجع السابق ، ص٢٩١.

(٧٨) ابن سعيد الأندلسى : الاغتباط فى حلى مدينة الفسطاط، ص٣.

(٧٩) برنارد لويس : النقابات الإسلامية، ترجمة عبد العزيز الدورى.

الكارم لايقتصر العمل فيه علـى المسلمين كمـا كـان البعض يظـن سـابقا(٨٠) وأنما شارك فيه أهل الذمة مع المسلمين(٨١) لكـن أهل الذمـة المشـاركين فـى الكارم كانوا من رعايا الدولة الإسلامية المستظلين بسلطانها السياسى ومن ثـم لوحظ أنهم كانوا يؤدون على البضايع التى يحملونها فى الكـارم واجـب الذمـة وليس الخمس الذى كان يستأدى من تجار المـدن الإيطاليـة(٨٢). وكـان ينظـر إليهم فى الشرق على أنهم عرب حتى فى أيام التجار الراذانية كما يتضح مـن نص بزرك الذى سبقت الإشارة إليه(٨٣).

ولم يكن العاملون فى الكارم من المصريين وحدهم بل شارك فيـه غـير المصريين ، فلدينا ترجمة موجزة لتـاجر كـارمى يدعـى عبـد اللـه أصلـه مـن شاطبة وولد بالأسكندرية فى رمضان سنة ٥٤٤هـ قبيل نهاية الدولـة الفاطميـة بنحو ثلاث وعشرين سنة وتوفى فى العصر الأيوبـى سـنة ٦١٤هـ(٨٤). وقـد أشار أشتور إلى وجود كارمية فى دمشق(٨٥) استنادا إلـى مـا جـاء عنـد ابـن كثير عن التاجر الكارمى المعروف بابن الرهايلى أنه كان أكـبر تجـار دمشـق الكارميـة وبمصـر(٨٦)، وإذا كنـا لانـرى مانعـا فــى أن يكـون بعـض تجـار الكارمية من غير المصريين فإنه لايصـح الخلط بين أصول التجار الكارميـة

---

(٨٠) صبحى لبيب ، المرجع السابق، ص ص ٥ – ٥٣.

(81) Ashtor, op. cit. pp.45-56.

وجواتياين : المرجع السابق ص ص٢٧٩ – ٢٩٠.

(٨٢) ابن مماتى : قوانين الدواين. وأيمن فؤاد سيد: الدولة الفاطمية، ص٣٤٦.

(٨٣) عجائب الهند، ص٢٥٧.

(٨٤) أبو محزمة : تاريخ ثغر عدن ، ص١٤٧.

(85) Ashtor, op. cit. pp.45-56.

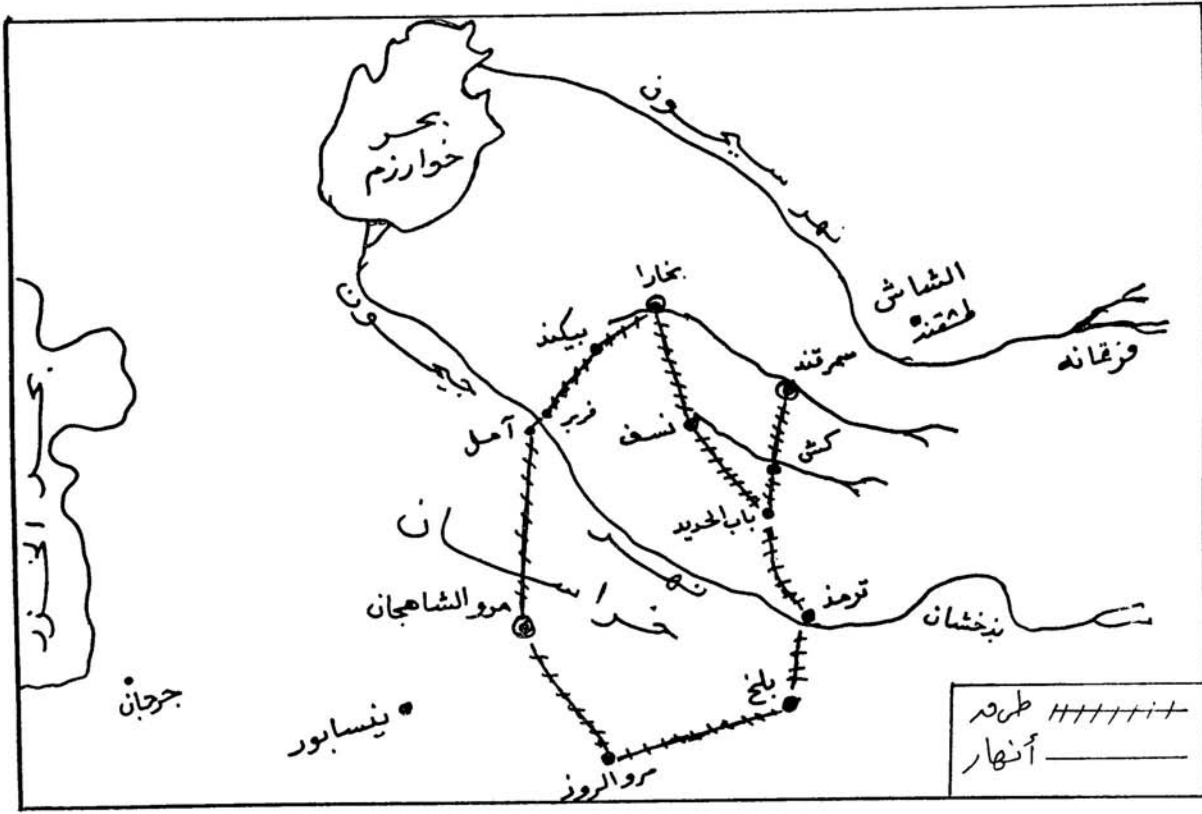
(٨٦) البداية والنهاية ، جـ١٤ ص١٥٦.

وميدان عملهم، فإذا كانت أصـول الكارمية متعـددة، من مسـلمين وأهل ذمة مصـريين وغير مصـريين فإن ميدان عملهم واحد حدده أبو مخرمة فى ترجمـة التاجر الكارمى أبى الحسن على بن أبى بكر بن سعادة الفـارقى المتوفـى سـنة ٧٤٧هـ قدم اليمن من الديار المصرية "والظاهر أن قدومه من الديار المصرية إلى عدن لأن تجار الكارم إنما يأتون إلـى عـدن فلذلك ذكرتـه هنـاك"(٨٧) أى لأنـه كـارمى ترجـم لـه أبـو مخرمـة فـى كتابـه تـاريخ ثغـر عـدن لأن التجـار الكارمية يعملون بين مصر وعدن.

هكذا كانت بداية الكارم ومعناه فـى المرحلـة الأولـى مـن تاريخـه وهـى التى شهدها العصر الفاطمى.

---

(٨٧) تاريخ ثغر عدن، ص ص١٦٩-١٧٠.



سية إلى ماوراء النهر

مراجع البحث

١ – **القرآن الكريم :**

٢ – **آدم متــز :**

"الحضـارة الإسلاميـة فـى القرن الرابـع الهجرى" ترجمـة/ محمـد عبـد الهادى أبو ريدة، بيروت ١٩٦٧.

٣ – **الأصطخرى :** أبو اسحاق ابراهيم بن محمد الفارسى

"مسالك الممالك" ليدن ١٩٢٧.

٤ – **أندريـة ميكيـل :**

"الإسلام وحضارته" ، ترجمة/ زينب عبد العزيز بيروت ١٩٨١.

٥ – ابن **ابيك الداودارى :** أبو بكر عبد الله

"الدرة المضيئة فى أخبار الدولة الفاطمية"، تحقيق صلاح الدين المنجد، القاهرة ١٩٦١.

٦ – **أيمن فؤاد سيد :**

"الدولـة الفاطميـة فـى مصـر" "العـرب وطريـق الهنـد فـى أواسـط القـرن السادس" ـ المؤرخ المصرى عدد ٨ / ١٩٩٢.

٧ – **بـــرزك :**

عجائب الهند .

٨ – **برنارد لويـس :**

"النقابات الإسلامية" ، ترجمة/ عبد العزيز الدورى.

٩ – **ابـن جبيـــر :** أبو الحسن محمد بن أحمد

"رحلة ابن جبير"، بيروت ١٩٨١.

١٠- **جوايتاين** : س . د.

"بداية تجار الكارم وطبيعـة تنظيمهـم" ترجمـة/ عطيـة القوصـى. "ضمـن كتاب دراسات فىالتاريخ الإسلامى والنظم الإسلامية".

١١- **أبو حامد الغرناطى :**

"تحفة الألباب" ، نشر جبريل فران **المجلة الآسيوية ١٩٢٥.**

١٢- **ابن حوقـــل** : أبو القاسم النصيبى

"صورة الأرض"، بيروت ١٩٧٩.

١٣- **ابن خرداذبة** : أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله

"المسالك والممالك"، نشر دى خويه.

١٤- **راشــد البــراوى :**

"حالة مصر الإقتصادية".

١٥- **الزهـــرى** : ابو عبد الله محمد بن أبى بكر

"الجغرافية"، تحقيق/ محمد حاج صادق، القاهرة / ب.ت.

١٦ - **الشاطر بصيلى :**

"الكارمية" المجلة التاريخية المصرية عدد ١٩٦٧/١٣.

١٧- **صبحى لبيـب :**

"التجارة الكارمية وتجارة مصر فى العصور الوسطى" المجلة التاريخيـة المصرية ٣ مايو ١٩٧٦.

١٨- **عبد العزيز الدورى :**

"تاريخ العراق الاقتصادى فى القرن الرابع الهجرى" بيروت ١٩٧٤.

١٩- **عطية القوصى :**

"تجارة مصر فى البحر الحمرى منذ فجر الإسلام حتـى سـقوط الخلافـة العباسية" ، القاهرة ١٩٧٦.

٢٠- **القلقشــندى :**

"صبح الأعشى فى صناعة الإنشا"، القاهرة ١٩٨٥.

٢١- **ابن كثيــر :** عماد الدين أبو الفدا اسماعيل بن عمر

"البداية والنهاية"، القاهرة ١٩٣٣.

٢٢- **كــوك :**

"تراث الإسلام (التطورات الإقتصادية)" الجزء الأول ، الكويت ١٩٨٨.

٢٣- **لومبــارد :** موريس

"الإسلام فى مجده الأول"، ترجمة/ اسماعيل العربى، المغرب ١٩٩٠.

٢٤- **أبو مخرمــه :** أبو عبد الله الطيب بن عبد الله بن أحمد

"تاريخ ثغر عدن وتراجم علمائها" نشر علـى حسن علـى عبد الحميد، بيروت ١٩٨٧.

٢٥- **المســبحى :** محمـد بن عبيد الله

"أخبــار مصر فى سنتين"، تحقيق/ وليم ج ميلورد، القاهرة ١٩٨٠.

٢٦- **المســعودى :** أبو الحسن على

"مرّوج الذهب ومعادن الجوهر، باريس.

٢٧- **المقدســى :** أبو عبد الله محمد بن أحمد

"أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم" ، القاهرة ١٩٩١.

٢٨- **المقــريزى :**

"المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثــار "، القــاهرة دار التحريـر، "السلوك لمعرفة دولة الملوك".

٢٩- **ابن ممــاتى :** أسعد بن المهذب بن أبى مليح

"قوانين الدواوين"، تحقيق / عزيز سوريال عطية، القاهرة ١٩٩١.

٣٠- **ابن منظـــور** : جمال الدين أبو الفضل محمد بن الكرم
"لسان العرب" القاهرة ، دار المعارف.

٣١- **ناصر خسرو علوى** :
"سفر نامة" ترجمة يحيى الخشاب، القاهرة ١٩٩٣.

٣٢- **هـايـــــد** :
"تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى"
ترجمة / أحمد رضا محمد ، القاهرة ١٩٨٥.

٣٣- **اليعقــوبى** : أحمد بن أبى يعقوب بن واضح
"كتاب البلدان"، ليست ١٨٩٣.

34 - **Ashtor;**
"The Karimi Merchamts" JRAS/1956. pp.45-56.

35-**King, J, W:**
Historical Dictionary of Egypt. American University Cairo, 1989.

36-**Lewis. B:**
The Fatimids and the route to India. RFSE Univ. Istanbul xI (1949-50).

البابوية والهجمات الإسلامية على إيطاليا

فى القرن التاسع الميلادى / الثالث الهجرى

دكتور عادل عبد الحافظ حمزة
كلية الآداب - جامعة المنيا

شهد القرن التاسع الميلادى / الثالث الهجرى نشاطا بحريا وبريا وجهه المسلمون ضد أجزاء متفرقة من جنوب أوربا وشرقها وبخاصة إيطاليا التى تمثل شبه جزيرة تمتد شواطئها الطويلة فى قلب البحر المتوسط فى وقت صارت السيطرة للمسلمين على مياه ذلك البحر .

ولم يكن منتظرا أن تقف البابوية موقف المتفرج من تلك الهجمات الإسلامية وإنما اتخذت موقفا واضحا رأينا أن نعرض له فى هذا البحث بإيجاز واختصار لإبراز موقف البابوية تجاه ذلك الخطر، وإلقاء الضوء على محاولاتها المستمرة لإيقاف هذه الهجمات سواء بجهودها الذاتية أو عن طريق الاستعانة بالملوك الكارولنجيين من جهة أو بالأباطرة البيزنطيين من جهة أخرى فضلا عن أمراء المدن الإيطالية.

صحب الفتح الإسلامى للأندلس فى عام ٩٢هـ/٧١١م توسعا ملموسا للمسلمين فى شبه الجزيرة الأيبرية(١). حتى أمتد نفوذهم إلى غاليا (فرنسا) بقيادة عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى الذى عين - للمرة الثانية - واليا على الأندلس فى صفر سنة ١١٣هـ / أبريل ٧٣١م، واحتل بواتييه Poitiers وشرع يتقدم صوب تور Toures شمالا بعد أن دخل بوردو عاصمة إقليم أكوتين ،

---

(١) حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس، القاهرة ١٩٨٠ ص ٢٣٣-٢٤٠.

مما دفع دوقها أودو Eudo إلى الاستعانة بشارل مارتل Charles Marteles رئيس بلاط دولة الفرنجة فى ذلك الوقت . وكان أن لبى الأخير النداء فحلت الهزيمة بالمسلمين فى موقعة بلاط الشهداء بين مدينتى تور وبواتييه ، وسقط عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى قتيلا فى أوائل رمضان ١١٤هـ / ٢٠ اكتوبر ٧٣٢م(٢). ويذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن ذلك الانتصار الذى حققه شارل مارتل على عبد الرحمن الغافقى أوقف حركة المد الإسلامى فى غرب أوربا(٣) ، غير أن مجرى الأحداث فى هذه الدراسة سوف يبين لنا مدى عدم صدق هذه المقولة.

ويعنينا فى هذا الصدد أن البابوية فى روما لم تنظر حتى ذلك الوقت بعين القلق إلى تلك الهجمات الإسلامية ، وإنما اكتفت بمباركة التعاويذ والأحجبة التى نشرها رجال الدين لتشجيع مواطنيهم على قتال المسلمين(٤) . ويغلب على الظن أنها –أى البابوية – لم تقف على تفاصيل المعارك الدامية

---

(2) Calmette (J): Textes et Documents II Moyen Age, Paris, 1937, Charles Mrtel en Narbonnaise, pp. 20-21.Lorge (N): Essi de Synthese de l'Histoire de l'Humanite. II Histoire du Moyen Age, Paris, 1927, p. 88. Castella (G): History des popes. Tomel, Zurich, 1944, p. 107. CF: Bernard (L) and B. Hodges (T): Readings in European History, New York, 1959, p. 85. Bell (M.I.M): A Short History of the Papacy, London, 1921, p. 54. Thompson (T.W): An Introduction to Medieval Europe, New York, 1965, p. 169.

وانظر : ابراهيم طرخان: المسلمون فى أوربا فى العصور الوسطى، القاهرة ١٩٦٦ ص ١٤٩–١٥٠. ومحمد عبد الله عنان: مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٣٤ صفحات ٤٥،٤٧، ٥٧،٥٩، ٦٧. حسن خليفة وآخرون: تاريخ العرب فى أفريقية والأندلس، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٣٨، ص ٢٩–٣٧. والمنطقة التى حدثت فيها هذه المعركة تسمى الآن "مواسيه لاباتاى" Moissias La Batille انظر: حسين مؤنس: المرجع السابق ص٢٥٧–٢٥٩.

(3) Collier (W.F): The Great Events of History, New York, 1908 p. 85. Cf. Mury (P): History du Moyen Age, Desclee, De Brouwer. 1878, pp. 84-85.

(٤) ابراهيم طرخان المرجع السابق ص ١٤٤.

التى دارت بين المسلمين و المسيحين فى جنوب غاليا إلا فيما يتعلق بأخبار معركة بواتييه وذلك من خلال الرسالة التى أرسلها الدوق "أورو" إلى البابا جريجورى الثالث Gregory III (٧٣١- ٧٤١م) والتى شرح فيها تفاصيل المعركة ونتائجها(٥) . ومهما يكن من أمر ، فإن البابوية أخذت تحس بالخطر الإسلامى على غرب أوربا وجنوبها بعد موقعة بواتييه(٦). هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن مكانة شارل مارتل ازدادت رسوخا عند البابوية بعد ما حققه من نصر فى تلك الموقعة ، فأخذت تعتمد عليه ورأت فيه سندا لها فى مقاومة خصومها ، مما صار له أثر فى التاريخ الأوربى(٧).

أما عن الخطر الإسلامى على إقليم إكوتين Aquitaine فى جنوب غاليا فإنه لم يتوقف أذ أغار مسلمو الأندلس مرة أخرى على اكوتين ثم احتلوا آفينون Aviyonon وقد حاول شارل مارتل التصدى للمسلمين بأكوتين فى نفس العالم (٧٣٢م)(٨) . ولكنهم استمروا فى احتلال ناربون Narbonne(٩) الى أن أتصل أهلها المسيحيون فى سنة ٧٥٩هـ/ ١٤٠هـ بالملك بيبين القصير Pipin The short ملك الفرنجة (٧٤١- ٧٦٨م) ليخلصهم من المسلمين بشرط أن يتركهم أحرارا ويسلم لهم المدينة، وكان أن استجاب الملك بيبين لذلك واسترد ناربون من المسلمين بعد أن استمر حكمهم فيها مايدنو من الأربعين عاما (٧٢١-٧٥٩ م/١٠٢-١٤٠هـ)(١٠).

(٥) محمد عبد الله عنان: المرجع السابق ص ٦٧.

(6) Sowthern (R.W): Western Society and the Church in the Middle Ages, Britain, 1970, p. 54

(7) Bell (M-1-M): Op. Cit., p.59.

(8) Collins (R): Early Medieval Europe (300-1000), Mac-Millan, 1992, pp. 252, 267.

(9) Thompson (T-W): Op. Cit., p.182.

(١٠) انظر: منى حسن أحمد محمود: العلاقات بين دولة الفرنجة والمسلمين فى الأندلس (٧١٤-٨١٥م/٩٢١-٢٠٦هـ) ماجستر آداب القاهرة ١٩٨٠م/١٤٠٠هـ غير منشوره ص ١٢٩.

ويبدو أن ما قام به شارل مارتل ثم ابنه بيبين القيصر ضد المسلمين لم يكن بتحريض صريح من البابوية ، ولعل ذلك يرجع إلى ما سبق قوله من أن البابوية لم تدرك جيدا عندئذ ماهية الخطر الإسلامى فى الأندلس، وهو الذى هدد ممتلكات الدولة الميروفنجية ثم الدولة الكارولنجية، وقد أدرك شارلمان Charlemagne ملك الفرنجة (٧٦٨-٨١٤م) حقيقة هذا الخطر فحاول مهاجمة المسلمين فى الأندلس منتهزا فرصة ما حدث من نزاع فى دولة المسلمين بين عبد الرحمن بن معاوية المعروف بالداخل (١٣٨-١٧٢هـ/٧٥٦-٧٨٨م) من ناحية ووالى برشلونة (سليمان بن يقظان الكلبى) المعروف بابن الأعرابى والحسين بن يحى الأنصارى والى سرقسطة من ناحية أخرى. وبلغ الأمر بسليمان والحسين أنهما ذهبا للقاء شارلمان فى بادربون بولاية وستفاليا (فى غرب المانيا) سنة ٧٧٨م/١٦١هـ، واتفقا معه على مساعدته فى الاستيلاء على سرقسطة(١١). ولايمكن أن يكون هذا هو السبب الرئيسى الذى دفع شارلمان لشن هجوم على الأندلس، إذ أن ملوك أشتورياس قاموا بدور كبير فى تحريض شارلمان على غزو الأندلس وإثارة الشعور العدائى ضد العرب(١٢). على أية حال قرر شارلمان الإتجاه بفرقتين من قواته فى نفس العام وبصحبته رولاند Roland قائد مؤخرة الجيش وابن أخت شارلمان نفسه - إلى أسبانيا بهدف الإستيلاء عليها من المسلمين(١٣).

---

(١١) حسين مؤنس: المرجع السابق ص ٢٦٣.

(١٢) اينهارد: سيرة شارلمان ، ترجمة ، سليمان زيتونة ، دمشق ١٩٨٩م هامش ص ٧٥. ونور الدين حاطوم: تاريخ العصر الوسيط فى أوربه جـ ١، الطبعة الأولى دار الفكر ١٩٦٠ ص ١٦٥.

(13) Heleie (C.J): Histoire des Conciles D'Apres, Les Docments Originaux, Tome III, Deuxieme, Partie, Paris 1910, p. 976. Conciles Francs de 773 a 787.

غير أن شارلمان ما كاد يعبر جبال البرانس من ناحية ناربونه لم يوفق بعد أن أغلق المسلمون الأبواب والطرق فى وجهه ولم يحصل على المساعدة المرجوة من بعض حلفائه فاضطر إلى العودة، وغضب على سليمان بن يقظان وأسره ومن معه من رهائن العرب وأكتفى من الغنيمة بالإياب سنة ٧٧٨م/ ١٦١هـ. ولا شك أن أسر شارلمان لسليمان بن يقظان قد أثار موجة من الحماسة والكراهية والسخط فى آن واحد ضد هذا المعتدى، فانتهزوا مروره بقواته من خوانق رنشفالةالضيقةوانقضوا عليه بقيادة مطروح وعيشون ابنى سليمان بن يقظان واستنقذا والدهما من الأسر وقيل أن مؤخرة جيش شارلمان التىكان يقودها رولاند قضى عليها تماما كما قتل رولاند نفسه(١٤). وبذلك يكون شارلمان قد فشل إلىحد كبير فى حملته هذه ضد المسلمين(١٥).

وبالرغم من أننا لم نجد إشارة من قريب أو من بعيد فى سيرة شارلمان التى أعدها اينهارد Enghard إلى أن البابا هادريان الأول Idrian I (٧٧٢ - ٧٩٥م) وجه شارلمان لقتال المسلمين فى أسبانيا فإن بعض الباحثين يرجحون أن أساقفة طليطلة لابد وأن شجعوا حملة شارلمان على أسبانيا كما يحتمل أن يكون البابا قد باركها واعتبرها حملة مقدسة(١٦).

ومهما يكن من أمر فإن حكام الفرنجة سواء شارل مارتل أو بيبين القيصر أو شارلمان نجحوا فى صد مسلمى الأندلس عن غاليا وأوربا(١٧).

(١٤) حسين مؤنس: المرجع السابق ص ٢٦٣-٢٦٤. وانظر: محمد محمد الشيخ: دولة الفرنجة وعلاقاتها بالأمويين فى الأندلس، الاسكندرية ١٩٨١ ص ١٥١-١٥٢.

(١٥) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس من الفتح العربى حتى سقوط الخلافة بقرطبة، الاسكندرية ١٩٦١ ص ٢٠٣.

(١٦) اينهارد : سيرة شارلمان، هامش ص ٧٥.

(١٧) سعيد عاشور: أوربا فى العصور الوسطى جـ١، الطبعة السادسة، القاهرة ١٩٩١ ص ١٥١.

عن طريق البر مما جعل المسلمين يتجهون إلى الهجمات البحرية علـى أوربـا بعد أن سيطروا سيطرة تامة على الشواطئ الشرقية والجنوبية للبحر المتوسط خلال القرن الأول الهجرى/ السابع الميلادى كما بدأ نفوذهم البحرى يمتد إلـى غرب البحر المتوسط مع نهاية القرن الثانى وبدايـة الثـالث الهجـرى/ والتاسـع الميلادى، فهاجموا جزيرتى قورسيقة وسـردينية(١٨). واتخـذوا منهمـا قواعد لمهاجمة الشواطئ الإيطالية الأمر الذى دفع الإمبراطور شارلمان إلى الخروج بأسطول من الموانئ الإيطالية سنة ٨٠٦م/١٩٠-١٩١م لمهاجمة المسلمين فى قورسيقة، غير أنهم تمكنوا من هزيمة قوات الإمبراطور شـارلمان الـذى أعد أسطولاً آخر تمكن من هزيمة المسلمين.هذا وقد طلب البابا ليو الثالث Leo III (٧٩٥ - ٨١٦ م) مـن الإمـبراطور شـارلمان سـنة ٨٠٨ م ألا يغفـل عـن مهاجمة المسلمين فى هـاتين الجزيرتين السـابقتين ومـن ثـم أصطـدم أسـطول شارلمان فى عام ٨١٣ م/١٩٧ - ١٩٨هـ بأسـطول إسـلامى فـى طريقـه مـن قورسيقة إلى أسبانيا عند جزيرة ميورقة وأستولى علـى متاعـه، وعندئـذ انتقم الأسـطول الإسـلامى مـن الفرنجـة بـالإعتداء علـى مدينـة كيفيتـا فكيـا Civita Vicca على الساحل الإيطالى شمال روما لتعويض ما فقده من متاع(١٩).

ومما لا شك فيه أن استيلاء المسلمين علـى بعـض الجـزر فـى البحـر المتوسط مثل كريـت سـنة ٢١٢هـ/ ٨٢٧م وقيام دولـة الأغالبـة فـى أفريقيـا (١٨٤ - ٢٩٦هـ/ ٨٠٠ - ٩٠٩م) كان له أثر كبير فى دعـم نفـوذ الأسـطول الإسلامى فى وسط وغـرب البحـر المتوسـط، وتطلـع الأغالبـة إلـى الإسـتيلاء على جزيرة صقلية لقربها من شواطئ شمال أفريقيا من ناحية ولخضـــوعها

---

(18) Daniel (N): The Araba and Mediaeval Europe, Beirut, 1975, p. 60.

(١٩) ابراهيم طرخان: المرجع السابق ص ١٢٢-١١٣، ٢١٦.

للدولة البيزنطية من ناحية أخرى. وقد استغل المسلمون الصراع الذى حدث فى هذه الجزيرة بين قادتها البيزنطيين الذين استعان أحدهم ويسمى يوفيميوس Euphemius بزيادة الله بن الأغلب سنة ٢١٢هـ/ ٨٢٧ م ضد بيلاتوس القائد العسكرى(٢٠). رغم محاولات الأسطول البيزنطى لمنع تقدم المسلمين فى جزيرة صقلية(٢١).

وبدخول القوات الإسلامية هذه الجزيرة صار المسلمون على أبواب إيطاليا الجنوبية، ومن ثم يذكر بعض المؤرخين أن الإيطاليين نظروا إلى فتوحات الأغالبة فى صقلية على أن هناك مرحلة جديدة من العلاقات ستبدأ مع المسلمين(٢٢). وصور الراهب إيريشمبرت Erchembert بمونت كاسينو Monte Cassino فى القرن الحادى عشر فيما بعد الزحف الإسلامى على صقلية فى أوائل القرن التاسع الميلادى بقوله " فى خلال هذه الفترة ظهر العرب كأسراب النحل ومعهم قوة كثيفة جاءت من بابليون (مصر) وأفريقية إلى صقلية ودمروا كل شئ حولهم واستولوا على مدينة بالرمو ومدن أخرى"(٢٣).

---

(٢٠) ابن عذارى: البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ، حـ١ تحقيق ركولان وليفى بروفنسال، باريس ١٩٤٨ ص ١٠٢-١٠٣. وابن الأثير: الكامل فى التاريخ حـ٥، بيروت ١٩٧٨ ص ١٨٦-١٨٨. وفازيليف: العرب والروم، ترجمة محمد عبد الهادى شعيره وفؤاد حسنين على، القاهرة (د.ت) ص ٦٩ وما بعدها. ومحمد عبد الله عنان: المرجع السابق ص ٧٤-٧٥. وحسين مؤنس المرجع السابق ص ٨٨-٩٣.
Cf: Daniel (N). Op. Cit, p. 55. cf: Poupurdin (R): the Carlingian Kingdom's in Bury: Cambridge Medival History (840-877) Vol. 3, London, 1981, p. 48.

(٢١) ابن الأثير: المصدر السابق حـ٦ ص ١٩. وابن كثير: البداية والنهاية حـ١١ بيروت (د.ت) ص ٣٩. وفازيليف: المرجع السابق ص ٧٨.

(22) Setton (K.M): A History of the Crusades, Vol. I, Philadelphia, 1955, p. 42.

(23) Daniel (N): Op. Cit., p.56.

على أية حال لم تمض عشر سنوات على دخول المسلمين صقلية حتى حدث نزاع بين الدوقات فى جنوب إيطاليا سنة ٨٣٧ م، بين أندرو Andrew دوق نابلى Naples وبين سيكارد Sicard دوق بنفنتو Benvento الذى رفض دفع الأموال التى وعد بدفعها لدوق نابلى، واحتدم النزاع بين الطرفين، فاستعان أندرو بالمسلمين فى صقلية ضد سيكارد(٢٤)، وبذلك أتيحت الفرصة للمسلمين للوصول إلى المدن الرئيسية فى جنوب إيطاليا سنة ٢٢٣هـ/ ٨٣٧م(٢٥)، وقد استغل مسلمو كريت هذا الوضع وهجموا على ميناء برنديزى الإيطالى سنة ٢٢٤هـ/ ٨٣٨م؛ رغم محاولات البنادقة لمنعهم(٢٦).

وقد حاول المسلمون الذين وصلوا إلى جنوب إيطاليا تلبية لنداءات دوق نابلى - الهجوم على المدن الإيطالية، حيث شنوا هجوما على تارنتو Taranto التى تقع على البحر الأيونى وعلى أنكونا Ancona التى تقع على البحر الأدرياتى واستولوا على بارى Bari سنة ٢٢٦هـ/ - ٨٤٠ م ووطدوا نفوذهم فيها بصفة دائمة(٢٧). تحت قيادة خلفون البربرى(٢٨). ويمكن القول أن نشاط المسلمين فى جنوب إيطاليا لم يقف عند حد تقديم العون العسكرى

---

(24) Poupardin (R): Op. Cit., p.48. Cf: Orton (P): The Shorter Cambridge, Medieval History, Vol. 1, Cambridge, 1952, p. 370.:وفازيليف: المرجع السابق ص ١٨٠

(25) Setton (K.M): Op. Cit., Vol. 1, p.45.

(٢٦) ارشيبالد لويس: القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط، ترجمة أحمد محمد عيسى ومراجعة/محمد شفيق غربال، القاهرة ١٩٦٠ ص٢١٤ Cf: Setton (K.M): Op. Cit., Vol. 1, pp. 46-47

(27) Poupardin (R): Op. Cit., pp.48-49.

و: نور الدين حاطوم : المرجع السابق حـ١ ص ١٩٥. ويذكر فازيليف أن المسلمين استولوا على ماباري سنة ٨٤١م. انظر: العرب والروم ص ١٨٥.

(٢٨) ابن الأثير: المصدر السابق حـ٥ ص٢٧٣.

لدوق ضد غريمه فحسب بل تعدى الأمر إلى التوغل فى الساحل الجنوبى والشرقى الإيطالى، وساعدتهم الظروف أنذاك، حيث انتقل الصراع على المسرح فى الجنوب الإيطالى إلى بنفنتو ذاتها، ذلك أن سيكارد دوق بنفنتو مات سنة ٨٣٩م، وقسمت دوقيته إلى مقاطعتين، حيث استقر راديلشيز Radelchis بنفنتو وسيكونولف Sikonolf فى سالرنو، وقد تبع هذا التقسيم نزاع وقتال دائم بين الطرفين تلقاه المسلمون بحفاوة بالغة لأنه كالعادة سيطلب أحد المتنازعين المساعدة من المسلمين، وهو ما حدث بالفعل، حيث زادت هجمات سيكونولف على راديلشيز فطلب الأخير المساعدة من المسلمين فى صقلية وجنوب إيطاليا(٢٩). كما طلب سيكونولوف المساعدة من مسلمى أسبانيا سنة ٨٤١م/٢٢٧هـ(٣٠) ومن تارنتو(٣١).

وهناك خلاف بين المؤرخين حول مصدر المدد الإسلامى الذى جاء إلى راديلشيز، فقد ذكر بوباردين Popardin إن هذا المدد جاء من القوات الإسلامية التى استقرت فى بارى بعد ما أستنجد بها أندرو إبان صراعه مع سيكارد(٣٢)، بينما ذكر بيكر Becker أن هذا المدد أتى مباشرة من صقلية حيث أن المسلمين لم يستقروا فى بارى إلا بعد أن جاءوا من صقلية وأخذوا بارى من راداياشيز صفواً عفواً، إذ تقبل ذلك بروح طيبة لأنهم حلفاؤه(٣٣).

---

(29) Becker: The Expansion of the Saracens. Africa and Europe in bury: Cambridge Medival History, Vol. 2, Cambridge, 1980, p. 384.

وانظر محمد عبد الله عنان: المرجع السابق ص ٧٦ .

(٣٠) ارشيبالد لويس: المرجع السابق ص ٢١٥.

(31) Se. (K.M): Op. Cit., Vol. 1, p.47.

(32) Cf: Op. Cit., p.48.

(33) Cf: Op. Cit., p.384.

وانظر: ارشيبالد لويس: المرجع السابق ص ٢١٥.

ويمكن القول أن القوات الإسلامية التى استعان بها راديلشيز كانت من المسلمين الذين تواجدوا بجنوب ايطاليا أثناء النزاع الذى كان بين دوق نابلى ودوق بنفنتو الذى حدث عام ٨٣٧ م، لأنه ليس من السهولة بمكان على تلك القوات عودتهم إلى صقلية بعد أن غدت أقدامهم على أراضى ايطاليا فى الوقت الذى لم يكن هناك رادلهم، إذ جاءت تلبية لرغبة أندرو دوق نابلى، ويفسر هذا اتجاههم للهجوم على بعض المدن مثل انكونا على البحر الأدرياتى. لكن ربما لم تكن القوات كافية لتساند راديليشيز فى صراعه وبالتالى جاءت إمدادات لها من صقلية. وفى واقع الأمر سواء تلك القوات الإسلامية كانت بالفعل فى جنوب إيطاليا أو أتت من صقلية فهى جميعا قوات إسلامية.

ومهما يكن من أمر فإن خلفون البربرى فى بارى تزعم القوات الإسلامية المساندة لراديلشيز فى بنفنتو أثناء صراعه مع سيكونولف، واتخذوا من بارى قاعدة أساسية لعملياتهم العسكرية، وجاءتهم تعزيزات من أفريقية بقيادة قائد يدعى مصار، وأصبح الجميع يقيم فى بنفنتو عاصمة إقليم راديليشيز وغدت الأخيرة تحت سيطرة المسلمين تماما. ولا شك أن هذا قد ساعد سيكونولف الذى أستعان هو الآخر بمسلمى الأندلس، فانتصر على خصمه راديليشيز ولكنه لم يستطع السيطرة على بنفنتو(٣٤).

بالإضافة إلى تمركز المسلمين فى جنوب إيطاليا فى سنة ٢٣٠ - ٢٣١هـ/ ٨٤٥ م اختاروا قواعد بحرية أخرى فى جنوب إيطاليا مثل بونزا Ponza وإسكيا Ischia ورأس مسينو Cape Miseno وبطبيعة الحال كان لسيطرة المسلمين على هذه القواعد أثر مباشر فى تكوين حلف يضم مدن جنوب إيطاليا مثل نابلى وجيتا Gaeta وأمالفى Amalfi وسرنتو Serrento

---

(34) Becker: Op. Cit., p. 384. Cf: Danie (N): Op. Cit., p.56. CF Lewis (B): The Arabs in History, London, 1956, p. 117.

لمطاردة المسلمين(٣٥). وبالفعل قد نحج هذا الحلف فى إحراز نصر بحرى فى ليكوزيا Licosa – احدى رءوس خليج سالرنو – فى سنة ٨٤٦ م/ ٢٣١هـ وتخلى المسلمون عن مراكزهم فى جزيرة بونزا(٣٦).

وإذا كان هذا الحلف قد ضيق الخناق على المسلمين فىهذه المناطق فإنهم بدأوا يوجهون نظرهم إلى أبعد من ذلك حيث تطلعوا إلى روما ذاتها، ويبدو أن البابوية عندما وجدت الهجمات الإسلامية على مدن جنوب إيطاليا وموانيها فضلا عن الاستيطان الإسلامى فى كثير من المناطق الجنوبية والشرقية لإيطاليا، بدأت تعد لتحصين مدينة روما، فالبابا جريجورى الرابع Gregory IV (٨٢٨ – ٨٤٤م) بنى حصونا لحماية روما أطلق عليها مدن جريجورى Gregorio Polis فى أوستيا Ostia(٣٧). وعلى مداخل نهر التيبر Tiber لتتحكم فيه(٣٨).

وقد حاول المسلمون الوصول إلى روما حتى تتم سيطرتهم على أهم أجزاء فى إيطاليا روحياً ودينياً، ولم يستهدفوا من وراء ذلك السلب والنهب كما يذكر فازليف(٣٩). ولتحقيق هذه الغاية وصلوا بأسطولهم إلى شاطئ إيطاليا الغربى فى ذى الحجة ٢٣١هـ/أغسطس ٨٤٦م(٤٠)، وأنزلوا قواتهم التى تزيد عن ألف مسلم إلىالبر وهزموا القوات التى تحمى كيفيتا فكيا ونوفا أوستيا Nova Ostia(٤١) كما أن التحصينات التى أقامها البابا جريجورى

(35) Becker: Op. Cit., Vol. 1, p.385.
(36) Poupardin (R): Op. Cit., p.49.
وانظر: ارشيبالد لويس: المرجع السابق ص ٢١٦ .
(37) Collins (R): Op. Cit., p.338.
وانظر: فازيليف: المرجع السابق ص ١٨٥ .
(38) Poupardin (R): Op. Cit., p. 49.
(٣٩) فازيليف: المرجع السابق ص ١٨٥ .
(40) Becker: Op. Cit., p.385.
(٤١) ارشيبالد لويس: المرجع السابق ص ٢١٦. وابراهيم طرخان: المرجع السابق ص ٢١٦.

الرابع من قبل على نهر التيبر لم تمنع المسلمين من الهبوط على الضفة اليمنى منه. ووصلوا إلى أسوار وأبواب مدينة روما، غير أنهم لم يتمكنوا من التقدم أكثر من هذا، ولم يكن أمامهم إلا ضواحى روما التى تقع خارج الأسوار(٤٢). ويضيف بعض المؤرخين الغربيين أن المسلمين هجموا على كنيسة القديس بطرس وكتدرائية القديس بولس وفتحواالقبور الخاصة بالأساقفة الحواريين ونهبوا كنوزها(٤٣). ولا شك فى أن المساس بالمقدسات الدينية تثير حفيظة الشعوب فى كل زمان ومكان، الأمر الذى ترتب عليه وقوف المواطنين الرومان ضد المسلمين وظهر كثير من القصص والروايات الخيالية التى كتبها بعض المعاصرين تروى ما فعله المسلمون بمدن روما ورد فعل الرومان ضدهم(٤٤). وبالتالى لم يتماد المسلمون أكثر من هذا(٤٥). لضعف قوتهم العسكرية وانسحبوا يحملون ما غنموه، لكن عاصفة بحرية دمرت بعض سفنهم سنة ٢٣٢هـ/ ٨٤٧ م(٤٦).

ومما لا شك فيه أن حصار المسلمين لروما واجتيازهم الحصون قد أثارت فزع رجال الدين فيها وعلى رأسهم البابا سرجيوس الثانى Sergeus II (٨٤٤ - ٨٤٧ م)(٤٧)، فأرسل إلى ملك ألمانيا لويس الثانى Louis (٨٤٠ - ٨٧٦ م)(٤٨) ليأتى بقواته ويقف عند أعمال المسلمين،

---

(42) Poupardin (R): Op. Cit., p. 49.

و: السيد الباز العرينى: تاريخ أوربا فى العصور الوسطى، القاهرة ١٩٦٨ ص ٣٦٥. ومحمد عبد الله عنان: المرجع السابق ص ٧٦.

Cf: Becker: Op. Cit., p.385.

(43) Daniel (N) : Op. Cit., p57. Cf: Poupardin (R): Op. Cit., p. 49. Castella (G): Op. Cit., tome 1, p. 147.

و: محمد عبد الله عنان: المرجع السابق ص ٧٦، ٧٨.

(44) Daniel (N) : Op. Cit., p57.

(45) Poupardin (R): Op. Cit., p. 49.

(46) Becker: Op. Cit., p.385.

(٤٧) ابراهيم على طرخان: المرجع السابق ص٢١٦.

(48) Daniel (N) : Op. Cit., p58.

وغير أن هناك عوائق أخرته، فحضر بعد فوات الأوان ومعه أخوه لوثر الأول Lothar 1 ملك لوثر نجيا بعد انسحاب القوات الإسلامية(٤٩) وإن كان فازيليف يذكر أن المسلمين أنزلوا به الهزيمة فى ١٠ نوفمبر ٨٤٦ م/ ١٢ محرم ٢٣٢هـ(٥٠). ويبدو أن البابا رأى عدم اهتمام من الحكام الكارولنجيين ومن هنا بدأ يلوح لهم بالألقاب الإمبرطورية ليغريهم حتى يدافعوا عن روما ضد المسلمين(٥١).

ومع أن وصول الملك لويس الثانى قد تأخر لمحاربة المسلمين، إلا أنه أراد أن يستغل الموقف حتى ينقذ روما من الهجمات الإسلامية فيما بعد، فأخذ طريقه صوب جنوب إيطاليا ليصلح بين الدوقيين المتنازعيين وهما راديلشيز وسيكونولف اللذان كانا السبب فى الوجود الإسلامى لأنهما استنجدا بالمسلمين، فعمل لويس الثانى معاهدة صلح بينهما وأقام خطاً حدودياً فاصلاً دقيقا بين مقاطعتيهما (بنفنتو وسالرنو)(٥٢)، وطلب منهما التصدى للمسلمين فى بارى وتارنتو(٥٣).

وفى الوقت الذى قام الملك لويس الثانى بالصلح بين المتنافسين فى جنوب إيطاليا، كان البابا الجديد ليو الرابع Leo IV (٨٤٧ - ٨٥٥ م) فى روما يعمل على إعادة بناء وإصلاح الحصون التى دمرها المسلمون وأضاف إليها، فقد بنى مدينة بورتنيس Portuensis وهى ما سميت بالمدينة اللونية The Leonine City لتحمى نهر التيبر فى حالة ما إذا حدث هجوم بحرى، كما أقام أماكن متفرقة حتى تكون ملجأ عند الهجوم مثل أورتو Orte أمريا

(49) Poupardin (R): Op. Cit., p. 49.

(٥٠) نازيليف: المرجع السابق ص ١٨٦ .

(51) Collins (R): Op.Cit., p.338. Cf: Becker: Op. Cit., p.386.

(52) Poupardin (R): Op. Cit., p. 49.

(53) Becker: Op. Cit., p.385.

Ameria ولورتو Lorto وليبولى Leopoli وغيرها(٥٤). بالإضافة إلى ذلك فأن البابا عمل على تشجيع المسيحيين لقتال المسلمين الذين دأبو على مهاجمة الأماكن المقدسة فى روما، إذ كتب إلى الفرنجة قائلاً: "إن الفرنجة الذين يموتون وهم يقاتلون العرب بإخلاص سوف لا يحرموا ملكوت السموات والأرض"، والله القادر يعرف متى تموت الرجال دفاعاً عن العقيدة الحقة ولأمن بلادهم دفاعاً عن المسيحيين، وسيحصلوا على المكافأة المتوقعة لعملهم"(٥٥).

ويمكن القول أن استقرار المسلمين فى مدينتى بارى وتارنتو قد ساعدهم على تكرار هجومهم على روما فلم يكن ينتهى البابا ليون الرابع من إصلاح وبناء القلاع والحصون التى هدمها المسلمون عام ٢٣١هـ/ ٨٤٦ م إلا وكان قد أعدوا خطة جديدة لشن هجوم على الشاطئ الغربى لإيطاليا والتوغل فى روما سنة ٢٣٤ - ٢٣٥هـ/ ٨٤٩ م. حيث تجمعت السفن الإسلامية فى جزيرة سردينية وحاولت الموانى البحرية لساحل إيطاليا الغربى (نابلى وأمالفى وجيتا) بناء على طلب البابا - صد الهجوم الإسلامى المرتقب، فتقابلت الأساطيل أمام أوستيا وبدأ القتال بين الطرفين، وخسر كل منهما بعض سفنه فى هذه المعركة، وهناك من المؤرخين الغربيين من يرجحون تدمير الأسطول الإيطالى بالكامل(٥٦). بالإضافة إلى تدمير جزء كبير من الأسطول الإسلامى نتيجة لرياح شديدة(٥٧).

---

(54) Setton (K.M): Op. Cit., Vol. 1, p.46. Cf: Poupardin (R): Op. Cit., p. 49. Cf: Collins (R): Op. Cit., p.338.

و: محمد عبد الله عنان : المرجع السابق ص ٨٧.

(55) Daniel (N) : Op. Cit., p. 76.

(56) Becker: Op. Cit., p.385. Cf: Castella (G): Op. Cit., tome 1, p. 149.

و: ارشيبالد لويس: المرجع السابق ص ٢١٦.

(٥٧) فازيليف: المرجع السابق ص ١٨٦ .

ويبدوا أن تحطيم أعداد كبيرة من السفن الإيطالية قد شجع المسلمين على التقدم إلى إيطاليا ذاتها، فهجموا سنة ٢٣٥ - ٢٣٦هـ/ ٨٥٠م على وسطها وخاصة مدن جينا وسالرنو ونابلى وكابوا واحتلوا منطقة ميزنيوم تحت أسوار نابلى وهددوا مونت كاسينوا Monte Cassino وسان فينسنزو San Vincenzo فى فولترنو Volturno والأديرة الموجودة بها، ومن ثم استدعى الملك لويس الثانى الرهبان فى سنة ٨٥٢/ ليحثهم على المساعدة فى إيقاف المسلمين غير أنه فشل أمام أسوار هذه المدن(٥٨). وبالتالى كان عليه أن يهاجم الوجود الإسلامى فأخذ طريقه مرة ثانية إلى جنوب ايطاليا سنة ٨٦٦ م بهدف تشكيل قوة ردع من الدوقات المتنازعين لطرد المسلمين واسترداد الحصون والقلاع منهم(٥٩). وبالفعل تمكن الملك لويس الثانى بمساعدة الأطراف التى تم التوفيق بينها وبين بعض من حصار أهم حصون المسلمين فى جنوب الساحل الشرقى لإيطاليا وهى بارى سنة ٨٦٧ م/ ٢٥٣هـ، لكنه لم يستطع الإستيلاء عليها بسهولة لسببين رئسيين: أولهما؛ أن الملك لويس الثانى كان لا يملك أسطولاً حربياً بحرياً قوياً يمكنه من مهاجمة المسلمين فى بارى من ناحية البحر فضلاً عن حصاره لها من ناحية البر(٦٠). وثانيهما؛ أن بارى لم تعد فى الواقع مجرد مدينة إسلامية عادية على الأرض الإيطالية اتخذها المسلمون دار الإمارة وبنوا فيها مسجداً جامعاً، ولكنها غدت بمثابة قاعدة عسكرية تخرج منها القوات المهاجمة لمدن إيطاليا فضلاً عن تلقيها المساعدة العسكرية الإسلامية والمدد من صقلية

---

(58) Setton (K.M): Op. Cit., p. 48. Cf: Poupardin (R): Op.Cit., p. 49.

و: السيد الباز العرينى: تاريخ أوربا فى العصور الوسطى، ص ٣٦٥. وابراهيم طرخان:المرجع السابق ص٢١٧-٢١٨.ومحمد عبدالله عنان:المرجع السابق ص٨٧-٨٨.

(59) Setton (K.M): Op. Cit., Vol. 1, p.48.

(60) Poupardin (R): Op. Cit., p. 49.

وأفريقية، وكان قد حل – آنذاك – حاكم جديد للمدينة اسمه المفرج بن سالم بدلاً من خلفون البربرى(٦١). وكان المفرج هذا قد أعلن استقلاله السياسى عن أمير صقلية، وصرح بولائه مباشرة للخلافة العباسية فى بغداد ولقب بسلطان(٦٢)، ويبدو أنه كان ذات نفوذ قوى فى غرب أوربا والشرق على حد سواء، وينهض دليلاً على ذلك أن حاجا مسيحياً فرنسياً يدعى برنارد Bernard اعتزم الحج إلى بيت المقدس سنة ٨٧٠م. فطلب من سلطان بارى أن يزوده بأذن مرور يساعده على اجتياز بلاد المسلمين بسهولة، فأعطاه سلطان بارى خطاباً ليمر به عبر مصر، وكان أن ركب هذا الحاج سفينة إسلامية خرجت من ميناء تارنتو بإيطاليا متجهة نحو الإسكندرية(٦٣).

وهكذا يبدوا أن مكانة المسلمين فى جنوب إيطاليا بلغت درجة لا يستهان بها، ومما ضاعف من قوتهم استيلاء الأغالبة على مالطة سنة ٢٥٦هـ/ ٨٧٠م وبذلك سيطروا على المضايق بين صقلية وأفريقيا(٦٤).

---

(٦١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حـ٥ ص٢٦٣. وانظار وديع فتحى عبد الله: بيزنطة ومسلمو جنوب إيطاليا وصقلية (٨٦٧-٨٨٦م/ ٢٥٣-٢٧٣هـ) (د.ت) ص٢٦.

(62) Becker: Op. Cit., p.380.

يبدوا أن اسم سلطان مناقض للعصر، وقد اعتقد البعض أن اسم سودان أو سوجدان أو سوتان المذكور فى المصادر اللاتينية ليس اسم شخص وإنما اسم السلطان فى صيغة لاتينية. انظر : فازيليف : المرجع السابق هامش ص ٢٣١.

(63) Danie (N): Op. Cit., pp. 60-61.

و: هايد : تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى حـ١، القاهرة ١٩٨٤م ، ترجمة/محمد رضا مراجعة/عز الدين فوده ص ١١٣. ونقولا زياده: الرحلة والرحالة فى القرون الوسطى، مقال بالمقتطف المجلد/٨٢ حـ٢ يناير ١٩٣٣ ص٦٠٠ . وأيضا: وديع فتحى: المرجع السابق ص ٢٦.

(٦٤) ا شيبالد لويس: المرجع السابق ص ٢١٧.

ومن ثم وجد الملك لويس الثانى صعوبة بالغة فى طرد المسلمين من بارى دون تكثيف الجهود العسكرية والدبلوماسية، فأرسل إلى الإمبراطور البيزنطى باسيل الأول BasileusI المقدونى (٨٦٧ - ٨٨٦ م) يطلب منه التعاون العسكرى البحرى ورتب معه زواج ابنته إيرمينجارد Ermengarde من ابن الإمبراطور باسيل(٦٥)، وبعد مفاوضات طويلة بين الطرفين وضعت إدارة المعركة المقبلة مع المسلمين تحت سيطرة البيزنطيين(٦٦). وبالفعل أرسل الإمبراطور البيزنطى قوات بحرية وبرية إلى بارى سنة ٨٦٨ م لمساندة الملك لويس الثانى(٦٧). ويبدو أن القوات البيزنطية لم تعمل كما ينبغى ضد المسلمين، فاضطر الملك لويس الثانى إلى مناشدة أهالى المقاطعات الواقعة فى شمال الأدرياتيك(٦٨). وبعد أن أستعدت قوات الملك لويس الثانى استعداداً يمكنها من مواجهة المسلمين فى بارى، دخل فى مناوشات عسكرية استطاع على أثرها شن هجوم شامل على بارى حتى سقطت فى ٢ فبراير ٨٧١ م/ ١٤ ذو الحجة ٢٥٧هـ(٦٩). غير أن هذا لم يمنع من تجدد الهجوم الإسلامى مرة أخرى على إيطاليا، ففى سنة ٢٥٨هـ/ ٨٧٢م جاءت قوات إسلامية من أفريقية ووصلت إلى الشاطئ الغربى الإيطالى وحاصرت مدينة سالرنو(٧٠) وجيتا(٧١). وكابوا. وقد أرسل إليهم الملك لويس الثانى قوات طردتهم من كابوا وفوليترنوا(٧٢).

---

(65) Poupardin (R): Op. Cit., p. 49.
(66) Becker: Op. Cit., p.386.
(67) Setton (K.M): Op. Cit., Vol. 1, p.47.
(68) Poupardin (R): Op. Cit., p. 49.
(69) Lec-Cit. Cf: Orton (P): Op. Cit, Vol. 1, p. 370.
وانظر: السيد الباز العرينى: تاريخ أوربا فى العصور الوسطى، ص ٣٦٥.
(70) Setton (K.M): Op. Cit., Vol. 1, p.49.
(٧١) ارشيبالد لويس: المرجع السابق ص ٢١٥.
(72) Becker: Op. Cit., p.386.

ولا شك فى أن الأملاك البابوية بإيطاليا قد عانت من جراء هذه الهجمات الإسلامية المتتالية عناءاً مريراً، الأمر الذى دفع البابا الجديد فى روما وهو يوحنا الثامن John VIII (٧٧٢ - ٨٨٢م) يعمل على تطوير أسطول البابوية الصغير، ولكن فى ضوء المساعدات المحدودة التى يحصل عليها من الملوك، الكارولنجيين، وكان هذا يتوقف على الهجمات الإسلامية وعددها مما يعطى فرصة لإمداد البابوية بما تريد(٧٣). لكن الهجمات الإسلامية لم تتقطع عن جنوب إيطاليا، ومما زاد الطين بله أن نابلى كانت على صلات طيبة مع المسلمين فى صقلية، فكان ذلك مدعاة للملك لويس الثانى أن يتهمهما بأنها أصبحت "بالرمو" أخرى أى تابعة لأفريقية والمسلمين، لأنها كانت نقطة ارتكاز وانطلاق مريحة لرحلات المسلمين البحرية العسكرية وتزودهم بالأسلحة وتقتسم معهم الغنائم، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل إن دوقات سالرنو ونابلى وجيتا وأمالفى عقدوا حلفا مع المسلمين سنة ٨٧٥م/ ٢٦١ - ٢٦٢هـ (٧٤). واتخذوا من نابلى قاعدة لشن هجوم على داخل روما فى سنة ٢٦٣هـ/ ٨٧٦م، ٢٦٤هـ/ ٨٧٧م، ونهبوا روما وما حولها وهددوا البابا فى الوقت الذى كان هناك صراع بين البابا والبيطريرك فوتيوس Photius بسبب الإيقونات. ومن هنا فإن البابا يوحنا الثامن وجد نفسه غير قادر على منع نهب أراضى الأديرة، وقد نظر إلى الملك شارل الأصلع ومدن جنوب إيطاليا والدولة البيزنطية على أنهم سيخلصوه من المسلمين(٧٥).

---

(73) Collins (R): Op. Cit., p.338.

(74) Becker: Op. Cit., 387 Cf: Daniel (N) : Op. Cit., p 57.

؛ : هايد: المرجع السابق ص ١١٤. و :وديع فتحى: المرجع السابق ص ٥١.

(75) Setton (K.M): Op. Cit., Vol. 1, p.49.

وكان البابا كما سبق القول قد رتب مع الملك لويس الثانى عملية مقاومة الوجود الإسلامى بإيطاليا، وقد رأينا محاولته القيام بهذه المهمة إرضاءاً للبابا وحرصاً على أملاكه، غير أن الملك لويس الثانى قد مات سنة ٨٧٥م وأصبح البابا يتطلع إلى الملك شارل الأصلع عم الملك الذى مات. ويذكر بعض المؤرخين أن ما كان يصبو إليه البابا يوحنا الثامن أن يكون الملك شارل الأصلع أمبراطوراً قوياً وعملاقاً قادر على الدفاع عن الأماكن المقدسة ضد أطماع المسلمين، وقد اعتقد البابا فى ذلك لأن شارل هذا تعلم تعليماً راقياً ويحب الأدب ويهتم بإيطاليا(٧٦). وعليه فإن قضية طرد المسلمين من إيطاليا قد حازت جانبا كبيراً من تفكير البابا يوحنا الثامن، وبالتالى فقد طرحت فى المجمع الذى عقد فى روما عام ٨٧٧م ولم يحضره البابا لانشغاله بأمر المسلمين، بينما أستدعى شارل الأصلع لحضور هذا المجمع(٧٧). وكتب إليه البابا خطاباً يحثه على ضرورة محاربة المسلمين إذ قال "كل ضواحى روما قد نهبت ولم يبق أى مواطن إلاّ وهو فى حالة سيئة" وكتب أيضاً "إن الوضع خطير جداً على المسيحيين وهذه شرور لم يشهد عصرنا مثيلاً لها" وقد وصف الدمار بقوله "إن المزارعيين الذين لحقهم الدمار داخل تحصينات روما خرجوا للصحراء وهم فى حالة سيئة"(٧٨)، ويبدو أن شارل الأصلع لم يكن يملك الأسطول القوى ليقف به ضد المسلمين(٧٩).

---

(76) Poupardin (R): Op. Cit., p. 50.

وانظر: السيد الباز العرينى: المرجع السابق، ص ٣٦٦.

(77) Hefele (J): Histoire des Conciles, D'Apres, Les Documents Originaux, Tome IV, Deuxieme, Partie, Paris 1911, p. 658. Lutte en Talie: Conciles de Rome et Ravenne, en 877.

(78) Daniel (N) : Op. Cit., p. 77.

(٧٩) ارشيبالد لويس: المرجع السابق ص ٢١٩.

هذا عن شارل الأصلع؛ أما المدن المتحالفة مع المسلمين فإن البابا أعلن أنه سيقدم مكافأة مالية لأى قائد إذا انفصل عن المسلمين وتحلل من تحالفه معهم. وذكر أن هذا التحالف باطل وأهالى نابلى الذين كانوا رجال الله اصبحوا الآن رجال أمير الظلم والفساد بسبب هذا التحالف. بالإضافة إلى ذلك فإن البابا وصف المسلمين بصفات يخجل القلم عن ذكرها واللسان عن نطقها والتفوه بها. وقد أثار البابا مخاوف عديدة من مغبة الفشل فى طرد المسلمين قائلاً "وإما سنخضع للوثنيين (المسلمين) وهذا تمنعه السماء وسنلاقى الموت الزؤام والدمار التام للمسيحية، ونتيجة لذلك فإن اسم المسيح سيلوث بين الأمم وسيعرض للنسيان" وقد ربط البابا بين سلام المسيحيين ووحدتهم والتصدى للمسلمين وضرورة الأهتمام برسم خطة لطردهم ومن أجل ذلك طالب بإقامة الصلوات حتى يتخلص المسيحيون منهم بعمل إيجابى سريع وإعداد المقاتلين الأقوياء. كذلك كتب البابا خطاباً إلى ويجبودوس Wigbodus أسقف بارما Parma يطلب منه الحضور بسرعة إليه ليناقش معه الموضوعات المهمة التى تتعلق بمحاربة المسلمين(٨٠). ويبدوأن هذا الخطاب كان فى غاية السرية والأهمية، لأن البابا طلب من الأسقف حرقه بعد قراءته(٨١). على أى حال فإن هذه المدن المتحالفة مع المسلمين لم تر مصلحتها فى عداوتهم واستمرت فى سياستها المناوئة للبابوية(٨٢). ما عدا ويفرى Waifre دوق سالرنو حيث نجح البابا فى إخراجه من هذا الحلف، ويبدو أن البابا استعمل سلاح الحرمان الكنسى ضد المناوئين له عندئذ. ولكن

---

(80) Daniel (N) : Op. Cit., p. 77-78.

(81) Engreen (F-E): Pope John the Eighth and Arabs in Speculum, V. 20, America, 1945, p. 319.

(٨٢) ارشيبالد لويس: المرجع السابق ص ٢١٩. و: وديع فتحى: المرجع السابق ص ٢٠١.

ذلك لم يترك أثراً وبخاصة فى أهالى أمالفى، ومن ثم اتجه البابا إلى تهديدهم بإغلاق المواني التجارية أمامهم التى اعتادوا التعامل معها والدخول فيها(٨٣) مما دفع الإمالفيين إلى عرض المساعدة على البابا بحماية الشواطئ الإيطالية وخاصة الغربية ضد المسلمين، ولكن مقابل مبالغ مالية تعطيها البابوية لإمالفى(٨٤). ولم يكن أمام البابا إلا قبول هذا العرض، فوعدهم بإعطائهم مبالغ مالية سنوية علاوة على مميزات تجارية أخرى مهمة؛ وقد هدد الأمالفيون البابا بحصاره فى حالة عدم الوفاء بوعده ونقض هذه الأتفاقية. وتأكيداً لصدق البابا فى الوفاء بوعده، أعطى أمالفى بالفعل مبالغ طائلة كتعويض للأسطول التى وعدت بوضعه تحت تصرف البابا(٨٥).

أما بالنسبة للإمبراطور البيزنطى فقد طلب البابا يوحنا الثامن منه إرسال قوات بحرية ليتجنب الأخطار الإسلامية(٨٦)، غير أن الإمبراطور البيزنطى - باسيل الأول المقدونى - كان وقتها مشغولاً بالمسلمين فى الشرق علاوة على ذلك فإنه كان لا ينظر بارتياح للتقارب الكارولنجى البابوى(٨٧). حتى عندما أرسل الإمبراطور البيزنطى قواته لمساعدة البابوية، لم يتسنى له تقديم أى معونة لضعف الجبهة البابوية بسبب الحلف الذى كون فى جنوب إيطاليا مع المسلمين، ومن هذا المنطلق فقد وجد البابا نفسه أمام هجمات المسلمين المتتالية على روما وتزداد مكانتهم بما يسيطرون عليه من جزر فى البحر المتوسط التى تقوى حلقة الوصل بينهم وبين صقلية وبين الأخيرة

---

(٨٣) هايد: المرجع السابق ص ١١٤.

(84) Setton (K.M): Op. Cit., Vol. 1, p.49.

(٨٥) قدر المبلغ الذى دفعه البابا لمدينة أمالفى بعشرة آلاف مانكوسا Mancusi
Cf: Engreen (F-E): Op. Cit, p. 328

(86) Ibid, p. 319.

(٨٧) لرشيبالد لويس: المرجع السابق ص ٢١٩. ووديع فتحى: المرجع السابق ص ٥١. وابراهيم طرخان: المرجع السابق ص٢١٧.

وأفريقية(٨٨)، فكان عليه أن يشترى السلم مع المسلمين حتى يحمى الأملاك البابوية، ودفع مقابل ذلك مبالغ طائلة لهم(٨٩) منها ما قد تم دفعه وقت توقيع الهدنة سنة ٢٦٤ - ٢٦٥هـ/ ٨٧٨ م(٩٠)، ومنها ما أتفق عليه دفعه فى العامين التاليين لتوقيع الهدنة(٩١)، وذلك حتى يحصل البابا على فترة من الراحة والهدوء فى خضم هذه المشاكل التى أمامه(٩٢).

يلاحظ الدارس لتاريخ إيطاليا فى تلك الفترة أن مدن إيطاليا لاقت معاناة شديدة من جراء الهجمات الأسلامية المتكررة عليها، إذ يذكر بعض المؤرخين أن الإقتصاد انهار تماما وأصبحت البلاد شبه مهجورة، ودمرت كل الضواحى والبرية، وأصحاب السهول قتلوا أو أستعبدوا ولم يجرؤ أحد من الفلاحين على زراعة الحقول وبالتالى لم يكن هناك حصاد لمدة عامين تاليين، وقل علف الخيول مما أدى إلى إلغاء البابا لبعض رحلاته. ووضع توجيهاته للدفع الفورى للإيرادات حيث نقصت ميزانية البابوية وخاصة بعد دفع الأموال للمسلمين حتى لا يهاجموا روما، وللأمالفيين ليساعدوا البابا ضد المسلمين كما سبق ذكره. وإذا كانت الهجمات الإسلامية قد قلت بعض الشئ فإن أمالفى لم

---

(٨٨) سعيد عاشور: المرجع السابق حـ١ ص ٣٢٧

Becker: Op. Cit., p.387.

(89) Hefele (J): Op. Cit, Tome IV, Deuxiem, Partie, Paris 1911, p. 664. Lutte en Italie: Conciles de Rome et Rovenne, en 877.

(90) Engreen (F-E): Op. Cit, pp. 322, 328. Cf: Setton (K.M): Op. Cit., Vol. 1, p.49.

(91) Lewis (B): Op. Cit., p.117.

يذكر البعض أن قيمة المبالغ التى حصل عليها المسلمون من البابا يوحنا الثامن قدرت بـ ٢٥ ألف قطعة من الذهب. انظر: ارشيبالد لويس: المرجع السابق ص ٢١٩. ومحمد عبد الله عنان: المرجع السابق ص٨٨. ووديع فتحى: المرجع السابق ص ٥٢. ويذكر آخرون أنها جزية سنوية مقدارها مائة ألف مثقال ذهب. انظر: ابراهيم طرخان: المرجع السابق ص٢١٧. والذى يهمنا أن البابا دفع للمسلمين أموالا ليرفعوا الحصار عن روما.

(92) Becker: Op. Cit., p.382.

تقدم أى معونة للبابوية، وعندما طالبهم البابا يوحنا الثامن برد الأموال التى أخذوها منه مقابل المساعدة فإنهم ماطلوا فى سدادها. ويمكن القول أن البابا قد أهتم بالإستعداد ضد المسلمين بشتى الوسائل لأن روما تأثرت فعلاً فى كافة جوانبها وأحيائها بسبب المسلمين سواء تأثيرات إقتصادية أو إدارية(٩٣). وقد ترتب على ذلك بعد شراء السلم من المسلمين أن البابا بدأ يكتب رسائل إلى رجال الدين ليحثوا الناس على محاربة المسلمين وعمل تحالفات عديدة. وبدأ يدعوا البابا بنفسه إلى ذلك وعندما سأله بعض الأساقفة من جنوب إيطاليا عن مصير الذين يسقطون دفاعاً عن كنيسة الله المقدسة والدين المسيحى، أجابه أنه واثق أن هؤلاء الذين قتلوا أثناء الصراع العنيف ضد المسلمين من أجل الدين الكاثوليكى سيلاقوا الخلود الأبدى(٩٤).

علاوة على ذلك فأن البابا يوحنا الثامن كان دائم الطلب للمعونة من ملوك فرنسا تباعاً لويس المتأتئ (المتلعثم) Louis the Stammerer (٨٧٧ - ٨٧٩م) ولويس الثالث (٨٧٩ - ٨٨٢ م) وكارلومان Carloman (٨٧٩ - ٨٨٤ م) وملك ألمانيا شارل السمين Charles The Gros (٨٧٦ - ٨٨٧م)(٩٥) الذى توّجه البابا إمبراطوراً فى فبراير ٨٨١ م إبان المجمع الذى عقد فى الفترة من سنة ٨٧٩ - إلى سنة ٨٨٨ م(٩٦).

ومما يجدر ذكره أن هذه الجهود التى بذلها البابا يوحنا الثامن قد ساعدت على تقوية الروح المعنوية لدى الشعب الإيطالى وخاصة عند ما بدأ الأسطول البيزنطى يظهر فى المياه الإيطالية اعتباراً من عام ٨٨٠م بصورة

---

(93) Cf: Engreen (F-E): Op. Cit, pp. 327- 329.
(94) Daniel (N) : Op. Cit., p. 78.
(95) Ibid, pp. 321-322, 325.
(96) Hefele (J): Op. Cit, Tome IV, Deuxiem, Partie, p. 684. Conciles Entre 879 et 888, Jusqu' a la mort de le Empereur Charles la Gros.

أقوى مما كان عليه من قبل، وبدأ يقطع الطريق البحرى على السفن التجارية البحرية الإسلامية المتجهة إلى جنوب إيطاليا(٩٧). وهاجم كالابريا Calabria وتارنتوم ٨٨٠م/ ٢٦٦ - ٢٦٧هـ(٩٨). ويبدو أن الوجود البيزنطى البحرى والدعوة البابوية قد أثر كل ذلك فى بعض مدن التحالف الإيطالى الإسلامى وخاصة نابلى، إذ دخل البابا يوحنا الثامن فى نقاش مع اثناثيوس Athanasius دوق وأسقف نابلى سنة ٨٨١م محاولاً إقناعه بالعدول عن تحالفه مع المسلمين قائلاً له "تذكر من أنت، ما سيكون مصيرك إلا إذا عدت إلى رشدك، ولا تنسى حكم الله خشية أن يحاسبك على ما تسببت فيه من دمار للمسيحيين بسبب سوء تصرفك" وقد أرسل البابا للأساقفة الآخرين بإعلان حرمان أثناثيوس الذى تحالف مع المسلمين وباع أراضيه بلا مقابل لكى يقضى على سكانها واتخذ البابا سلاح الحرمان ضد أثناسيوس حتى ينفصل عن المسلمين. وقد ساند جيران أثناسيوس وأهالى سالرنو البابا يوحنا الثامن وقالوا له "إن القائد العربى الذى أتفق مع أثناثيوس قد بدأ بالفعل فى تدمير نابلى والاستيلاء على كل شئ وفرض الجزية على الخيل والفتيات والأراضى الزراعية(٩٩). وفى شهر أبريل سنة ٨٨١م وإبان المجمع الذى كان منعقداً أنذاك فى سان بيتر Saint pierra بروما رفع البابا الحرمان عن أثناثيوس لأنه تعهد بمحاربة المسلمين وتدميرهم(١٠٠). ومن ثم فقد تحالف أثناثيوس دوق وأسقف نابلى مع البابا، وألتزم بدفع المال له والوقوف بجانبه لتنفيذ برنامجه المعادى للمسلمين الذين هددوا الدولة والناس و الكنيسة جميعاً(١٠١).

---

(٩٧) لرشيبالد لويس: المرجع السابق ص ٢٢٠.

(98) Becker: Op. Cit., p.387. Setton (K.M): Op. Cit., Vol. 1, p.49. Cf: Orton (P): Op. Cit, V. 1, p. 370.

(99) Daniel (N) : Op. Cit., pp. 76-77.

(100) Hefele (J): Op. Cit, Tome IV, , Partie, II p. 684. Conciles Ente 879 et 888.

(101) Engreen (F-E): Op. Cit, p. 319.

ومهما يكن من أمر الجهود البابوية وما تلاها من المواقف المتناقضة لمدن جنوب إيطاليا وموقف الدولة البيزنطية، فإن المسلمين حاولوا مرة أخرى تعويض ما فقدوه من سلطة ومكانه فى مدينة بارى سنة٢٥٧هـ/٨٧١م، وخلال هذه الجهود المضنية للبابا يوحنا الثامن، يتحالفون مع مدينة جيتا فى السنة الأخيرة لعهد هذا البابا ٨٨٢م/ ٢٦٨ - ٢٦٩هـ، وتمكنوا من الحصول على حصن فى فوهة نهر جارليجانو Gargliano على الضفة اليمنى فى ترجيتو Trajetto، وأقاموا بأزواجهم وأولادهم وأمتعتهم (١٠٢)، ومن هناك أتيح لهم فرصة شن الهجوم والغارات على وسط إيطاليا إذ فى العام التالى ٢٦٩ - ٢٧٠هـ/ ٨٨٣ م وصلوا إلى أبواب روما ومونت كاسينو(١٠٣). وبذلك ظلوا يقلقون الريف الإيطالى، كما هاجموا فارفا Farfa سنة ٢٧٦ - ٢٧٧هـ/ ٨٩٠م وسيباركو Subiaco وسيسليانو Ciciliano وساراسينسكو Sarracinesco (١٠٤)، وبذلك غدا موقع المسلمين الجديد وهذه القاعدة تشكل خطراً على البابوية فى عهد البابا ستيفن الخامس (٨٨٥ - ٨٩١) Stephenv(١٠٥).

وكان الأسطول البيزنطى كما سبق أن اشرنا قد استعاد نشاطه فى البحار الإيطالية اعتباراً من عام ٨٨٠م، ونجح فى إحراز نجاح فى العامين الأخرين من عهد البابا يوحنا الثامن، واستطاع هذا الأسطول استرداد المعاقل

---

(102) Daniel (N) : Op. Cit., p. 59.

(103) Engreen (F-E): Op. Cit, p. 329. Cf: Becker: Op. Cit., p.387.

و: ارشيبالد لويس: المرجع السابق ص ٢٢١. و: ابراهيم طرخان: المرجع السابق ص٢١٨.

(104) Setton (K.M): Op. Cit., Vol. 1, p.50.

(105) Engreen (F-E): Op. Cit, p. 329.

البيزنطية فى الجنوب الشرقى من إيطاليا (٨٨٤ - ٨٨٧ م)(١٠٦)، كما دأبوا على مهاجمة المسلمين فى صقلية(١٠٧). غير أن هذا لم يكن يعنى أن الصراع بين المسلمين والبيزنطيين قد انتهى(١٠٨)، ويفسر هذا أن الهجمات الإسلامية على إيطاليا لم تتوقف.

وفى واقع الأمر إذا كان الأسطول البيزنطى قد وقف بجانب البابوية ضد المسلمين فإنه كان بدافع الخوف والحرص واسترداد الأملاك البيزنطية فى إيطاليا من ناحية، ومن ناحية ثانية فإن الدولة البيزنطية حصلت من البابوية مقابل هذا على تنازلات باهظة الثمن، إذ سمح البابا يوحنا الثامن للرهبان البيزنطيين بالدعاية فى روما لآرائهم، ووافق على عودة فوتيوس Photius كبطريرك، حيث كان هذا معارضا للبابا حول الأيقونات. بالإضافة إلى ذلك فإن البابا ألغى كل الطموحات والتطلعات فى بلغاريا Bulgaria، ووافق على مساواة البطريرك البيزنطى بالبابا الرومانى. ولا شك وكما يذكر بعض المؤرخين أن كل هذا حدث بسبب فشل نظام التحالفات لمدن الجنوب والوسط الإيطالى خوفا من توسع النفوذ وامتداد السيطرة البابوية(١٠٩).

وهكذا ظلت إيطاليا مهددة منذ بداية القرن التاسع الميلادى/ الثالث الهجرى من المسلمين، وإذا حدث كما رأينا أن استولى البابا بمساعدة الفرنجة أو البيزنطيين على منطقة من المسلمين فإنهم سرعان ما يؤسسوا غيرها، ومن ثم كان على جميع القرى الغربية التكاتف لطرد المسلمين نهائياً من إيطاليا، وقد تزعم هذه المبادرة ونجح فيها البابا يوحنا العاشر John X (٩١٤ - ٩٢٨ م) إذ تجمعت القوات البيزنطية والغربية ومدن الجنوب الإيطالى

---

(106) Becker: Op. Cit., p.387.

و: سعيد عاشور: المرجع السابق جـ١ ص ٣٢٧

(١٠٧) ابن عذارى: المصدر السابق جـ١ ص ١٢٠.

(108) Becker: Op. Cit., p.387.

(109) Engreen (F-E): Op. Cit, p. 324.

بقيادة نيقولا نبشلى Nicolas Pincingly وتشجعوا وحاربوا المسلمين فى جاريجليانو ٩١٥ م/ - ٣٠٣هـ(١١٠). وقد شارك البابا بنفسه فى هذه المعركة إذ استولى على الحصون والحاميات التى أقامها المسلمون بالقرب من روما، كما أستغل هذا البابا المجمع الذى عقد فى عام ٩١٦م. وأعلن تكوين رابطة من كونراد الأول Conrd I (٩١١ - ٩١٨) ملك ألمانيا والإمبرطور برنجار الأول Berenger I (٩١٥ - ٩٢٤ م) إمبرطور الدولة الرومانية المقدسة وذلك لمواجهة المسلمين(١١١).

على أن هذه الأعمال والأحلاف التى أعلنتها البابوية ضد المسلمين لم تبعدهم عن أهدافهم فيطالعنا بعض المؤرخين بذكر العديد من الهجمات والحملات الإسلامية على إيطاليا، ففى سنة ٣١١ - ٣١٢هـ/ ٩٢٤م هجموا على أوريا Oria(١١٢)، وعلى سواحل توسكانيا وليجوريا وجنوا سنة ٣٣٣هـ/ ٩٣٥م(١١٣)، وبسطوا نفوذهم على جبال الألب Albs سنة ٣٣٦ - ٣٣٧هـ/ ٩٤٨م(١١٤). وعلى كلابريا ونابلى فى سنة ٣٣٨ - ٣٣٩هـ/ ٩٥٠م (١١٥). وعلى الأديرة الكلونية بممرات الألب سنة ٣٦٣ - ٣٦٤هـ/

---

(110) Daniel (N) : Op. Cit., p. 55. Cf: Setton (K.M): Op. Cit, V. 1, p. 50. Cf: Beker: Op. Cit, p. 387. Orton (P): Op. Cit, p. 371.

و: هايد: المرجع السابق ص ١١٥-١١٦ وارشيبالد لويس: المرجع السابق ص ٢٢١. وابراهيم على طرخان: المرجع السابق ص٢٦٤. ووديع فتحى: المرجع السابق ص ٧٩.

(111) Hefele (J): Op. Cit, Tome IV, Deuxiem, Partie, p. 736. La pape Jeanx, Le roi Canrad 1 et Le can cile de Hohenatthein en 916.

(112) Daniel (N) : Op. Cit., p.759.

والسيد الباز العرينى: المرجع السابق، ص ٣٦٥ .

(١١٣) هايد : المرجع السابق ص ١٣٥ .

(114) Cf: Southern (R.W): The Making of the Middle Ages, Britain 1953, pp. 36-37.

(115) Orton (P): Op. Cit, V. 1, p. 371.

٩٧٣م، حيث أسروا مقدم الدير الرئيسى الذى كان يدعى مايولوس Maiolus ولم يطلقوا سراحه إلا بعد حصولهم على فدية(١١٦).

وخلاصة القول: أن البابوات الذين تعاقبوا على كرسى البابوية خلال القرن التاسع الميلادى/ الثالث الهجرى، قد أخذوا يدركون خطورة الوجود الإسلامى ليس فى صقلية فحسب ولكن فى جنوب إيطاليا، وبدأ البابوات يشعرون بجسامة الخطر منذ عهد البابا جريجورى الرابع (٨٢٨ - ٨٤٤) عندما تحركت القوات الإسلامية واعتدت على الأملاك البابوية فى روما، و وحاول البابوات تباعا تحصين روما من ناحية والاستعانة بملوك الفرنجة من ناحية ثانية وبالدولة البيزنطية من ناحية ثالثة وبالمدن فى الجنوب الإيطالى من ناحية رابعة.

وقد حاول البابا استغلال مدن جنوب إيطاليا لصالحه ضد المسلمين، لكن هذه المدن كانت تخشى من السيطرة البابوية أو الكارولنجية، لذلك تحالفت مع المسلمين لفترة طويلة ضد البابوية وملوك الفرنجة جميعاً إلى أن بذل البابا جهوداً مضنية فى نهايات هذا القرن لاقناع هذه المدن بالتخلى عن التحالف مع المسلمين والعمل لصالح البابوية والمسيحية، ومن ثم يكون الدافع وراء البابوية لم يكن دينيا بقدر ما كان حرصا منها على أملاكها و سيطرتها وهيمنتها على القوى العربية، ويؤيد ذلك أن البابوية عندما طابت المساعدة من الدولة البيزنطية وقدمت لها الأخيرة المساعدة كانت غالية الثمن، فقد تخلت البابوية مقابل هذا عن كثير من مبادئها وادعاءاتها التى دخلت من أجلها فى صراع طويل مرير مع الكنيسة الشرقية.

ومما يجدر الإشارة إليه أن البابوية لم تكن تدرك ماهية المسلمين فى البداية فهى لم تفرق بينهم وبين العناصر الوثنية فى أوربا مثل السكسون

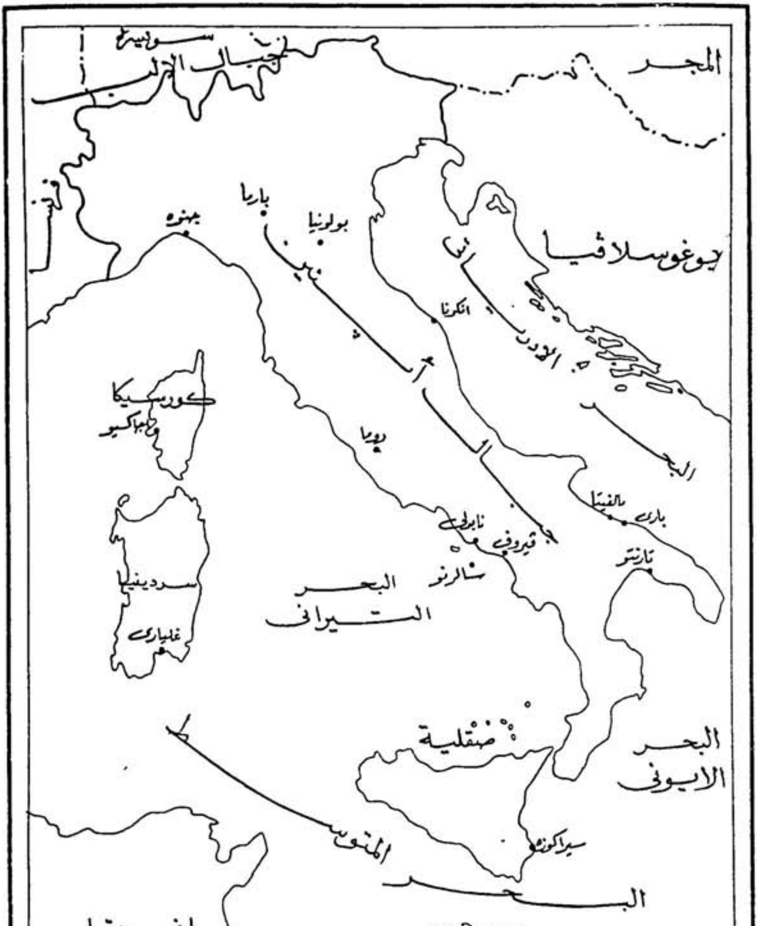
---

(116) Daniel (N) : Op. Cit., p.62.

والشماليين وغيرهم من الذين كانوا يغيرون على أوربا ويعيثون فيها فساداً. وكثيراً ما كانت البابوية تطلق على المسلمين - كما ورد فى المجامع الدينية ومجالس الأمراء - لفظة البربر، ثم تطور مفهومها لهم وأصبحت تطلق عليهم الشرقيين Sarracenes، ثم ارتقى هذا المفهوم عندها وغدت تطلق عليهم العرب، وعندئذ لصقت بهم البابوية كثيراً من الصفات مثل الهمجية والوحشية.

ولم تدرك البابوية أنه لأبد من محاربة أصحاب هذه الديانة الجديدة إلا فى منتصف القرن التاسع الميلادى وأوائل العاشر/ الثالث والرابع الهجريين، فبدأت تحث فى مجالسها الدينية على ضرورة محاربة المسلمين والتكاتف ضدهم خوفاً من خطرهم وتوسعاتهم، وقد أهتم بذلك بابوات القرن التاسع الأواخر مثل يوحنا الثامن كما رأينا، وبابوات القرن الحادى عشر مثل جريجورى السابع (١٠٧٣ - ١٠٨٥م) الذى وجه رسائله إلى إمراء الغرب الأوربى سنة ١٠٧٣م لإعادة فتح أسبانيا وطرد المسلمين منها، وكذلك رسالته إلى ملك أرغون، الذى كان يدعى شانسو (شانجة الثانى) Sancho II عام ١٠٧٤م(١١٧). فضلاً عن ذلك فإن البابوية شنت نوعاً من الحرب الإقتصادية على المسلمين بتحريضها المدن الإيطالية على منع وتحريم التجارة مع المسلمين. وهكذا أخذ مفهوم البابوية للإسلام وإدراكها لخطورة حركة التوسع الإسلامى تتطور بسرعة حتى كانت الدعوة للحملة الصليبية الأولى فى أواخر القرن الحادى عشر للميلاد.

(117) Thalcher (O) and McNeal (E): A Source Book for Medieval History. America, 1905, pp. 142-143. Letter of Gregory VII to the Princes Wish[illegible] to Conquer Spain, 1073. Letter of Gregory VII to Sancho, King of Arog[illegible], 1074.



إيطاليا فى العصور الوسطى

تجارة القمح في مصر في العصر الفاطمي

(٣٥٨ هـ - ٥٦٧ هـ / ٩٦٨ م - ١١٧١م)

دكتور عبد الحميد حسين محمود حمودة

مدرس التاريخ الإسلامى

بكلية التربية بالفيوم - جامعة القاهرة

المقدمة

مصر هى بلد الخيرات والنعم ، بفضل ثرواتها الزراعية الرائعة ، والمتنوعة لسائر المحاصيل ، ولم تغفل الدول التى تعاقبت على حكم مصر منذ أقدم العصور على أهمية الزراعة .

وفى العصر الفاطمى أهتم خلفاء الدولة الفاطمية بالرى وصيانة الجسور وحفر الترع والخلجان، واتبعوا سياسة ترمى إلى العناية بالفلاحين وعدم إرهاقهم بالضرائب ومعاملتهم معاملة تنطوى على العطف والرعاية .

وسأتناول فى هذا البحث محصول القمح الذى يمثل أهم المحاصيل الزراعية فى العصر الفاطمى- ومايزال- فهو بمثابة السلعة الغذائية الضرورية التى لا غنى عنها لأفراد المجتمع كافة.

وكان الفاطميون يدركون أهميته فى استقرار الحياة السياسية آنذاك ونستدل على ذلك، مما ورد فى المصادر الفاطمية من أن نقص القمح سبب حرجا كبيرا للفاطميين فبذلوا قصارى جهدهم للتغلب على توفيره.

وسيلقى هذا البحث الضوء على اهتمام الدولة الفاطمية بزراعة القمح ثم طرق نقله إلى القاهرة حاضرة البلاد، وأسواق بيع القمح فى القاهرة والأقاليم، وأساليب التعامل فيها، والموازين والمكاييل المستخدمة فى كيل القمح، ودور المحتسب الرقابى على التجار، وأشرت الى العوامل المؤثرة فى

الأسعار، وتطور سعر القمح من سنة لأخرى، والسياسة الفاطمية فى مواجهة ارتفاع سعر القمح .

وانهيت البحث بإشارة سريعة الى دور القمح فى علاقات مصر الخارجية .

١ - زراعة القمح :

أدركت الدولة الفاطمية أن نجاح سياستها الزراعية يكمن فى الاهتمام بمشروعات الرى وصيانة الجسور، فأقاموا جسرا من التراب، يمتد من أول الديار المصرية الى آخرها ليسير عليه الناس، وقد اعتمدت الدولة لصيانة ذلك الجسر عشرة آلف دينارا سنويا(١).

وتنقسم الجسور الى قسمين: الجسور السلطانية، وهى الجسور العامة النفع فى حفظ النيل على جميع أنحاء البلاد،ويتولى الإشراف عليها أمراء الولايات، والجسور البلديةالتىيقوم بها أهل القرى والنواحىويلتزمون ببنائها وصيانتها(٢).

ونفذ الخليفة الحاكم بأمر الله مشروعا، كان له الأثر العظيم فى تسهيل الرى، ففى عام ٤٠٤ هـ/ ١٠١٣-١٠١٤م حيث طهر خليج الاسكندرية، بعد أن طم تقريبا خاصة فى قسمه الأول عند خروجه من فرع رشيد، وبلغ جملة ما أنفقته الحكومة فى هذا العمل خمسة عشر ألف دينار .

واستفاد من هذا العمل منطقة كبيرة فى مديرية البحيرة، فكان الخليج يغذى عددا كبيرا من الترع(٣).

---

(١) ناصر خسرو : سفر نامة، تحقيق يحيى الخشاب، القاهرة ١٩٤٥م ص ٤٣.

(٢) ابن مماتى : قوانين الدواوين، تحقيق عزيز سوريال عطية، الجمعية الملكية الزراعية،القاهرة ١٩٤٣م،ص٢٣٢،المقريزى:الخطط،الجزء الأول،بيروت د.ت، ص١٠١.

(٣) المقريزى: الخطط، جـ ١، ص ١٧١. راشد البراوى : حالة مصر الإقتصادية ى عهد الفاطميين، الطبعة الأولى دار النهضة المصرية، القاهرة ١٩٤٨م ص١٠٣.

كما نُفِذَ فى وزارة الأفضل بن بدر(١) الجمالى مشروع مائى عظيم الأهمية بأعمال الشرقية، عندما كان أبو المنجا مشرفا عليها حيث استجاب لطلب الأهالى بحفر خليج ليمد أراضيهم بالمياه(٢).

وفيما يختص بالأرض الصالحة لزراعة القمح، فينمو فى نوعين من الأرض الأول منها الباق وهى تربة تتميز بخصوبتها وتعرف بأرض القرط والقطانى وتصلح لزراعة القمح والكتان(٣)، لأن هذه النباتات تختزن المواد

---

(١) هو السيد الأجل الأفضل سيف الأمام جلال الإسلام شرف الأنام ناصر الدين خليل أمير المؤمنين أبو القاسم شاهنشاة بن بدر الجمالى تولى الوزارة فى ربيع الأول سنة ٤٨٧هـ عندما اشتد مرض والده بسبب طمع أحد رجاله، فى الوزارة عندما مرض سيده ولكنه لم ينجح فى مسعاه وأسندت الوزارة للأفضل واستمر فيها حتى قتل ليلة عيد الفطر سنة ٥١٥هـ

- ابن الصيرفى : الإشارة إلى من نال الوزارة، تحقيق عبد الله مخلص، المعهد الفرنسى للآثار الشرقية، القاهرة ١٩٢٤م .

- محمد حمدى المناوى : الوزارة والوزاره فى العصر الفاطمى، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٠م ص ٢٧١.

(٢) ابن المأمون : أخبار مصر، تحقيق أيمن فؤاد سيد، المعهد الفرنسى للآثار الشرقية القاهرة ١٩٨٣م، ص ١١-١٢.

- ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار، القسم الثانى، المكتب التجارى بيروت د.ت. ص٢٢

- القلقشندى : صبح الأعشى، الجزء الثالث، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩١٩م من ٣٠٠ . - المقريزى : الخطط، حـ١، من ٤٨٧ .

- حسن عبد الرحمن خطاب : الزراعة والمجتمع الريفى فى مصر الإسلامية، القاهرة ١٩٨١م ص ٥٦.

(٣) المخزومى : المنهاج فى علم خراج مصر، تحقيق كلود كاهن، مراجعة يوسف راغب المعهد الفرنسى للآثار الشرقية، القاهرة ١٩٨٦ ص٢. -

الأزوتية فـى جذورها، فعند ترك الجذور فى الأرض تصبح سمادا يغذى التربة ويقويها(١).

وأما النوع الآخر البروبيه، وهى الأرض التى زرعت قمحا أو شعير وهى دون الباق لأن الأرض تضعف بزراعة هذين المحصولين، ويجب أن تزرع قرطا أو قطانيا لتعطىالأرض فترة راحة تصير باقافى السنةالقادمة(٢).

وانتشرت زراعة القمح فى أنحـــاء البلاد كافة من أســـوان جنوبا حتى رشـــيد شمالاً(٣) ، ومن أشـــهر مناطق زراعته بالوجه البحـــرى ســـنهور(٤) ومســـير(٥) وحـــــوف - رمسيس(٦) ومشـــتول

= - ابن مماتى : قوانين الدواوين، ص٢٠١.

- أمينة أحمد إمام الشوربجى : رؤية الرحالة المسلمون للأحوال المالية والاقتصادية لمصر فى العصر الفاطمى رسالة دكتوراة غير منشورة كلية بنات عين شمس ١٩٩٢م ص١٨٠

(١) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية، الطبعة الرابعة، النهضة المصرية، القاهرة ١٩٨١م ص٥٧٥.

(٢) المخزومى : المناهج، ص ٢.

- ابن مماتى : قوانين الدواوين، ص ٢٠٢.

- المقريزى : الخطط، جـ١، ص ١٠٠.

- أمينة أحمد أمام الشوربجى : رؤية الرحالة المسلمون للأحوال المالية والاقتصادية لمصر، ص١٨١.

(٣) جيرار : الحياة الاقتصادية فى القرن الثامن عشر، الجزء الأول، ترجمة زهير الشايب الطبعة الأولى، مكتبة الخانجى، القاهرة د.ت ص ٤٦.

(٤) سنهور السباخ بلدة من أعمال الشرقية-ابن مماتى:قوانين الدواوين، ص ١٤٣.

(٥) مسير بلدة من أعمال الغربية. ابن مماتى : نفس المصدر، ص ١٨٣.

(٦) المخزومى : المنهج، ص ٢.

- ابن مماتى : قوانين الدواوين ، ص ٥٩. - المقريزى : الخطط ، ص ١٠١. =

الطواحين(١).

كما كثرت زراعة القمـــــح فى الصعيد فى الفيوم(٢) وأســـــيوط(٣)

- يوجد بمصر حوفان الشرقى والغربى وهما متصلان، أول الشرقى من جهة الشام وآخر الغربى قرب دمياط، يشتملان على بلدان وقرى كثيرة (ياقوت: معجم البلدان، جـ٢، دار صادر، بيروت (د. ت) ص ٣٢٢ .

(١) المقدسى: أحسن التقاسيم، نشردى خوية، الطبعة الثانية، ليدن ١٩٦٧م ص٩٥

- من كورة الشرقية وهى مدينة حسنة العمارة حسنة الارتفاع بها عدة طواحين تطحن الدقيق الحوارى وتجهز إلى مصر (ياقوت: معجم البلدان، جـ٥ ص١٣٢). وهى تتبع مركز بلبيس وعرفت فى العصر العثمانى باسم مشتول السوق لشهرة هذه القرية بسوقها الكبير بين القرى المجاورة (محمد رمزى: القاموس الجغرافى القسم الثانى جـ١، ص١٠٤) وحاليا أصبحت مركز مستقلا بذاته.

(٢) مجهول: الإستبصار فى عجائب الأمصار، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد، جامعة الإسكندرية ١٩٥٨م ص٩١.

- الحميرى: الروض المعطار، تحقيق إحسان عباس، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٨٤م ص٤٤٥.

- الصفدى: تاريخ الفيوم وبلاده، دار الجيل، بيروت ١٩٧٤م ص٣١.

(٣) الكندى: فضائل مصر، تحقيق إبراهيم العدوى وأخرين، الطبعة الأولى مكتبة وهبة، القاهرة ١٩٧١م ص٥٨.

- ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٦٩م ص٦٢.

- سلام شافعى محمود: أهل الذمة فى مصر، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٢م ص١٣٢.

والواحات(١) ومنفلوط(٢) التى بلغ إنتاجها حوالى مائة وعشرون ألف أردب(٣) ويقول المقريزى(٤) ت٨٤٥هـ/١٤٤١-١٤٤٢م "وكان يزرع بالصعيد القمح على أثر القمح لكثرة الطرح" .

واهتمت الدولة الفاطمية بزراعة القمح، فقد أجرى الوزير الأفضل بن بدر الجمالى تجربة زراعية لنوع جديد من القمح، وحققت تلك التجربة نجاحا كبيراً بالصعيد، وعادت بانتاج وفير حتى بلغ متحصل الاهراء(٥) من محصول القمح ألف ألف أردب(٦) .

أما عن موسم زراعة القمح، فقد كان يزرع فى مدة أولها نصف بابه(٧)

---

(١) الوطواط: مباهج الفكر ومناهج العبر، تحقيق عبد العال الشامى، طبعة أولى الكويت ١٩٨١م ص١٠٤.

- الواحات بلاد منقطعة وراء الوجه القبلى فى الجهة الغربية منه، ولا تعد فى الولايات ولا فى الأعمال وهى بين مصر والإسكندرية والصعيد والنوبة والحبشة وبعضها داخل ببعض وهى تنقسم إلى قسمين واحات داخلة وواحات خارجة لمزيد من التفاصيل انظر المقريزى: الخطط، جـ١، ص٢٣٤ - ١٣٥.

(٢) بلدة بالصعيد فى غربى النيل (ياقوت : معجم البلدان ، جـ٥، ص٢١٤).

(٣) ابن دقماق: الإنتصار لواسطة عقد الأمصار، ص٢٢.

(٤) الخطط، جـ١، ص١٠١. (٥) انظر ص١٧٤من هذا البحث.

(٦) سلام شافعى محمود: أهل الذمة فى مصر، ص١٣٣.

(٧) توارث المصريون نظام الشهور القبطية والرومية فى حياتهم الزراعية، وما زال هذا النظام سائدا حتى الوقت الحاضر وسنشير إلى تلك الشهور.

- الشهور القبطية: توت - بابة - هتور - كيهك - طوبة - أمشير - برمهات - برمودة - بشنس - بؤونة - أبيب - مسرى.

- الشهور الرومية: أيلول - تشرين الأول - تشرين الثانى - كانون الأول - كانون الثانى - شباط - أذار - نيسان - أيار - حزيران - تموز - آب.

ابن مماتى: قوانين الدواوين، ص٢٣٤ حاشية (٧ - ٨).

(أكتوبر) وأخر هاتور(١) وذلك فى العوالى البدرى، ويمتد موسم الزراعة إلى أخر كيهك (ديسمبر-يناير) فى البحاير المتأخرة، وفى شهر طوبة يتم تطهير الحقول من النباتات الطفيلية، ويحصد فى بشنس (مايو) والقمح البدرى فى برمودة(٢).

ويختلف مقدارمايحتاج إليه الفدان للبذور من مكان لآخربحسب حالة التربة فكان يتراوح مابين أردب إلى أربع أو خمس ويبات(٣)،ويحددالمسيو جيرار كميـة البذور المستخدمة فى الصعيد بنصف أردب فى العادة لكل فدان(٤) وبلغ محصول الفدان الواحد من أردبين إلى عشرين أردبا، ويأتى هذا التفاوت فى إنتاج الفدان للاختلاف فى جودة وخصوبة الأرض الزراعية من منطقة إلى أخرى فى مصر، ومقدار ما يصل إليها من مياه النيل واستقرار أحوال البلاد(٥) .

وبعد عملية الحصاد تنقل حزم القمح على ظهور الجمال إلى الجرن لدرس القمح بواسطة النورج لفصل الحب عن سنابله ثم يذرى بالمذراة(٦).

---

(١) ابن مماتى: قوانين الدواوين، ص٢٥٨. المقريزى: الخطط، جـ١، ص١٠١.
- د. حسن عبد الرحمن خطاب: الزراعة والمجتمع الريفى فى مصر الإسلامية، ص٧٠.

(٢) عبد العال الشامى: مصر عند الجغرافيين العرب فيما بين القرنين الثالث والتاسع الهجرى، رسالة ماجستير غير منشورة آداب القاهرة ١٩٧٣م ص٢١٥.

(٣) ابن مماتى: قوانين الدواوين، ص٢٥٨ - ٢٥٩.

(٤) جيرار: الحياة الإقتصادية فى مصر، ص٤٧.

(٥) ابن مماتى: قواونين الدواوين، ص٢٥٩، حسن إبراهيم حسن، تاريخ الدولة الفاطمية، ص٥٧٦.
- أمينة أحمد إمام الشوربجى: رؤية الرحالة المسلمون، ص١٨٩.

(٦) جيرار: الحياة الإقتصادية فى مصر ٤٨.

وفى الأونة الأخيرة فقد النورج أهميته بظهور الميكنة الحديثة التى وفرت الجهد والوقت.

وكان خراج الأرض الزراعية بالصعيد يحصل عينا من الحبوب، وبلغ ثلاثة أرادب لكل فدان، أما فى أسفل الأرض (الوجه البحرى) كان يفرض على كل فدان ثلاثة دنانير ونصف ثم رفعها جوهر إلى سبعة دنانير(١) وخفضها صلاح الدين الأيوبى فى سنة ٥٦٧هـ / ١٧٧١م إلى أردبين ونصف(٢).

ويتضح مما سبق أن الفاطمين وجهوا كل عنايتهم لزيادة الرقعة الزراعية لمحصول القمح.

٢- طرق التجارة :

كان القمح ينقل من الصعيد إلى القاهرة بواسطة السفن النيلية(٣)، وارتبطت القاهرة بالوجه البحرى بعدة طرق بحرية وبرية سهلت نقل القمح وسائر الحاصلات الزراعية منه للقاهرة.

ومن الطرق البحرية خليج الاسكندرية الذى سهل حركة الملاحة بين

---

(١) محمد محمود إدريس: تاريخ الحضارة الإسلامية، مكتبة نهضة الشرق جامعة القاهرة ١٩٨٦م ص٢٤٦ - ٢٤٧.

(٢) ابن مماتى: قوانين الدواوين، ص٢٥٩.

(٣) يطلق على جميع المراكب الصغيرة والكبيرة التى تسير فى نهر النيل وفروعه اسم المراكب النيلية، وتقوم بنقل التجار والمسافرين، ومن تلك المراكب درمونة التى تحمل الغلال أبان زيادة النيل...

- درويش النخيلى: السفن الإسلامية على حروف المعجم، الطبعة الأولى، دار المعارف، الإسكندرية ١٩٧٩م ص٤٦.

القاهرة والاسكندرية(١)، والطريق البحرى من تنيس إلى القاهرة(٢) إلى جانب الطرق البرية كالطريق الذى يربط الفسطاط بالاسكندرية(٣) وبين الفسطاط ودمياط(٤).

٣- الأسواق :

كان اهتمام الفاطميون بتجارة القمح لا يقل عن اهتمامهم بزراعته، فحرصوا على وضع القمح تحت تصرفهم، لأهميته فى استقرار الوضع الداخلى بمصر، ولذلك لم تسمح بكثرة منافذ القمح بأسواق القاهرة، منعا لتلاعب السماسرة والتجار فى افتعال الأزمات التى عانى منها الناس.

وبمجرد أن دخل جوهر الصقلى مصر فى سنة ٣٥٨هـ /٩٦٨-٩٦٩م

---

(١) العمرى: مسالك الأبصار، تحقيق أيمن فؤاد سيد، المعهد الفرنسى للآثار الشرقية، القاهرة ١٩٨٠م، ص٨٩.

كان خليج الإسكندرية أهم الخلجان المتفرعة من فرع رشيد، وكانت بدايته عند أبو نشابة "مركز كوم حمادة" ومنها غلى ترنوط "الطرانة مركز كوم حمادة" ثم إلى مركز بشناى تلا إلى شابور ومنها إلى نقيدة إلى دنشال.... انظر

- ابن حوقل: صورة الأرض، ص١٣٢ - ١٣٣.

- عبد العال الشامى: مصر عند الجغرافيين العرب، ص١٣٧.

(٢) ناصر خسرو: سفر نامة، ص٤٠-٤١ .

(٣) هذا الطريق يربط الإسكندرية بالفسطاط إذا نضب ماء الفيضان ويمر بين المدائن والضياع، فيبدأ من شطنوف إلى سبك العبيد إلى مدوف إلى محلة صرد إلى شبر المنة....انظر ابن حوقل: صورة الأرض، ص١٣١.

(٤) العمرى: التعريف بالمصطلح الشريف، مطبعة العاصمة، القاهرة ١٣١٢هـ ص١٨٩.

- القلقشندى: صبح الأعشى، جـ١٤، ص٣٧٦ - ٣٧٧.

جعل مكانا معلوما لبيع القمح يخضع لرقابة المحتسب سليمان بن عزة[١].

وعندما تصل مراكب شحن القمح من الصعيد والوجه البحرى إلى القاهرة ترسوا فى ساحل مصر والمقس، يقوم الحمالون بنقل القمح من المراكب إلى ميدان للقمح عرف باسم ميدان الغلة موضعه عرف باسم ميدان الغلة موضعه خارج باب القنطرة[٢] يجده من الشرق عدوة الخليج ومن الغرب ساحل المقس[٣].

وكان القمح يباع فى سوق[٤] القماحين، وكان موقع السوق فى العصر الفاطمى مكان الجامع الأقمر الذى بناه المأمون البطائحى للخليفة الآمر بأحكام الله[٥] (٤٩٥-٥٢٤هـ/١١٠١-١١٣٠م).

وكثرت مخازن القمح التى يمتلكها تجار القمح والتى بلغ عددها فى إحصاء سنة ٤١٥هـ /١٠٢٤م حوالى مائة وخمسين مخزنا[٦].

---

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا، الجزء الأول تحقيق جمال الدين الشيال، مطبوعات المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة ١٩٦٧م ص١٦٨ - ١٦٩.

(٢) شيد جوهر الصقلى قنطرة فوق الخليج بظاهر القاهرة، على مقربة من هذا الباب الذى عرف بأسم باب القنطرة، ليتمكن من ردع القرامطة عندما حاولوا دخول القاهرة فى شوال سنة ٣٦٠هـ .

- المقريزى: الخطط، جـ١، ص٣٨٢.

(٣) المقريزى: الخطط، جـ٢، ص١٢٤.

(٤) عرف هذا السوق فى العصر المملوكى باسم سوق الشماعيين لبيع الشموع والفوانيس.

- المقريزى: الخطط جـ٢، ص٩٦.

(٥) نفسه، ص٩٦، الشيخ الأمين عوض الله: أسواق القاهرة منذ العصر الفاطمى حتى نهاية العصر المملوكى رسالة دكتوراه غير منشورقبنات عين شمس١٩٨١م ص٢٤.

(٦) المسبحى: أخبار مصر، ص١٩٣ .

وكانت أسواق تجارة القمح رائجة فى الأقاليم، وعلى الأخص بـالصعيد فمن أهمها الفيوم حيث تشير وثائق البردى العربية إلى قيام بعض المزراعين بتحصيل ثمن القمح مقدمـا من التجـار قبل نضـج المحصـول، وحـرر عليهم التجـار إيصـالات بذلك، ويوجد لدينا إقرار مؤرخ فى شهر المحرم سـنة ٥٢٧هـ/١١٣٢م "لزمـزم بن نصـر من القمـح الطيب السـالم من العلث(١) والطين ثلثة – ثلاثة-أردبا(٢)...".

ويوجد إقرار آخر من الفيوم يدين بدفع قمحا من نفس السنة مـؤرخ فـى شهر ربيع الأول ٥٢٧هـ/١١٣٢م. فى وثائق البردى "أبو العـلاء بن برقـوق المـزارع بالناحيـة المعروفـة بعلهـا مـن القمـح الطيـب أربعـة أرادب بالكيل(٣)...".

وكانت أسواق الأشمونين(٤) تحظى بشهرة واسعة فى تجارة القمح فمن حسن الحظ أنه يوجد لدينا عدة خطابات من القرنين الثالث والرابع الهجريين، يرسلها التجار إلى وكلائهم بالأشمونين لإرسال القمح(٥) وكان وكـلاء التجـار

---

(١) ماخلط فى البر وغيره ممايخرج فيرمى به ابن منظور لسان العرب مادة "علث".

(٢) جروهمان: أوراق البردى العربية، الجزء الثانى ترجمة حسن إبراهيم وآخرين دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٥٥م ص١٢١ -١٢٣.

(٣) نفسه ص١٣٥ – ١٣٧.

(٤) تقع الأشمونين على الضفة الغربية لنهر النيل بالصعيد الأوسط. (أبو الفداء: تقويم البلدان، باريس ١٨٤٠م، ص١١٥) وهى من الأقسام الإدارية القديمة منذ عهد الفراعنة وعرفت باسم أونو وقاعدتـه فمونـو "الأشـمونين" (محـ. رمـزى: القـاموس الجغرافى، القسم الثانى، دار الكتب المصرية القاهرة ١٦٥٨م ص١٧.

(٥) جروهمان: أوراق البردى العربية، الجزء الخامس، ترجمة عبد الحميد حسن وآخرين، دار الكتب المصرية القاهرة١٩٦٨م، ص٣٨،٤٠،٤١،٤٢، ٤٣، ٨٧،١٤١،١٤٢.

بالأشمونين ووكلا أصحاب الاقطاعات يرسلون الغلال إلى دكان السمسار ليتولى بيعه، ويأخذ أجره نظير ذلك.

ففى وثيقة بردى ترجع إلى تلك الفترة الزمنية يقول أحد الوكلاء لسيده "وصل كتابك، ووصل القمح، وقد شلناه إلى دكان السمسار يوم الأربعاء وأنا أرجو أن سهل الله لبيعه أروح عندك بالخير(١)...".

كما توجد وثيقة من البردى من القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى تحتوى على قائمة أسماء، يطلب التجار منهم سرعة التوجه إلى الأشمونيين للتعجيل بشحن القمح(٢) .

وحفلت أسواق منفلوط بكثرة القمح وجودته الذى يصدر إلى مصر(٣). وكان فى أسواق قوص حاضرة الصعيد الأعلى للسماسرة دكاكين يخزنون فيها الغلال انتظارا لبيعها، وكان وكلاء التجار بقوص ووكلاء أصحاب الاقطاعات يرسلون الغلال إلى دكان السمسار ليتولى بيعه ويأخذ أجره نظير ذلك(٤)- كما هو الحال فى الأشمونيين.

ويوجد لدينا أحصاء بالمبالغ التى تسلمها عدة قمحاحين- بائعى القمح- من القرن الثالث الهجرى فى وثيقة من أوراق البردى "أسماء القماحين الذين

---

(١) نفسه، ص٤٢ - ٤٣.

(٢) نفسه، ص٨٧.

(٣) ابن جبير: رحلة ابن جبير، القاهرة د. ت، ص٥٨.

(٤) محمد محمود إدريس: النشاط التجارى والحياة الأجتماعية فى قوص، مجلة المؤرخ المصرى، العدد الحادى عشر يوليو ١٩٩٣م ص٢٤١.

قبضوا الدنانير، الأطروش عشرين دينار، عقبة عشرة دنانير، موسى أربعة دنانير(١)...".

وكان القمح يباع فى أسواق الوجه البحرى، وعلى الأخص فى المناطق التى يكثر إنتاجه فى سنهور مسير وحوف رمسيس ومشتول الطواحين(٢).

٤ - أساليب التعامل فى الأسواق :

كان التعامل التجارى فى أسواق مصر بالدينار الراضى نسبة إلى الخليفة العباسى الراضى بالله(٣)، وعندما دخل القائد جوهر الصقلى مصر سنة ٣٥٨هـ / ٩٦٨م أمر بضرب الدينار المعزى(٤) ونقش فى أحد وجهييه ثلاثة أسطر أحدهما دعا الإمام المعز لتوحيد الأحد الصمد " وتحته سطر فيه" ضرب هذا الدينار بمصر سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة، وفى الوجه الآخر "لا إله إلا الله محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون على أفضل الوصيين ووزير خير المرسلين(٥)".

(١) جروهمان: أوراق البردى العربية، الجزء السادس، تحقيق عبد العزيز الدالى دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٧٤م ص١٣٤ - ١٤٤.

(٢) انظر ص ١٥٢ من البحث.

(٣) المقريزى: النقود الإسلامية، تحقيق محمد السيد على، الطبعة الخامسة، النجف ١٩٦٧م ص.٢٧

Fischel: Jews in the ecomomec and political life New York 1969 p. 59.

(٤) المقريزى: النقود الإسلامية، ص٢٦.

- Miles: Fatimid coing New York 1951 p. 8.

- Fischel: op cit p. 59.

(٥) المقريزى: الخطط، ج١، ص٧٧ - ٧٨.

- انستانس الكرملى: النقود العربية، القاهرة ١٩٣٩م ص٥٨.

- عبد الرحمن فهمى محمد:موسوعة النقود وعلم النميات،القاهرة ١٩٦٥م ص٩٩.

- عبد المنعم ماجد: النقود الفاطمية، مجلة كلية الآداب - جامعة عين شمس المجلد الثانى،مايو١٩٥٣م ص.٢٢٥ Lane-Pool: Ca logue of Arabic.London 1967 p. 158

واستمر ضرب الدنانير الفاطمية حتى عصر الخليفة العاصد آخر خلفاء تلك الدولة، وكان عيار الدنانير يختلف من سنة لأخرى بحسب حالة البلاد الاقتصادية.

كما ضربت الحكومة الفاطمية الدراهم وأتخذتها وحدة للتعامل، وبذلك أصبحت النقود الفضية عملة قانونية(١).

وكان نظام المقايضة من النظم السائدة في أسواق مصر، واستخدمت في بيع القمح فكان كل أردب من القمح يعادل أردبين من الشعير، وأردب ونصف فول وأردب من الحمص ومن الجلبان أردب ونصف(٢).

٥ - موازيين ومكاييل القمح:

لقد ساد في أسواق مصر في العصر الفاطمي، عدة أنواع مختلفة من الموازين والمكاييل وردت في كتب الحسبة والنظم الإسلامية،ولا يتسع المجال لذكرها، ولكنني سأقتصر في هذه الدراسة على المتبع منها في بيع القمح وهي التليس يزن حوالي مائة وخمسين رطلا(٣) بما يعادل (٩٧,٥ كيلو جرام)(٤).

والويبة مكيال مصري، كان يعادل في السابق ١٠ أمنان أو ١٢,١٦٨ كغم قمح(٥)، وكذلك الأردب من المكاييل التي استخدمت في كيل الحبوب

---

(١) محمد محمود إدريس: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص١٨٥.

(٢) ابن مماتي: قوانين الدواوين، ص٣٥٩.

(٣) ابن مماتي: قوانين الدواوين، ص ٣٥٩.

(٤) سامح عبد الرحمن فهمي: المكاييل الإسلامية في صدر الإسلام، مكة المكرمة ١٩٩٠م ص٤٣.

- فالترهنتس: المكاييل والأوزان الإسلامية، ترجمه عن الألمانية كامل العسلي عمان ص٦٠.

(٥) سامح عبد الرحمن فهمي: مرجع سابق، ص٤٣.

فالترهنتس: مرجع سابق، ص٨٠.

ومنها القمح، وأصله من الأرامية أردبا ويقال فيه "أرطبا" ويعتقد أن المصريين القدماء هم الذين وضعوه، ويتألف الأردب من ٦ ويبات أو ١٥٠ كيلو جرام من القمح(١).

أما القدح فهو مكيال مصرى ينقسم إلى قدح صغير وبلغت زنة الويبة حوالى ١٦ قدح صغير والأردب يساوى ٩٦ قدح.

والقدح الكبير بلغت زنة الويبة منه بحوالى ٨ قدح، والأردب يساوى ٤٨ قدح.

وبلغت سعة القدح الصغير حوالى ٢٣٢ درهما من الحبوب يساوى ٧١٦,٨٣ جرام قمح وبالتالى تكون سعة القدح الصغير حوالى ٠,٩٤ لتر، والقدح الكبير ١,٨٨ لتر(٢).

واستخدم الرطل فى وزن القمح ففى سنة ٤٦٤هـ/ ١٠٧١-١٠٧٢م كان يباع كل تسعة أرطال بدينارين نزارى مثقالين أو ثلاثة(٣).

والرطل يختلف وزنه من مكان لآخر بمصر فكان رطل المحلة رطلان وثلث رطل مصرى، ورطل ثغر دمياط رطلان وربع ونصف أوقية وأورد لنا ابن الأخوة عدة أرطال أخرى لأقاليم مصر(٤) المختلفة وكان الرطل المصرى يزن مائة(٥) وأربعون درهما بما يعادل ٤٣٧,٥ جرام(٦).

---

(١) سامح عبد الرحمن فهمى : المرجع السابق ، ص٤١، فالترهنتس : مرجع سابق، ص٥٨ - ٥٩.

(٢) فالترهنتس: مرجع سابق، ص٦٥.

(٣) المقريزى: اتعاظ الحنفا جـ٢، ص٣٠٧.

(٤) ابن الأخوة: معالم القرية، ص١٤٠.

(٥) الشيرزى: نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ص١٦.

(٦) فالترهنتش: مرجع سابق، ص٣١.

٦ - الرقابة على الأسواق :

قام المحتسب(١) بدور كبير فى الرقابة على الأسواق فى العصر الفاطمى وفى مجال بيع القمح أسند جوهر الصقلى فى سنة ٣٥٨هـ/ ٩٦٨-٩٦٩م إلى المحتسب سليمان بن عزة حق الإشراف على بيع القمح(٢).

وكان المحتسب ينهى التجار من احتكار الغلة أو غشها بخلط رديئه بجيده وقديمه بحديثه(٣).

كما أشرف المحتسب على الموازين والمكاييل بالأسواق وأشرنا إلى بعضها يقول الشيرزى(٤)" وينبغى للبائع أن يتخذ الأرطال والأواقى من الحديد وتعير على الصنج الطيارة ولا يتخذها من الحجارة، لأنها تنتحت إذ فرغ بعضها بعضا فتنقص فإذا دعت الحاجة إلى اتخاذها من الحجارة لقصور يده عن اتخاذها من الحديد، أمره المحتسب بتجليدها ثم يختمها المحتسب بعد العيار".

---

(١) الحسبة عى أحدى الوظائف الهامة فى الدولة الإسلامية، والتى وجدت منذ أواخر العصر الأموى فى عهد الخليفة هشام بن عبد الملك من عام (١٠٥ - ١٢٥هـ/ ٧٢٤ - ٧٤٣) على وجه التجديد، وأصبحت ذات شأن كبير فى الولايات الإسلامية بعد ذلك فى مطلع القرن الرابع الهجرى.

لمزيد من التفاصيل انظر

- سهام مصطفى أبو زيد: الحسبة فى مصر الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٨٦م، ص٤١.

(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ١، ص١٦٨ - ١٦٩.

(٣) الشيرزى: نهاية الرتبة فى طلب الحسبة، تحقيق السيد الباز العرينى الطبعة الثانية، دار الثقافة، بيروت ١٩٨١م ص٢١.

(٤) نفسه، ص١٩.

٧ - الأسعار :

لم تستقر أسعار القمح فى أسواق مصر الفاطمية، وكانت تخضع لقاعدة العرض والطلب، فكلما قل المعروض أرتفع السعر، وكلما زاد المعروض أنخفض السعر.

وقبل أن نتعرض لتطور سعر القمح، يجب أن نشير إلى العوامل المؤثرة على سعره:

١ - الرى :

كان منسوب مياه نهر النيل مصدر الرى الوحيد بمصر، من أهم العوامل التى أثرت على سعر القمح، فكان الحد اللازم لرى جميع الأراضى المصرية عند ارتفاع منسوب المياه إلى ستة عشر ذراعا(١)، وهو الحد

---

(١) يشير المسعودى الذى عاش قبيل العصر الفاطمى، ويأخذ عنه كلا من القلقشندى ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م والمقريزى ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م إلى حد الرى والإغراق فحدد الزيادة إلى ستة عشر ذراعا تمام الخراج وخصب البلاد وسبعة عشر ذراعا فهى أتم الزيادة كلها والعامة النفع للبلد كله "وفى ذلك فى أرض مصر الربع،وفى ذلك ضرر لبعض الضياع بسبب الإستبحار وفى حالة إنخفاض منسوب المياه إلى ثلاثة عشر ذراعا أو أربعة عشر، وزيادة نصف ذراع فوق الخمسة عشر سقى الناس بمصر ويشمل الضرر كل البلد بمصر. انظر

المسعودى: مروج الذهب، الجزء الأول، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد، بيروت د. ت ص٣٤٢.

يذكر ابن مماتى ت٦٠٦هـ/ ١٤٠٩م - ١٢١٠م، الذى كان معاصرا للفاطميين، وعمل فى دواوين الدولة الفاطمية، إلى أن تحصيل الخراج مرتبط بزيادة النيل إلى ستة عشر ذراعا.

الأدنى للرى والحد الأقصى ثمان وعشر دراعا(١)، وهما الحدان اللازمان لرى أراضى مصر آنذاك، فإذا نقص عن ذلك أوزاد عن الحد الأقصى كان القحط والوباء(٢).

وهكذا فإن إنخفاض مياه النيل عن حد الوفاء، أوزيادتها عن المنسوب العادى للفيضان خلال العصر الفاطمى، كان يمثل خطرا حتيتيا على الحياة ففى حالة أنخفاض النيل عن حد الوفاء فات أوان الزراعة، وإذ زاد عن الحد العادى أغرق الأراضى الزراعية، وأدى إلى تأخر زراعة المحاصيل ومن بينها القمح عن حد الوفاء اللازم للزراعة يصاب الناس بالقلق والمخاوف من حدوث المجاعة، خشية عدم زراعة المحاصيل الجديدة ولذلك يسارع لتخزين الغلال التى فى حوزتهم، ضمانا لقوت عائلتهم .

وكذلك يقوم التجار بالاسراع فى تخزين الغلال من أجل الحصول على أكبر قدر من الأرباح من خلال رفع السعر ويقل المعروض(٣).

ولذلك نجد أن الخليفة المعز لدين الله يأمر بمنع النداء وأعتبر هذا الأمر سرا من أسرار الدولة، ويحدثنا المقريزى(٤) عمدة مؤرخى مصر الإسلامية بقوله" ومنع المعز من النداء بزيادة النيل وألا يكتب بذلك إلا إليه وإلى جوهر، فلما تم أباح النداء يعنى ست عشر ذراعا".

---

(١) يشير الرحالة الفارسى ناصر خسرو الذى زار مصر فى عهد الخليفة المستنصر بالله سنة ٤٨٧هـ إلى أن ثمانية عشر ذراعا هى الزيادة المعهودة التى يحصل منها السلطان الخراج.

(٢) محمد محمود إدريس: تاريخ الخضارة الإسلامية فى العصر الفاطمى، ص٦٥.

(٣) رأفت محمد البنداوى: أسعار السلع الغذائية والجوامك فى عصر دولة المماليك الجراكسة، الطبعة الأولى، الرياض ١٩٩٠م ص١٩ - ٢٠.

(٤) اتعاظ الحنفا، جـ١ ص١٩١.

٢ - ضعف السلطة المركزية :

كان الاضطراب السياسى(١) فى عصر المستنصر بالله مصحوبا بنتائج سلبية على الحياة الأقتصادية حيث وقع الغلاء الذى أستمر سبع سنين، وأفاضت فى وصفه كتابات مؤرخى مصر الإسلامية ويأتى على رأسهم عمدتهم المقريزى(٢) فيبرز لنا أثر ضعف السلطة المركزية بقوله" وسببه ضعف السلطنة، وأختلال أحوال المملكة، واستيلاء الأمراء على الدولة، واتصال الفتن بين العربان" .

٣ - الفتن والمنازعات بين عناصر الجيش الفاطمى :

نال الإقتصاد المصرى فى عصر القاطمين ضربات موجعة فى الصميم من جراء الفتن والمنازعات بين طوائف الجند، كالذى حدث بين السودانيين والأتراك ووصل الأمر بينهما(٣) إلى نشوب مايشبه الحرب الأهلية - إذ جازلنا استخدام هذا اللفظ - الأمر الذى أشعل ثورة السودانيين، وهى من أخطر الثورات التى أدت إلى خراب البلاد(٤)، حيث عمت الفوضى فى الوجه

---

(١) ولى الخليفة المستنصر مقاليد الحكم وعمره سبع سنوات، ولم يفلح فى التصدى لطموح القواد ورجال البلاط والخصيان الذين أخذوا يحيكون الدسائس والمكائد وساعدهم على ذلك انسياق المستنصر لما يسمعه من شكايات فأكثر من تغيير الوزراء حتى أن الوزراة وليها خلال تسع سنوات أربعون وزيرا بعضهم قضى فى منصبه يوما واحداً. انظر

- أحمد الصاوى: مجاعات مصر الفاطمية، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٨٨م ص٥٠.

(٢) إغاثة الأمة بكشف الغمة، تحقيق محمد مصطفى زيادة وآخرين، القاهرة ١٩٤٠م ص٢٤.

(٣) ابن ميسر: أخبار مصر، جـ٢، ص٢٥. المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٢ ص٢٦٦.

(٤) المقريزى: اتعاظ الحنفا جـ٢، ص٢٦٥.

البحرى(١) وأمتدت إلى الصعيد(٢) وشعر المزارعين بخيبة الأمل لتدهور انتاجهم الزراعى كما قامت طائفة من السودانين بنهب القمح الموجود بالساحل(٣) أما طائفة المغاربة أنزلت خسائر فادحة بالنشاط الزراعى فى سنة ٣٦١هـ/ ٩٧١-٩٩٩٧٢م مما دفع جوهر الصقلى لتعويض الأهلى عن الأضرار التى لحقت بهم(٤).

وقاموا فى سنة ٣٨٧هـ/ ٩٩٨م بالسلب والنهب فى منطقة الريف وسائر أعمال الحوف(٥).

كما دمرت قبيلة لواتة المغربية مظاهر الحياة الزراعية فى منطقة وادى هبيب، ولم تمكن الأهالى من زراعة أراضيهم يقول ابن المقفع(٦)" ولم يقدر أحد يزرع فيه غلة غيرهم، فحرثوا الغلات وأمتنعوا عن بيعها إلى أن عدمت من أرض مصر، وبلغ سعر التليس من القمح ثمانيين دينار"

٤ - سياسة الاحتكار :

استغل بعض رجال القصر والوزراء نفوذهم السياسى، لتحقيق مطامعهم الشخصية فأحتكروا القمح، ووصل الأمر أن أمتلك بعضهم مخازن خاصة حتى فسدت، وبيعت بأبخس الأثمان دون النظر إلى حاجة الرعية، فترتب على ذلك رفع سعر القمح(٧).

---

(١) المسبحى: أخبار مصر، ص١٧٤ - ١٧٥.

(٢) نفسه، ص٢٠٣.

(٣) المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص١٧٠،

(٤) المقريزى: اتعاظ الحنفا،جـ٢، ص١٩٥.

(٥) ابن ظافر: أخبار الدول ، ص٧٤.

(٦) تاريخ بطارقة الكنيسة المصرية، المجلد الثالث، الجزء الثالث، نشر انطوان خاطر، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٧٠م ص٢٠٤.

(٧) المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص١٣٥.

٥ - تلاعب التجار والسماسرة :

لم يكف التجار وسماسرة الغلال عن ممارسة هواياتهم فى التلاعب بكافة الوسائل والحيل بتخزينهم للقمح وقت الأزمات، أو أخفائه عن عمد ليرتفع سعره، لتحقيق أكبر ربح لصالحهم، مثلما حدث فى سنتى ٣٥٨هـ/ ٩٦٨- ٩٦٩م(١) و ٣٥٩هـ / ١٠٠٤-١٠٠٥م(٢).

أما عن التطور الذى شهده سعر القمح، فيعد من أخطر القضايا الأقتصادية التى واجهت الدولة الفاطمية، ولم تفلح جهودها فى وضع نظام دقيق للتغلب على سعره، وإن كنا نلتمس لهم العذر فى ذلك، لأن محن الطبيعة المتمثلة فى مشكلة الرى أنذاك فاقت كل التصورات.

ومن الجدير بالذكر أنه توجد علاقة وطيدة بين سعر القمح ومشتقاته من الدقيق والخبز، فأى ارتفاع لسعر القمح يؤدى إلى ارتفاع معدلات سعر الدقيق والخبز.

وسجل سعر القمح فى عام ٣٥٨هـ /٩٦٨-٩٦٩م لكل تسعة أقداح دينار(٣) بينما أرتفع سعر الخبز ليصل إلى درهمين للرطل(٤).

وفى عصر الخليفة الحاكم بأمر الله(٣٨٦-٤١١هـ/٩٩٦-١٠٢٠م) بلغ سعر التليس فى سنة ٣٨٧هـ/٩٩٧م أربعة دنانير(٥)، وسعر الخبز أربعة أرطال بدرهم(٦).

(١) المقريزى: إغاثة الأمة، ص١٤.

(٢) نفسه، ص١٦.

(٣) المقريزى: إغاثة الأمة بكشف الغمة، ص١٣ - ١٤.

(٤) المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ١ ص١٦٩.

(٥) الدوادارى: كنز الدرر وجامع الغرر، المعروف بـ "الدرة المضيئة فى أخبار الدولة الفاطمية الجزء السادس، تحقيق صلاح الدين المنجد، القاهرة ١٩٦١م ص٢٦١.

(٦) المقريزى: أغاثة الأمة، ص١٣.

وشهدت أسعار القمح أعلى معدلاته فى عهد الخليفة الظاهر(٤١١-٤٢٧هـ) حيث تزايد السعر من فترة لاخرى فى خلال المجاعة التى أجتاحت البلاد فى عهده فيما بين سنتى ٤١٤-٤١٥هـ(١) ففى جمادى الأخر سنة ٤١٤هـ/١٠٢٣م كان يباع التليس بدينار وحملة الدقيق بدينارين. وربع، والخبز أربعة أرطال بدرهم(٢) ثم ارتفع سعر القمح فى نهاية شهر جمادى الأخر من السنة وتضاعف السعر للمرة الثالثة فى ربيع الأول ليصل إلى ثلاثة دنانير(١).

أىأن السعر تضاعف بنسبة٣٠٠٪فىجمادىالأخر عام ٤١٤هـ/ ١٠٢٣م إلى ربيع الأول عام ٤١٥هـ/١٠٢٤-١٠٢٥م أى خلال تسع شهور فقط(٢).

وفى شهر شوال عام ٤١٥هـ/١٠٢٤-١٠٢٥م وصل سعر التليس إلى دينارين وثلثى،وسعر الدقيق درهم لكل رطلين ونصف والخبز رطلين بدرهم.

وفى العشرين من شوال من نفس السنة بيع التليس بثلاثة(٣) دنانير، وقد ظل هذا السعر حتى ١٧ من ذى الحجة سنة ٤١٥هـ ثم قفز سعر القمح فى نهاية ذى الحجة ليباع التليس بأربعة دنانير وثلث(٤).

وفى عصر الخليفة المنتصر بالله (٤٢٧-٤٨٧هـ) سجل سعر القمح أعلى معدلات ارتفاعه فى العصر الفاطمى، وربما فى مصر الإسلامية على الأطلاق(٥) ، فبلغ التليس فى سنتى ٤٤٦-٤٤٧هـ/١٠٥٤-١٠٥٥م ثمانية

---

(١) المسبحى: أخبار مصر، ص٥٤.

(٢) أحمد السيد الصاوى: مجاعات مصر الفاطمية، ص١٥٩.

(٣) المسبحى: أخبار مصر، ص١٨٧ - ١٨٨.

- المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص١٦١ - ١٦٢.

(٤) المسبحى: أخبار مصر، ص٢٠٧ - ٢٠٨.

(٥) أحمد السيد الصاوى: مجاعات مصر الفاطمية، ص١٦٠.

دنانير[١]، أى أنه لكل أثنا عشر كيلو جرام من القمح بدينار. وفى سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٨-١٠٥٩م كان يباع أردب القمح بثمانية دنانيير[٢].

واستمرت أسعار القمح فى التزايد المستمر من وقت لأخر أبان الشدة المستنصرية فيذكر أبو المحاسن[٣] ت ٨٧٤هـ /١٤٦٩-١٤٧٠م أنه فى سنة ٤٥٩هـ / ١٠٦٦- ١٠٦٧م بلغ سعر الأردب ثمانية دنانيير بينما سعر سنة ٤٦١هـ/ ١٠٦٩م مائة دينار للأردب الواحد[٤].

ووصل السعر فى أثناء الشدة المستنصرية إلى مائتى دينار للأردب[٥].

وفى عصر الأمر(٤٩٥-٥٢٤هـ) شهدت الأسعار إنخفاضا ملحوظا عن ذى قبل فبويع كل مائة أردب بمائة وثلاثيين دينار[٦] وأخذ سعر القمح فى الأنخفاض التدريجى فى عصر الخليفة الحافظ (٥٢٤-٥٤٤هـ) فكان يباع الأردب بدينار[٧].

ولم يستمر هذا السعر فى خلافة الفائز(٥٤٩-٥٥٥هـ) بسب إنخفاض منسوب مياه النيل فارتفع سعر الأردب إلى خمسة دنانيير[٨].

---

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا جـ٢، ص٢٦٦.

(٢) الدوادارى: كنز الدرر، جـ٦، ص٣٧١.

(٣) النجوم الزاهرة، جـ٦، ص٧٩.

(٤) نفسه، ص٨٣.

(٥) ابن ميسر: أخبار مصر، الجزء الثانى، تحقيق أيمن فؤاد سيد، المعهد الفرنسى للآثار الشرقية القاهرة ١٩٨٦م ص٥٨.

(٦) المقريزى: إغاثة الأمة، ص٢٧ - ٢٨.

(٧) المقريزى: إتعاظ الحنفا، جـ٣، ص١٣٣.

(٨) المقريزى: إغاثة الأمة، ص٢٨.

٨ - **سياسة الدولة الفاطمية فى مواجهة الأسعار :**

لم تدخر الدولة الفاطمية جهدها فى التصدى بكل عنف لمقاومة ارتفاع سعر القمح، ومن أجل ذلك أتبعت عدة وسائل نوجزها فى الأتى.

١ - **ضرب الطحانيين والتجار:**

عندما دخل جوهر الصقلى مصر سنة ٣٥٨هـ/٩٦٨-٩٦٩م، كانت تعانى من أزمة أقتصادية طاحنة فى نهاية عصر الأخشيد يبين مما أدى إلى ارتفاع سعر القمح، فأمر جوهر بضرب أحد عشر رجلا من الطحانيين، ممن ثبت أدانتهم فى تلك الأزمة، وطيف بهم فى شوارع القاهرة(١).

وكان للتجار والطحانين يدا فى أزمة أختفاء الخبز فطلبِ الستنصر من الوالى أن ينظر فى أمر الرعية،وتوصل إلى مفتعلى الأزمة فأخرج جماعة من المساجين وجب عليهم القتل وألبسهم الملابس التى يرتديها التجار، وأحضر جماعة من التجار والخبازين والطحانين، وأمر بدخول واحد من المساجين على هيئة تاجر فهدده الوالى بقوله(١) "ويلك ما كفاك، أنك خنت السلطان، واستوليت على مال الديوان إلى أخربيت الأعمال ومحقت الغلال فضرب رقبته..." وعندما أستدعى أخر نهض الحاضرون من التجار والخبازين والطحانين وقالوا" أيها الأمير فى بعض ما جرى كفاية ، ونحن نخرج الغلة وندير الطواحين، ونعمر الأسواق، ونرخص الأسعار على الناس ونبيع الخبز رطلا بدرهم...ثم أستقر الرأى على رطلين بدراهم(٢)".

---

(١) المقريزى: إغاثة الأمة، ص١٣ - ١٤.
- المقريزى: اتعاظ الحنفا، جأ١، ص١٦٨ - ١٦٩.
- أيمن فؤاد سيد أحمد: الدولة الفاطمية فى مصر، الطبعة الأولى، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ١٩٩٢م ص٨٠.
(٢) المقريزى: إغاثة الأمة، ص٢٦ - ٢٧.

وفى سنة ٤١٥هـ/ ١٠٢٤م ضرب دواس بن يعقوب المحتسب جماعة من الدقاقين بالدرة ضربا وجيعا وطاف بهم على الجمال فى شوارع مصر، وكان عدتهم أثنين وعشرين رجلا وفيهم مقدمهم الذى يعرف بابن البورى بسبب رفع الأسعار وغشهم للدقيق بخلطه بالطفل المطحون(١).

وفى وزارة رضوان بن(٢) الولخشى أدب جماعة من التجار المحتكريين لرفعهم سعر القمح، ووضعهم تحت المراقبة المباشرة(٣)، حتى انخفض السعر من دينار لكل أردب(٤) إلى تسعين درهما(٥).

٢ - الختم على مخازن الغلال:

كان الختم على مخازن الغلال من الوسائل الرادعة التى اتخذها الفاطميون والتى نفذها متولى الستر مسعود الصقلبى، عندما أسند إليه الخليفة الحاكم بأمر الله، مهمة الحد من ارتفاع سعر القمح فأصدر مسعود أوامره فى عام٣٩٥هـ/ ١٠٠٤ - ١٠٠٥م بجمع أصحاب مخازن الغلال والطحانين، وأمر بعدم بيعها إلا للطحانين(٦).

وفى سنة ٤١٥ هـ/ ١٠٢٤م عندما ارتفع سعر القمح نزل دوس

---

(١) المسبحى: أخبار مصر، ص١٩٦.

(٢) تولى الوزارة فى ١١ من جمادى الأولى سنة ٥٣١ حتى ١٤ من شوال سنة ٥٣٣هـ.

- محمد حمدى المناوى: الوزارة والوزراء فى العصر الفاطمى، ص٢٧٩.

(٣) المقريزى: إغاثة الأمة، ص٢٨.

(٤) المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص١٧٣.

(٥) ابن ميسر: أخبار مصر، جـ٣، ص١١٤.

- المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص١٧٦.

(٦) المقريزى: إغاثة الأمة، ص١٦.

المحتسب برجاله وختم على مائة وخمسين مخزنا للقمح بوضع الطوابع وكتب عليها "إن امتدت يد إنسان إلى بيع شئ منها قطعت"(١).

وحدث أيضا فى خلافة الأمر بأحكـام اللـه (٤٥٩ - ٥٢٤ هـ/ ١١٠١ - ١١٣٠) طلب من القائد عبد الله بن فاتك التخفيف عن الرعية حيـث ارتفـع سعر القمح إلى مائة وثلاثين دينار لكل مائة أردب، فأمر بالحجز على مخازن الغلال وختم عليها وحدة سعر كل مائة أردب بثلاثين ديناراً.

ومن أراد الالتزام مـن التجـار بهذا السـعر المعلـن رُفـع عنـه الحجـز، واستمر الحال على ذلك حتى دخول المحصول الجديد(٢).

٣- إعفاء القمح من المكوس :

أرادت الدولة الفاطمية التخفيف من حدة المجاعة التى حدثت فـى سنة ٤١٥هـ/ ١٠٢٤/ فأمرت برفع المكوس علـى سـائر أصنـاف الغـلات المباعـة بساحل مصر، ولم تلزم النـاس بـالبيع بسـعر محـدد، فكـثر الخـبز وبيـع القمـح بثلاثة دنانير الأربع للتليس(٣).

٤ - تخزين القمح :

كان الفاطميون يخزنون القمح الفائض عن حاجـة الإسـتهلاك المحلـى، للحفاظ عليه من التلف فى منشـآت شـيدت لذلـك، وهـى الأهـراء السـلطانية أو الأهراء المباركة على حد قول بـن ممـاتى(٤)، لخـزن القمـح لوقـت الطـوارئ

---

(١) المسبحى: أخبار مصر، ص١٩٣.

(٢) المسبحى: أخبار مصر، ص١٩٤ - ١٩٥.

- المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص١٦٥.

- المقريزى: إغاثة الأمة، ص٢٧.

(٣) المسبحى: أخبار مصر، ص١٩٦.

(٤) قوانين الدواوين، ص٣٥٠.

الإقتصادية(١)، وهى تقع فى موضع خزانة شمائل بالقرب من الحارة الوزيرية، وفى مناطق مختلفة من أحياء القاهرة وتبلغ سعتها ثلثمائة ألف أردب، يسند العمل فى الأهراء إلى الحماة من الأمراء والمشارفين(٢).

وكانت تلك الأهراء تستقبل الغلال الواردة من منفلوط والحبس الجيوشى(٣) ولقد مر بنيامين التطيلى على تلك الأهراء فى رحلته لمصر فى أواخر العصر الفاطمى(٤).

كما خزن القمح فى الشون حيث يوضع فيها ما يستهلك طول السنة من غلال وأحطاب وتبن(٥)، وكانت هناك شونتان عظيمتان على الطريق المؤدى للفسطاط(٦).

٥ - دور القمح فى علاقات مصر الخارجية :

أما عن دور القمح فى علاقات مصر الخارجية،فكان من أهم صادرات مصر إلى الخلافة عقب الفتح الإسلامى، ولهذا السبب أمر الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه والى مصر عمرو بن العاص بإعادة حفر الخليج المعروف بخليج أمير المؤمنين، لربط النيل بالبحر الأحمر عندما تفاقمت الأزمة الإقتصادية ببلاد الحجاز فى عام الرمادة ٢٣ هـ/ ١٠٤٣ - ١٠٤٤م

---

(١) المقريزى: إغاثة الأمة، ص٢٨، حاشية (٤).

(٢) المقريزى: الخطط، جـ١، ص٤٦٤ - ٤٦٥.

(٣) ابن مماتى: قوانين الدواوين، ص٣٥٠.

يوجد فى البرين الشرقى والغربى ففى الشرقى بهتين والأميرية، وكانت تسجل هذه النواحى بعين وفى الغربى سفط نهيا ووسيم وهذه النواحى حبسها أمير الجيوش بدر الجمالى.

لمزيد من التفاصيل انظر: ابن مماتى: قوانين الدواوين ص٣٣٦ - ٣٣٩، المقريزى: الخطط، جـ١، ص١١٠.

(٤) التطيلى: رحلة بنيامين، ترجمة عزرا حداد، الطبعة الأولى، بغداد ١٩٤٥م ص٧٥.

(٥) المقريزى: إغاثة الأمة، ص٢٨ حاشية (٤).

(٦) القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٣، ص٤٧٥.

ويقول ابن عبد الحكيم(١) "فلما قدمت السفن إلى الحجاز خرج عمر حاجا أو معتمرا فقال سيروا ننظر إلى السفن التى سيرها الله الينا من ارض فرعون حتى أتتنا..".

ولم تتوقف مصر عند مد بلاد الحجاز بما تحتاجه من القمح حتى بعد إنتقال الخلافة إلى الشام ثم إلى بلاد العراق(٢) ففى العصر الفاطمى أحصى الرحالة المقدسى(٣) ت ٣٨٨هـ/ ٩٩٨م - المعاصر للفاطمين - أحمال القمح التى تخرج من قرية مشتول الطواحين بقوله "ولو أحصيت فى وقت من السنة، فإذا هو يبلغ ثلاثة آلاف حمل جمل أسبوعيا كلها حبوب ودقيق..".

وكانت مصر تصدر القمح لبلاد الشام من حين لآخر، ناهيك عن سنوات الشدة ففى سنة ٥١٦ هـ/ ١١٢٢ - ١١٢٣م جهز المأمون أسطولا محملاً بخمسة عشر ألف أردب قمح إلى صور(٤) عندما تفاقمت الأزمة الإقتصادية لمصر فى عصر الخليفة المستنصر بالله أرسل فى سنة ٤٦٦ هـ/ ١٠٥٤ - ١٠٥٥م إلى الإمبراطور البيزنطى قسطنطين التاسع يطلب منه ارسال ٤٠٠,٠٠٠ أردب قمح ولكن الإمبراطور توفى قبل أن تشحن الغلال لمصر، وملكت بعده الإمبراطورة ثيودورا التى أرادت أن تستفيد من تلك الصفقة التجارية، لتحقيق مكاسب سياسية فإشترطت على المستنصر بالله أن يمد لها يد العون عندما تتعرض لمتاعب داخلية ولكن المستنصر بالله تجاهل

---

(١) فتوح مصر والمغرب نشر هنرى ماسيه، ليدن ١٩٢٠م، ص١٦٤ ابن دقماق: الإنتصار، القسم الأول ص١٢٠.

(٢) سيدة إسماعيل كاشف: مصر فى عصر الولاة، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٨٨م، ص١٥٢.

(٣) أحسن التقاسيم، ص١٩٥.

(٤) ابن ميسر: أخبار مصر، جـ٢، ص٩٣.

مطلبها فمنعت إرسال الغلال الأمر الذى أثار حفيظة المستنصر بالله فأرسل حملة عسكرية بقيادة مكين الدولة الحسن بن على بن ملهم، وشدد الحصار على القسطنطينية، ونودى فى سائر بلاد الشام بغزو بلاد الروم(١).

واستوردت مصر القمح من بلاد المغرب فى أوقات القحط والمجاعات(٢)، ويشير المقريزى فى حوادث سنة ٤٢٢ هـ عندما أرتفعت أسعار القمح حملت غلال كثيرة من بلاد الشام(٣).

---

(١) ابن ميسر: أخبار مصر، جـ٢، ص١٣ - ١٤.

- المقريزى: الخطط، جـ١، ص٣٣٥.

- حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية، ص٦١٣.

-راشد البراوى: حالة مصر الإقتصادية فى عهد الفاطميين، ص٢٢٦-٢٢٧.

- أحمد مختار العبادى: فى التاريخ العباسى والفاطمى، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية ١٩٨٢م ص٣٣٣

(٢) حسن خضيرى أحمد حسن: علاقات الفاطميين فى مصر ببلاد المغرب رسالة دكتوراه غير منشورة كلية الآداب جامعة القاهرة ١٩٩٢م ص٩٢.

(٣) المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص١٨٠.

الخاتمـــة

حرص الفاطميون على زراعة القمح، فأجرى الوزير الأفضل بن بدر الجمالى تجربة زراعية لنوع جديد من القمح، وحققت تلك التجربة نجاحا كبيرا بالصعيد.

كما حاولوا التغلب على مشكلة الرى لنهر النيل الخالد بوضع نظم ثابتة، ولم تفلح جهودهم لقسوة الطبيعة، وضعف الإمكانيات المتاحة أنذاك.

وفى الواقع أنه لم تكن فى العصر الفاطمى ثمة سياسية إقتصادية ثابتة حيث شهدت أسعار القمح أرتفاعا من سنة لأخرى، الأمر الذى أدى إلى إنتشار الأوبئة والمجاعات التى ورد ذكرها بإسهاب فى المصادر الفاطمية، وكان كل خليفة يتصدى لمعالجة الأزمة على حدة بمعنى أن الحلول كانت وقتية.

وبعدما كانت مصر تصدر القمح للدولة البيزنطية، أصبحت فى عصر المستنصر بالله تتطلع إلى إستيراده منها حيث أرسل إلى الإمبراطور البيزنطى قسطنتين التاسع يطلب مده بأربعمائة ألف أردب قمح.

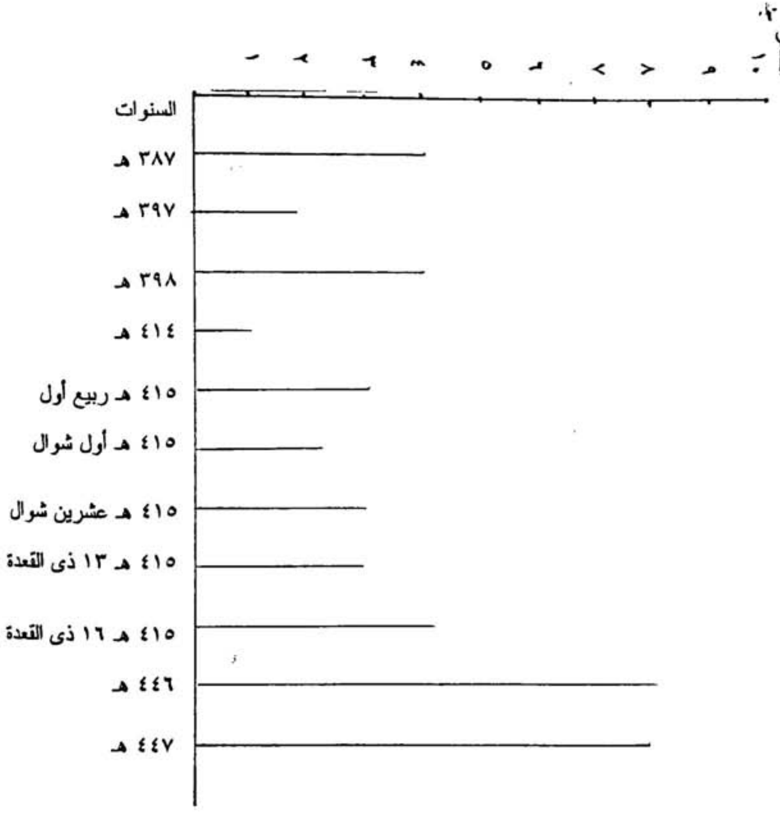
١ - تطور سعر القمح فى العصر الفاطمى

التاريخ	الوزن الوحدة		السعر		المصدر
	الوحدة	بالكيلو جرام	بالدينار	الدرهم	
٣٥٨هـ	٩ أقداح	٦,٤٥١	دينار	١٥	المقريزى: أتعاظ الحنفا حـ١ ص ١٦٨
٣٨٧ هـ	التليس		أربعة دنانير		الدوادارى: كنز الدرر حـ٦ ص ٢٦١
٣٩٧ هـ	التليس		دينار إلا قيراطا		المقريزى: إغاثة الأمة ص ١٦
٣٩٨ هـ	التليس		أربعة دنانير		المقريزى: إغاثة الأمة ص ١٧
٤٢٤ هـ	التليس		دينار		المقريزى: أتعاظ الحنفا حـ٢ ص ١٣٥
شهر ربيع أول	التليس		ثلاثة دنانير		المقريزى: أتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ١٤٢
شهر شوال	التليس		دينارين وثلثين		المسبحى: أخبار مصر ص ١٨٧
عشرين شوال	التليس		ثلاثة دنانير		المسبحى: أخبار مصر ص ١٨٨ المقريزى: أتعاظ الحنفا حـ٢ ص ١٦٢
١٣ ذى القعدة	التليس		ثلاية دنانير		المسبحى: أخبار مصر ص ١٩٢ المقريزى: أتعاظ الحنفا حـ٢ ص ١٦٤

التاريخ	الوزن الوحدة		السعر		المصدر
	الوحدة	بالكيلو جرام	بالدينار	الدرهم	
١٤ ذى القعدة	التليس		ثلاثة دنانير إلا ربع		المسبحى : أخبار مصر ص ١٩٦
١٦ ذى القعدة	التليس		أربع دنانير وثلث		المسبحى : أخبار مصر ص ٢٠٧
٤٤٦هـ	التليس		٨ دنانير		المقريزى : اتعاظ جـ٢ ص ٢٦٦ الإسحاقى : أخبار الدول ص١١٧
٤٤٧هـ	التليس		٨ دنانير		المقريزى : اتعاظ جـ٢ ص ٢٤٠
٤٥٠هـ	الأردب		ثمان دنانير عين وجزية		الدوادارى : كنز الدرر جـ٦ ص٣٧٠
٤٥٩هـ	الأردب		٨٠ دينار		أبو المحاسن : النجوم جـ٥ ص ٧٩

التاريخ	الوزن الوحدة		السعر		المصدر
	الوحدة	بالكيلو جرام	بالدينار	الدرهم	
٤٦١هـ	الأردب		١٠٠ دينار		أبو المحاسن : النجوم جـ٦ ص ٨٣
٤٦٢هـ	الأردب		مائتى دينار		النويرى : نهاية الأرب جـ٢٨ ص ٢٣٤
٤٦٤هـ	٩ أرطال		دينارين نزارى متقالين ثم ثلاثة		المقريزى : اتعاظ جـ٢ ص ٣٠٧
الشدة	الأردب		مائتى دينار		ابن اليسر : أخبار مصر جـ٢ ص ٥٨
الأمر بالله	مائة أردب		مائةوثلاثةدنانير		المقريزى : اغاثة الأمة ص٢٧
	مائة أردب		ثلاثين دينار		المقريزى : اغثة الأمة ص٢٧
الفائز	الأردب		خمسة دنانير		المقريزى : اغاثة الأمة ص٢٨
٥٢٤هـ	الأردب		دينار		اتعاظ الحنفا جـ٣ ص ٢٨
٥٣٦هـ	الأردب		تسعين درهما		ابن ميسر : أخبار مصر ص١٣٤
٥٤٩هـ	الأردب		٥ دنانير		المقريزى : اتعاظ جـ٣ ص ٢٧٦ ساويرس : تاريخ بطاركة جـ٣ ص٣، ص٤٦

(٢) رسم بيانى يوضح سعر التليس من القمح فى السنوات المختلفة



(٣) بيانات خاصة بفيضان النيل فى العصر الفاطمى(١)

١ - السنوات التى وفى النيل فيها ومع ذلك حدث غلاء :

٣٥٨	٣٥٩	٣٦٠	٣٨٧	٣٩٧
٣٩٨	٤٤٤	٤٤٦		

٢ - سنوات لم يوف النيل فيها ولم يذكر المؤرخون أن غلاء حدث فيها:

٣٦٦	٣٦٧	٤٧٥	٤٨٤

٣ - السنوات التى امتازت بالغلاء والقحط والوباء بسبب الشراقى :

٤٤٨	٤٥١	٤٥٢	٤٥٣	٤٥٤
٤٥٥	٤٥٦	٤٥٨	٤٦٠	٤٦١
٤٦٢	٤٦٣	٤٦٤	٤٦٥	٤٦٦
٤٦٧				

٤ - سنون حصل فيها الوفاء ثم هبط النيل سريعا فترتب على ذلك الغلاء :

٥٠١	٥٠٢	٥١٧	٥١٨

٥ - سنون حصل فيها غرق نجم عنه التلف :

٤٨١	٥٥٩

٦ - سنون نوه المؤرخون بخصبها :

٣٦١	٣٦٢	٣٦٣	٤١٤

---

(١) راشد البراوى: حالة مصر الاقتصادية، ص ٣٧٠ .

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر العربية

١ - ابن الأخوة: (محمد بن محمد بن أحمد القرشى ت ٧٢٩ هـ) "معالم القربة فى أحكام الحسبة" تحقيق محمد محمود شعبان وآخرين الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٦م.

٢ - الإسحاقى: (محمد بن عبد المعطى بن أبى الفتح بن أحمد بن عبد الغنى بن على) "أخبار الأول فيمن تصرف من أرباب الدول" القاهرة ١٣٠٠هـ.

٣ - التطيلى: (بنيامين بن يونة الأندلسى ت ٥٦٩هـ) "رحلة بنيامين" ترجمة غرار حداد، الطبعة الأولى، بغداد ١٩٤٥م.

٤ - ابن جبير: (أبو الحسن بن أحمد ت ٦١٤ هـ) "رحلة ابن جبير" القاهرة د. ت.

٥ - جروهمان: "أوراق البردى العربية بدار الكتب المصرية" الأجزاء، الجزء الثانى ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرين، القاهرة ١٩٥٥م الجزء الخامس، ترجمة عبد الحميد حسن وآخرين، القاهرة ١٩٦٨م الجزء السادس، ترجمة عبد العزيز الدالى، القاهرة ١٩٧٤م.

٦ - الحميرى: (أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم ت ٩٠٠ هـ) " الروض المعطار فى خبر الأقطار" تحقيق إحسان عباس، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٨٤م.

٧ - ابن حوقل: (أبو القاسم أحمد النصيبى توفى فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى) "صورة الأرض" بيروت ١٩٧٩م.

٨ - ابن دقماق: (إبراهيم بن محمد بن أيدمر ٨٠٩ هـ) "الإنتصار لواسطة عقد الأمصار" القسم الثانى، بيروت د. ت.

٩ - الدوادارى: (أبو بكر بن عبد الله بن أيبك) "كنز الدرر وجامع الغرر" الجزء السادس "الدرة المضيئة فى أخبار الدولة الفاطمية" تحقيق صلاح الدين المنجد، القاهرة ١٩٧١م.

١٠- ساويرس بن المقفع: (أسقف الأشمونيين توفى فى أواخر القرن الرابع الهجرى) "تاريخ بطاركة الكنيسة" الجزء الثالث المجلد الثالث، نشر أنطوان خاطر، الطبعة الثانية القاهرة ١٩٧٠م.

١١- الشيرزى: (عبد الرحمن بن نصر ت ٥٨٩ هـ) "نهاية الرتبة فى طلب الحسبة" تحقيق السيد الباز العرينى الطبعة الثانية، بيروت ١٩٨١م.

١٢- الصفدى: (أبو عثمان النابلسى) "تاريخ الفيوم وبلاده" دار الجيل، بيروت ١٩٧٤م.

١٣- ابن الصيرفى: (أبى القاسم على بن منجب بن سليمان) "الإشارة إلى من نال الوزارة" تحقيق عبد الله مخلص، المعهد الفرنسى للآثار الشرقية، القاهرة ١٩٢٤م.

١٤- ابن ظافر: (جمال الدين بن على) "أخبار الدول المنقطعة" تعقيب أندريه فريه المعهد الفرنسى للآثار الشرقية، القاهرة ١٩٧٢م.

١٥- ابن ظهيرة: (جمال الدين محمد بن محمد نور الدين بن أبى بكر ت ٩٨٦ هـ) "الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة" تحقيق مصطفى السقا وآخرين، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٦٩م.

١٦- ابن عبد الحكيم: (أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله ت ٢٥٧ هـ) "فتوح مصر والمغرب" نشر هنرى ماسيه، ليدن ١٩٢٠م.

١- العمرى: (ابن فضل الله شهاب الدين أبو العباس بن أحمد بن يحيى ت ٧٤٩ هـ) "مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار" تحقيق أيمن فؤاد سيد أحمد المعهد الفرنسى للأثار الشرقية، القاهرة ١٩٨٠م.

١٨- ....: "التعريف بالمصطلح الشريف" مطبعة العاصمة، القاهرة ١٣١٢هـ.

١٩- أبو الفداء: (عماد الدين إسماعيل بن عمر ت٧٣٢هـ) "تقويم البلدان" باريس ١٨٤٠م.

٢٠- القلقشندى: (شهاب الدين أبى العباس أحمد بن على ت ٨٢١هـ) "صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء" ١٤ جزء، القاهرة ١٩١٩م.

٢١- الكندى: (أبو عمر بن محمد بن يوسف المتوفى بعد ٣٥٥هـ) "فضائل مصر" تحقيق إبراهيم العدوى وآخرين الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٧١م.

٢٢- ابن المأمون: (جمال الدين أبو على موسى بن البطائحى ت ٥٨٨هـ) "أخبار مصر" تحقيق أيمن فؤاد سيد أحمد، المعهد الفرنسى للأثار الشرقية القاهرة ١٩٨٣م.

٢٣- أبو المحاسن: (جمال الدين يوسف بن تغرى بردى الأتابكى ت ٨٧٤هـ) "النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة" الجزء السادس، القاهرة ١٩٧١م.

٢٤- مجهول : "الاستبصار فى عجائب الأمصار" تحقيق سعد زغلول عبد الحميد جامعة الإسكندرية ١٩٥٨م.

٢٥- المخزومى: (أبو الحسن على بن عثمان ت ٥٨٥هـ) "المنتقى من كتاب المناهج فى علم خراج مصر" تحقيق كلود كاهين، مراجعة يوسف راغب، المعهد الفرنسى للأثار الشرقية القاهرة ١٩٨٦م.

٢٦- المسبحى: (محمد بن عبد الله ت ٤٢٠هـ) "أخبار مصر" الجزء الأربعون، تحقيق وليم ج بيلورد الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٠م.

٢٧- المسعودى: (أبو الحسن على بن الحسن ٣٤٦هـ) "مروج الذهب ومعادن الجواهر" الجزء الأول تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد، بيروت.

٢٨- المقدسى: (شمس الدين أبو عبد الله محمد ت ٣٨٨هـ) "أحسن التقاسيم لمعرفة الأقاليم" نشر دى خوية الطبعة الثانية، ليدن ١٩٦٧م.

٢٩- المقريزى: (تقى الدين أبو العباس أحمد بن على ت ٨٤٥هـ) "إغاثة الأمة بكشف الغمة" تحقيق محمد مصطفى زيادة وآخرين دار الوليد، القاهرة ١٩٤٠م.

٣٠- ....: "المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط" الجزء الأول، بيروت د. ت.

٣١- ....: "اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء" الجزء الأول، تحقيق جمال الدين الشيال. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة ١٩٦٧م. الجزء الثانى والثالث، تحقيق محمد أحمد حلمى المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة ١٩٧١م.

٣٢- ....: النقود الإسلامية، تحقيق محمد السيد على، الطبعة الخامسة، النجف ١٩٦٧م.

٣٣- ابن مماتى: (للأسد الخطير شرف الدين ابى المكارم ابى سعيد ت ٦٠٦هـ) "قوانين الدواوين" تحقيق عزيز سوريال عطية، منشورات الجمعية الملكية الزراعية، القاهرة ١٩٤٣م.

٣٤- ابن منظور: (أبى الفضل جمال الدين محمد بن مكرمة بن منظور الأفريقى المصرى ت ٧١١هـ) "لسان العرب" ١٥ جزء تعليق على شيرى الطبعة الأولى بيروت ١٩٨٨م.

٣٥- ابن ميسر: (محمد بن على بن يوسف بن جلب ت ٦٧٧هـ) "أخبار مصر" الجزء الثانى، تحقيق أيمن فؤاد سيد أحمد المعهد الفرنسى للآثار الشرقية، القاهرة ١٩٨٦م.

٣٦- ناصر خسرو: (علوى الفارسى ت ٤٧٦هـ) " سفر نامة" تحقيق يحيى الخشاب، القاهرة ١٩٤٥م.

٣٧- النويرى: (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ت ٧٣٢هـ) "نهاية الأرب فى فنون الأدب" الجزء الثامن والعشرين، تحقيق محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٢م.

٣٨- الوطواط: (جمال الدين محمد بن إبراهيم بن يحيى الوراقى الكتبى ت ٧١٨هـ) "مناهج الفكر ومباهج العبر" تحقيق عبد العال الشامى الطبعة الأولى، الكويت ١٩٨١م.

٣٩- ياقوت: شهاب الدين أبو عبد الله الرومى ت ٦٢٦هـ) "معجم البلدان" ٥أجزاء. دار صادر، بيروت د.ت.

ثانيا: المراجع العربية الحديثة

١ - أحمد السيد الصاوى: (دكتور) مجاعات مصر الفاطمية، الطبعة الأولى، دار التضامن، بيروت ١٩٨٨م.

٢ - أحمد مختار العبادى: (دكتور) فى التاريخ العباسى والفاطمى، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية١٩٨٨م.

٣ - أنستانس الكرملى: "النقود العربية" القاهرة ١٩٣٩م.

٤ - أيمن فؤاد سيد أحمد: (دكتور) الدولة الفاطمية فى مصر، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٩٢م.

٥ - جيرار ب. س: الحياة الإقتصادية في مصر في القرن الثامن عشر، الجزء الأول، ترجمة زهير الشايب، الطبعة الأولى مكتبة الخانجى، القاهرة د.ت.

٦ - حسن إبراهيم حسن: (دكتور) "تاريخ الدولة الفاطمية" الطبعة الرابعة، النهضة المصرية القاهرة ١٩٨١م.

٧ - حسن عبد الرحمن خطاب: الزراعة فى المجتمع الريفى فى مصر الإسلامية، القاهرة ١٩٨١م.

٨ - درويش النخيلى: (دكتور) "السفن الإسلامية على حروف المعجم" الطبعة الثانية، الإسكندرية ١٩٧٩م.

٩ - راشد البراوى: (دكتور) "حالة مصر الإقتصادية فى عهد الفاطميين" الطبعة الأولى، دار النهضة المصرية القاهرة ١٩٤٨م.

١٠- رأفت محمد النبراوى: (دكتور) "أسعار السلع الغذائية والجوامك فى عصر دولة المماليك الجراكسة" الطبعة الأولى، الرياض ١٩٩٠م.

١١- سامح عبد الرحمن فهمى: (دكتور) "المكاييل الإسلامية فى صدر الإسلام" مكة المكرمة ١٩٨١م.

١٢- سلام شافعى محمود: (دكتور) "أهل الذمة فى مصر فى العصرين الفاطمى الثانى والأيوبى" الطبعة الأولى، دار المعارف القاهرة.

١٣- سهام مصطفى أبو زيد: الحسبة فى مصر الإسلامية ، الهيئة العامة المصرية للكتاب القاهرة ١٩٨٦م.

١٤- سيدة إسماعيل كاشف: (دكتورة) "مصر فى عصر الولاة" الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.

١٥- عبد الرحمن فهمى محمد: (دكتور) "موسوعة النقود وعلم النميات" القاهرة ١٩٦٥م.

١٦- فالترهنتس: المكاييل والأوزان الإسلامية، ترجمة عن الألمان كامل العسلى، الطبعة الثالثة، عمان.

١٧- محمد حمدى المناوى: (دكتور) "الوزارة والوزراء فى العصر الفاطمى، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٠م.

١٨- محمد رمزى: القاموس الجغرافى، القسم الثانى، الجزء الثالث، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٥٨م.

١٩- محمد محمود إدريس: (دكتور) "الحضارة الإسلامية فى العصر الفاطمى" مكتبة نهضة الشرق، جامعة القاهرة ١٩٨٦م.

٢٠- محمود محمد الحويرى: (دكتور) "أسوان فى العصر الواسطى" الطبعة الأولى، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٠م.

ثالثا: الرسائل العلمية والدوريات :

١ - الشيخ الأمين عوض الله: أسواق القاهرة منذ العصر الفاطمى حتى نهاية عصر المماليك رسالة دكتوراه غير منشورة كلية بنات عين شمس ١٩٨١م.

٢ - أمينة أحمد إمام الشوربجى: رؤية الرحالة المسلمون للأحوال المالية والإقتصادية لمصر فى العصر الفاطمى، رسالة دكتوراه غير منشورة كلية بنات عين شمس ١٩٩٢م.

٣ - حسن خضيرى أحمد حسن: علاقات الفاطمين فى مصر بدول المغرب رسالة دكتوراه غير منشورة كلية الآداب - جامعة القاهرة ١٩٩٢م.

٤ - عبد العال الشامى: "مصر عند الجغرافيين العرب فيما بين القرنين الثالث والتاسع الهجرى، رسالة ماجستير غير منشورة آداب القاهرة ١٩٧٣م.

٥ - عبد المنعم مـاجد: النقـود الفاطميـة، مجلـة كليـة الآداب - جامعـة عيـن شمس، المجلد الثانى مايو ١٩٥٣م.

٦ - محمد محمود إدريس: النشاط التجـارى والحيـاة الإجتماعيـة فـى قـوص فـى القرنيـن الثـالث والرابـع الهجرييـن، مقـال منشـور بمجلـة المـؤرخ المصرى العدد الحادى عشر يوليو ١٩٩٣م.

رابعا: المراجع الأوربية الحديثة :

1. Fischeli w.: Jews in the Economic and Political life of Mediaeval Islam New York 1957.
2. Miles G. C. : Fatimid Coing in the Collections of University Museum New York 1951.
3. Stanley Lane-Poople : Catalogue of Oriental Coing in the British Museum Volsiv. IX London 1897.

الموالى والرقيق فى نجد والحجاز
فى العصر الأموى

د. محمد رضا عبد العال محمد
كلية التربية بالعريش – جامعة قناة السويس

المقـــدمة

يتناول هذا البحث دراسة الموالى والرقيق فى الحجاز ونجد فى العصر الأموى وتأثيرهم ومشاركتهم فى الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية والفنية وما نتج عن ذلك من تغير اجتماعى .

وقد شارك الموالى فى الحياة السياسية وتمتعوا بنفس حقوق الأحرار المدنية. وشاركوا فى معركة الحرة ، وانضم الموالى فى نجد إلى حركة الخوارج فى اليمامة ضد الحكم الأموى. ووصل بعضهم إلى مركز القيادة، وشاركوا فى زراعة المزارع والضياع، واشتغلوا بالصناعة كصناعة المنسوجات وبالتجارة، وزاولوا الحرف المختلفة . وناقش الباحث موضوع احتقار العرب للموالى وأثبت أنه مبالغ فيه . واشتهر منهم المغنين – الذين اقتبسوا موسيقى الفرس والروم وغناءهم – وأصحاب النوادر الفكاهية ، واهتم بعضهم بالعلوم الدينية وبمجالس الأدب. أما الرقيق فكان بإمكان أن يصبحوا أحرارا بموجب اتفاقية بينهم وبين أسيادهم ، أو عن طريق اعتاقهم تقربا إلى الله . وأوضح الباحث دور الرقيق فى الزراعة والصناعة والتجارة وأثرهم الكبير فى حدوث التغير الاجتماعى بما جلبوه معهم من عادات وتقاليد. ونبغ بعض الجوارى فى الغناء ، وشاركهم ساداتهم فى هواية الصيد، وأصبح بعضهم أحرارا وأمهات الأولاد فلا يجوز بيعهن، كما أن أولاد الإماء كانوا يصبحون أحرارا، واشتهروا بالعلم والفقه.

أولا : الموالى :

يمكن تقسيم الموالى إلى قسمين، القسم الأول هم موالى العتاقة، وكانوا فى الأصل من الرقيق، إلا أن سادتهم أعتقوهم لسبب من الأسباب الدينية أو الإقتصادية،(١) غير أنهم ظلوا بعد العتق مرتبطين بالولاء لعشيرتهم، يحملون اسم العشيرة هم وأولادهم من بعدهم، وقد أشتغل هؤلاء بعد أعتاقهم بمختلف الأعمال الإقتصادية.

أما القسم الثانى من الموالى فكانوا من المسلمين الأحرار، الذين قدموا إلى نجد والحجاز لأسباب دينية أو اقتصادية كالتجارة والصناعة والزراعة، وأرادوا أن يكون لهم مكان فى المخطط الإجتماعى ولما كان المجتمع العربى يعتمد على النسب، ويعتبر القبيلة الوحدة الأولى للمجتمع، لذلك دخل الموالى فى محالفة القبائل العربية فأصبحوا موالى لقاء منافع متبادلة(٢) مثل اسهام الموالى فى دفع الديات(٣)، ووقوفهم فى صفوف قبائلهم ذائدين عنها كأبنائها الأصليين، فكان موالى القبيلة ينسبون اليها ويقاتلون مع أسيادهم(٤)، كما كانوا يشاركون فى كل الأمور العامة للقبيلة أو العشيرة، يقابل ذلك حماية القبائل العربية لهم، ومساعدتهم عند الحاجة. وكانت هناك التزمات متبادلة بين السيد ومولاه، فلكل منهما أن يرث الآخر إذا لم يكن له وريث.(٥)

---

(١) انظر ما كتب عن الرقيق فى هذا البحث.

(٢) ابن خلدون، المقدمة، ص١١٩، الدورى، مقدمة فى التاريخ الإقتصادى العربى، ص٤٠.

(٣) مالك، المدونة، جـ١٦، ص٣٩٧، ابن خلدون، المقدمة، ص ١١٩.

(٤) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، جـ٥ ، ص٢٦٧ ، جـ٤ قسم٢ ، ص ٢٥ ، ٢٦، الأزرقى، أخبار مكة، ص١٣٩.

(٥) ابن سعد، الطبقات، جـ٦، ص١٥٦.

وكان الموالى يتمتعون بنفس الحقوق المدنية التى يتمتع بها الأحرار من المسلمين، فلهم مزاولة المهن والصناعات التى يرغبون، فكان بينهم من يشتغل بالتجارة والصيرفة أو العلم، كما كان بينهم الكتاب والفقهاء والملاك بل كان باستطاعتهم إقتناء العبيد الذين يساعدونهم على مزاولة أعمالهم.(١)

فيرى الأمام مالك أن دهورا مولى سعد بن بكر أعتق ثلث رقيق له، وهم قريب من العشرين.(٢)

وتعود كثرة الموالى فى الحجاز ونجد فى العصر الأموى، إلى الرقيق الذى تدفق على الحجاز أثناء الفتوحات الإسلامية، هذا فضلا عن أرتفاع القدرة الشرائية لدى أهل الحجاز، وحاجتهم إلى استخدام الرقيق فى أعمالهم الخاصة، لذلك هرع تجار الرقيق إلى الحجاز لبيع رقيقهم مما أدى إلى كثرته(٣)، ولما كان بعض السكان يعتقون رقيقهم لأسباب دينية أو إقتصادية لذلك كثر الموالى، فيروى عن عبد الله بن عمر أنه لم يمت حتى أعتق ألف مملوك(٤). ومن ناحية أخرى فأن إزدهار الحياة الإقتصادية فى الحجاز جعلت الأعاجم يقدمون إليها لمزاولة التجارة، فيروى المقدس أن أغلب سكان جدة من الفرس(٥).

---

(١) مالك، المدونة، جـ١٥، ص٣، الأصفهانى، الأغانى، جـ١، ص٤١.

(٢) مالك، المصدر السابق،ص٣.

(٣) مالك، المدونة، جـ١٠، ص٢٧١، وانظر العوامل التى أدت إلى كثرة الرقيق فى نهاية هذا البحث.

(٤) ابن كثير،البداية والنهاية، جـ٨، ص٥، الكتانى، التراتيب الإدارية، جـ١، ص١٩.

(٥) المقدسى، أحسن التقاسيم، ص٧٩،٩٦، ويروى ابن المجاور أن سلمان الفرسى رضى الله عنه لما أسلم، تسامعت أهله بالخبر فقصدوه وأسلموا على يد رسول الله (ص) وسكنوا جدة لأنهم كانوا تجارا. انظر: ابن المجاور، تاريخ المستبصر، ص٤٢. ويذكر الحيرى أن جدة من بنيان الفرس. انظر: الروض المعطار :ص١٥٧.

لقد شارك الموالى فى الحياة السياسية فى نجد والحجاز، ففى سنة ٦٣هـ/٦٨٢م، اشتراك الموالى فى معركة الحرة بقيادة يزيد بن هرمز،(١) فيروى السمهودى نقلا عن الواقدى أن يزيدا بن هرمز كان "معه الدهم من الموالى، وهو يحمل رايتهم، وهو أميرهم، وقد صف أصحابه كراديس بعضها خلف بعض"(٢).وقد قتل فى هذه المعركة عدد كبير منهم، وخلال حركة عبدالله بن الزبير شارك الموالى فى الحروب التى بينه وبين الأمويين، فلقد حارب موالى ابن الزبير معه ضد الأمويين(٣)، ويدلنا على إشتراك الموالى الآخرين مع ابن الزبير ما رواه البلاذرى من أن الشاعر أبا حرة مولى أسلم قال : " يا ابن الزبير ما أرانا سفكنا الدماء وقاتلنا الناس إلا لتملك " وأنشأ يقول :

إن الموالى أمست وهى عاتبة   على الخليفة تشكو الجوع والحربا(٤)

أما موالى بنى أمية فحاربوا مع الأمويين ضد ابن الزبير، فيروى البلاذرى أن عمر بن سعد الأشدق أرسل جيشا لمحاربة ابن الزبير فيه قوم من موالى بنى أمية(٥)، كما يروى أيضا أن سعد مولى عتبة بن أبى سفيان تحصن فى الطائف ومعه خمسون رجلا، فاستنزلهم ابن الزبير وضرب أعناقهم(٦)، ويدلنا على اشتراك الموالى فى الحروب التى كانت قائمة فى

(١) ابن سعد، الطبقات، جـ٥، ص٢٠٩، البلاذرى، أنساب الأشراف، جـ٤، قسم٢، ص٣٥، السمهودى، وفاء الوفاء، جـ٣، ص٨٤٧.

(٢) نفس المصدر،ص٨٤٧.

(٣) الأرزقى، أخبار مكة، ص١٣٩، الفاكهى، تاريخ، ص٢١، البلاذرى، أنساب الأشراف، جـ٤ قسم ٢، ص٢٦، ابن عبد البر، الأستيعاب جـ٣، ص٩٠٩، ابن كثير، البداية والنهاية، جـ٨،ص٣٤٣.

(٤) البلاذرى، المصدر السابق، ص٥٨.

(٥) نفس المصدر،ص٢٥.

(٦) نفس المصدر ، ص٣٠.

العصر الأموى، ما رواه الطبرى نقلا عن أبى مخنف من أن المختار بن أبى عبيد بعث جيشا يقدر عدده بثلاثة آلاف رجل لقتال ابن الزبير، كان أكثرهم من الموالى وليس فيهم من العرب إلا سبعمائه رجل(١)، وفى سنة ١٢٩هـ/٧٤٦م، شارك الموالى أهل المدينة فى معركة قديد، ضد الخوارج بقيادة أبى حمزة الشارى، فقتل عدد كبير منهم.(٢)

أما فى منطقة نجد فقد انضم الموالى إلى حركة الخوارج فى اليمامة ضد الحكم الأموى، ووصل بعضهم إلى مركز القيادة كأبى طالوت سالم بن مطر مولى بنى زمان(٣)، من بكر بن وائل، الذى قاد الحركة فى اليمامة فى مراحلها الأولى(٤)، قبل مبايعة نجدة بن عامر الحنفى، الذى بسط نفوذه على معظم أجزاء نجد، وبعد خلع نجدة بن عامر الحنفى وقع إختيار الخوارج على أحد الموالى وهو ثابت التمار، ليتولى أمرهم وليقود حركتهم(٥)، إلا أن بعض الموالى وقف إلى جانب والى اليمامة إبراهيم بن عربى ضد بقية الخوارج(٦)، وخاصة بعد إنتقال مركز الحركة من نجد إلى البحرين(٧).

---

(١) الطبرى، تارخ الرسل والمملوك،ج٦، ص٧٣.

(٢) البلاذرى ، أنساب الأشراف، جـ٨، ص٣٧٨، الصفهانى، الأغانى، جـ٢٣، ص٢٣٤، مجهول المؤلف، العيون والحدائق، ص١٦٩.

(٣) البلاذرى، أنساب الأشراف،جـ٤، قسم٢،ص٩٥.

(٤) ابن الأثير، الكامل فى التارخ، جـ٣، ص٣٥٢، وانظر: النويرى، نهاية الأرب، جـ١٩، لوحة١٤.

(٥) البلاذرى، أنساب الأشراف، جـ٧، ص٧٦، فلهوزن، الخوارج والشيعة، ص٧٣.

(٦) البلاذرى، المصدر السابق، جـ٧، ص٨٨.

(٧) خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، جـ١، ص٢٦٤.

وشارك الموالى فى الحياة الإقتصادية، كالزراعة فتذكر المصادر أن عليا بن أبى طالب أستخدم مولاه أبا نيزر ليقوم على ضياعه فى ينبع كعين أبى نيزر والبغيبغة(١) وكان المسؤول عن مزارع معاوية بن ابى سفيان فى المدينة من الموالى هو ابن ميناء(٢)، كما زاول الموالى الصناعة كصناعة المنسوجات(٣) والنجارة فيروى أبو نعيم أن أحد الموالى من الفرس كان يصنع الأقداح فى منزله(٤)، ومن الحرف التى زاولها الموالى الخياطة والحجامة(٥)، وصناعة الخبز،(٦) وكتابة المصاحف بالأجرة.(٧)

أما فى مجال التجارة الداخلية، فلقد زاول بعض الموالى التجارة فيذكر الأزدى أن أحد موالى بنى أمية كان يبيع الحديد فى المدينة المنورة(٨)، كما

---

(١) المبرد، الكامل، جـ٣، ص٢٠٧، البكرى، معجم ما أستعجم، جـ٢، ص٦٥٧، السمهودى وفاء الفاء، جـ٤، ص١٢٧١.

(٢) اليعقوبى، تارخ اليعقوبى، جـ٢، ص٢٥٠، ابن قتيبه، الأمام والسياسة، جـ١، ص١٧٦.

(٣) ابن سعد، الطبقات، جـ٥، ص٣٢٥، والتفاصيل أكثر انظر، عبد الله السيف: الحياة الإقتصادية والإجتماعية فى نجد والحجاز، مؤسسة الرسالة، بيروت، الجزء الخاص بالحياة الإقتصادية.

(٤) أبو نعيم، حلية الأولياء، جـ٣، ص١٥٢.

(٥) مالك، المدونة، جـ١٦، ص٢٣١.

(٦) ابن بكار، جمهوة نسب قريش، جـ١، ص٤٥٨، القيروانى، جمع الجواهر، ص٦٨.

(٧) مالك، المدونة، جـ١١، ص٤١٨، ابن سعد، الطبقات، جـ٥، ص٣٩٣، ابن رستة، الاعلاق النفسية، ص٢١٦، ابن قتيبة، المعارف،ص٤٧٠.

(٨) الأزدى، تارخ الموصل، ص٤٩.

كان سائب خاثر، موالى بنى لبث تاجرا موسرا يبيع الطعام فى المدينة(١). أما أبو سعيد عبد الله بن كثير مولى عمرو بن علقمة الكنانى فكان يبيع العطر فى مكة،(٢) وزاول بعض الموالى بيع الحنة فى الأسواق.(٣) وكان أبو إسماعيل ابن يسار، مولى بنى تيم بن مرة من قريش، يصنع طعام العرس فيشتريه منه من أراد أن يتزوج(٤).

ولم يقتصر الموالى على مزاولة التجارة الداخلية، بل زاولوا التجارة الخارجية، فكان أبو صالح السمان، مولى غطفان، يجلب السمن والزيت من المدينة إلى الكوفة فى العراق(٥)، وكان موسى بن يسار مولى قريش يجلب القند والسكر من أذربيجان إلى المدينة(٦)، أما حكم بن ميمون، مولى الوليد بن عبد الملك فكان يكرى جماله لنقل الزيت من الشام، ووادى القرى وجدة إلى المدينة المنورة لبيعه فيها(٧)، كما سكن جدة عدد من الفرس الذين كانوا يزاولون التجارة(٨).

---

(١) الأصفهانى، الأغانى، جـ٨،ص٣٢١،٣٢٢، النويرى، نهاية الارب، جـ٤، ص٢٦١.

(٢) ابن الجوزى، المنتظم ، ص٤٩٢، ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ٣، ص٤١، الذهبى، معرفة القراء الكبار، الفاسى، العقد الثمين، جـ٥، ص٢٣٨.

(٣) ابن قتيبة، المعارف، ص٤٨٥، الاصفهانى، الأغانى، جـ١٣،ص٢٦٧.

(٤) نفس المصدر، جـ٤، ص٤٠٨.

(٥) ابن سعد، الطبقات،جـ٥ ،ص٢٢٢، البستى، مشاهير علماء الأمصار، ص٦٤، العينى، عقدالجمان، جـ١١، قسم٣، ص٤٤٩.

(٦) البغدادى، خزانة الأدب،ص٢٧١.

(٧) الأصفهانى، الأغانى، جـ٦،ص٢٨٠، النويرى، نهاية الأرب، جـ٤، ص٣٢٣.

(٨) المقدسى ، أحسن التقاسيم ، ص ٧٩ ، ٩٦ ، انظر : ابن المجاور ، تارخ المستبصر، ص٤٢.

وقد كان للموالى أثر كبير فى تغيير حياة أهل الحجاز الإجتماعية فى العصر الأموى، حيث امتزجت الدماء العربية بالدماء الأعجمية عن طريق الزيجات التى تمت بين العرب وغيرهم من الأمم المفتوحة(١)، ولقد ترتب على هذه الزيجات نشوء جيل من التابعين خليط من العرب وال والى، وكانت صلتهم وثيقة بالحضارة الأجنبية، لأن الموالى كانوا فى الأصل رقيقا يقومون على خدمة أسيادهم العرب، لذلك نقلوا كثيرا من ألوان الحضارة التى كان يجهلها العرب(٢)، كالأطعمة والأشربة والأبنية والفرش، وكثيرا من عاداتهم وتقاليدهم فى الأفراح(٣) وبمرور الزمن عرف أهل الحجاز كثرة الألوان فى الأطعمة والأشربة ورفاهة الملبس والمسكن.

ويتضح أثر الموالى فى الحياة الإجتماعية من دورهم الذى قاموا به فى الحياة الفنية فى الحجاز حيث اشتهر منهم عدد كبير من المغنين الذين اقتبسوا موسيقى الفرس والروم وغناءهم، ونقلوه إلى اللغة العربية بعد أن أجروا عليه بعض التعديل، كما أشتهر أصحاب النوادر والفكاهة كأشعب مولى عبد الله بن الزبير(٤).

وبينما اهتم عدد من الموالى بالغناء نجد عددا آخر منهم اهتم بالعلوم الدينية وبرعوا فيها ، فلقد تلقى الموالى العلم مع العرب حتى جاء عصر التابعين فكان أكثر حملة العلم من الموالى، كسليمان بن يسار الذى كان فقيها

---

(١) الدينورى، عيون الأخبار، جـ١٠، ص٨، ابو نعيم، حلية الأولياء جـ٣، ص٣٦٧.

(٢) ابن خلدون، المقدمة، ص١٥٤، وأنظر:

(٣) ابن خلدون، المصدر السابق، ص١٥٤، وانظر: شوقى ضيف، الشعر والغناء، ص ٣٠ ، Gibb, Arabic literature, p. 4

(٤) الزبير بن بكار جمهرة نسب قريش، جـ١، ص٤٥٨.

كثير الحديث(١)، ومجاهد بن جبر الذى أشتهر بالتفسير(٢)، ونافع مولى عبد الله بن عمر(٣)، وعكرمة مولى عبد الله بن عباس(٤)، وعطاء بن أبى رباح فقيه أهل مكة(٥)، ويحيى بن كثير مولى طئ، فقيه أهل اليمامة فى نجد(٦)، وعبد الله بن كثير(٧)، وعبد الرحمن بن هرمز(٨)، وعبد الله بن يزيد بن هرمز الذى كان من فقهاء المدينة المعدودين(٩)، وغير هؤلاء كثيرون من الموالى الذين برزوا فى العلوم الدينية حتى كانت مجالسهم مجالس العلم والأدب والفقه(١٠)، ويدلنا على إتجاه الموالى فى نجد والحجاز إلى العلم ما رواه صاحب العقد من أن الفقه فى جميع المدن الهامة فى الأمصار الإسلامية صار إلىالموالى(١١).

ويروى الأربلى أن الفقه فى الربع الأخير من القرن الأول الهجرى فى نجد والحجاز صار إلى الموالى سوى المدينة التى كان فيها سعيد بن المسيب،

---

(١) ابن سعد، الطبقات، جـ٥، ص١٣٠.

(٢) ابو نعيم، حيلة الأولياء، جـ٣،ص٣٢٦، ابن كثير، البداية والنهاية، جـ٩، ص٢٤٥.

(٣) البسوى، المعرفة والتارخ، جـ٦، ص٤٢٤.

(٤) ابن سعد، الطبقات،جـ٥،ص٢١٢، ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ٣، ص٢٥٦.

(٥) الأربلى، خلاصة الذهب المسبوك، ص٧.

(٦) ابن سعد، الطبقات، جـ٥، ص٤٠٤، الاربلى، المصدر السابق، ص٧.

(٧) الفسى، العقد الثمين، جـ٥، ص٢٣٧.

(٨) ابن سعد، الطبقات، جـ٥، ص٢٠٩.

(٩) ابن سعيد، نفس المصدر، ص٢٠٩.

(١٠) لمزيد من المعلومات عن الموالى انظر: ابن سعد، كتاب الطبقات، جـ٥، ص٢٠٨-٢٢٩.

(١١) ابن عبد ربه، العقد الفريد، جـ٣، ص٤١٥.

فكان فقيه أهل مكة عطـاء بـن أبـى ربـاح وفتيـه أهـل اليمامـة يحيـى بـن أبـى كثير(١)، كما اشتغل الموالى بالطب والجراحة كبدراقس المولى الرومى الـذى أجرى عملية جراحية ناجحة لسكينة بنت الحسين بن على(٢).

واستفادت الدولة الأموية من جهود الموالى فـى أدارة الأعمـال المتعلقـة بشؤون الدولة، وخاصة الأمور المالية(٣)، فتذكر المصادر أن عبد الرحمن بن هرمز كان على ديوان المدينة فى عهد يزيد بن عبد الملـك(٤)، كمـا وليـه فـى عهدهشام بن عبد الملك إبن أبى عطاء(٥)، ومن الوظائف التى شغلها الموالـى وظيفة العامل على السوق، فيذكر ابن سعد أن سليمان بن يسار مولى ميمونـة بنت الحارث، كان عاملا على سوق المدينة فى عهد الوليد بـن عبـد الملـك(٦) كما استفادت الدولة من جهود الموالى، فكانت تسند إليهم بعـض الأعمـال كمـا حدث ذلك فى المدينة المنورة سنة ٨٨هـ/٧٠٧م، عندمـا كلـف عمـر بـن عبـد العزيز صالح بن كيسان مولى معيقيب(٧) للأشراف على هدم مسـجد رسـول الله (ص) وتوسعته(٨).

(١) الأربلى، المصدر السابق، ص٧. (٢) الأصفهانى، الأغانى، جـ١٦، ص١٦٠.

(٣) ابن سعد، الطبقات، جـ٨، ص٣٤٨، الطـبرى، تـاريخ الرسل والملوك، جــ٦، ص٤٣٥، النويـرى، نهايـة الارب، جــ١٩، لوحـة ١١٣، السـمهودى، وفـاء الوفـاء، جــ٣، ص١٠٤٦. وانظر: Belyaev, Arabs, Islam and the Arab Caliphate, p.180

(٤) البـلاذرى أنسـاب الأشـراف، (طبعـة بيروت).ص١٩٨، ابـن سـعد، الطبقـات، جـ٨، ص٣٤٨، الطبرى، تاريخ الرسل والملـوك، جــ٧، ص١٣، النويـرى، نهايـة الأرب، جـ١٩، لوحة١١٣.

(٥) المهودى، المصدر السابق، جـ٣، ص١٠٤٦.

(٦) ابن سعد، الطبقات، ج٥، ص١٣٠.

(٧) خليفة بن خياط، كتاب الطبقات، ص٣٦٣، البلاذرى، فتوح البلدان، ص١٣.

(٨) نفس المصـدر، ص١٣، الطـبرى، تـارخ الرسـل والملـوك، جــ٦، ص٤٣٥، السمهودى، وفاء الوفاء، جـ٢، ٥٢٢.

وقبل أن نختم كلامنا عن الموالى فى العصر الأموى نود أن نناقش ما ذكر عن إحتقار العرب للموالى ومعاملتهم معاملة ليست كريمة. لقد وردت بعض الروايات التى صورت العرب يسيئون معاملة فى عصر بنى أمية اساءة بالغة(١). إلا أن هذه الروايات لا تخلو من مبالغة ظاهرة، فنحن نعلم أنه عاش فى الحجاز ونجد فى العصر الأموى عدد من الصحابة والتابعين الذين كانوا ملتزمين بتعاليم الإسلام، وكانوا ينظرون إلى المسلمين جميعا على أنهم أخوة وأمة واحدة من دون الناس لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى. ثم أن أغلب الروايات التى وردت كانت تتصل بالحياة القبلية، فقد كان البدو لا يحترمون الحرف اليدوية أو المهن التى تربط الأنسان بالاقامة الدائمة، والتى غالبا ما يزاولها الموالى، وكانوا يعتزون بالفروسية وبفن القتال، لذلك كانت نظرة هؤلاء إلى الموالى وأصحاب الحرف نظرة لا تتسم بالاحترام(٢). أما الكتاب والتجار ورجال العلم من الموالى فكانت منزلتهم كبيرة، بدليل توليتهم الوظائف الهامة فى الدولة(٣) ، بل أن منزلتهم كانت رفيعة حتى فى الأوساط

---

(١) ابن عبد ربه، العقد الفريد، جـ٣، ص٤١٢ وما بعدها. وقد زعم المستشرق الروسى بيليف أن الموالى كانت لهم مساجد خاصة منفصلة عن مساجد العرب إلا أنه لم يؤيد كلامه بشاهد أو نص، ولم أعثر فى المصادر على نص يوافق هذا الزعم مما يدل على أن مرده التعصب الشديد، انظر Belyaev, Op.Cit, p. 180.

(٢) عبد العزيز الدورى، مقدمة فى التاريخ الأقتصاد العربى، ص٤٢. ويجب أن نتذكر أن بعض علماء الشعوبية أختلقوا قصصا تميل إلى الحط من شأن العرب، يقول أحمد أمين: "ولم يقتصر بعض علماء الشعوبية على وضع كتب المثالب، بل يظهر أنهم وضعوا فى الأدب، قصصا كثيرة تؤيد جانبهم،وقد اختلفوا اختلاقا" ضحى الإسلام، ص٧٠.

(٣) ابن سعد، الطبقات، جـ٥، ص١٣٠، جـ٨، ص٣٤٨، الطبرى، المصدر السابق، جـ٧، ص١٣السمهودى، المصدر السابق، ص١٠٤٦، النويرى، نهاية الأرب، ج١٩، لوحة١١٣.

القبلية، فيروى الجهشيارى أن المعافى بن نعيم قال:"وقفت أنا ومعبد بن طوق على مجلس لبنى العنبر، أنا على ناقة وهو على الحمار، فقاموا إلينا، فبدأوا بى، فسلموا على، ثم انكفنوا على معبد، فقبض يده عنهم، وقال: لا ولا كرامة! بدأتم بالصغير من قبل الكبير، وبالمولى على العربى، فاسكنوا: فانبرى(رجل) منهم له، فقال: بدأنا بالكاتب قبل الأمى، وبالمهاجر قبل الأعرابى، وبراكب الراحلة قبل راكب الحمار"(١).

لقد كان بعض العرب لا ينظرون بعين الرضا والتقدير إلى تزويج بناتهم من الموالى، على الرغم من أن العرب كانوا يتزوجون منهم(٢)، يروى صاحب الأغانى أن أحد الموالى فى بلدة الروحاء بالحجاز، تزوج بعربية من بنى سليم، فلما علم والى المدينة إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومى فرق بين المولى وزوجته وضربه مائتى سوط وحلق رأسه ولحيته وحاجبيه(٣).

يبدوا أن بعض العرب كانوا لا يبالون بتزويج بناتهم من الموالى، يروى المبرد أن إبراهيم بن النعمان ابن بشير الأنصارى زوج ابنته من يحيى بن أبى حفصة مولى عثمان بن عفان على عشرين ألف درهم ، فلما عابه الناس قال :

ما ترك عشرين ألفا لقائل   مقالا فلا تخف ملامة لائم
وأن أك قد زوجت مولى فقد مضت   به سنة قبلى وحب الدراهم(٤)

---

(١) الجهشيارى، الوزراء والكتاب،ص٢٨.

(٢) الدينوى، عيوب الأخبار، جـ١٠، ص٨، ابن سعد، الطبقات ، جـ٥، ص١٥٩، ويروى ابن سعد رواية أن الموالى أيضا كانوا لا يرغبون فى تزويج العرب، فيذكر أن رجلا من العرب خطب "ابنة عطاء بن يسار فقال له عطاء ما ننكر نسبك ولا موضعك ولكنا نزوج مثلنا وتزوج أنت فى عشيرتك" انظر: الطبقات، جـ٥، ص١٢٩.

(٣) الأصفهانى، الأغانى، جـ١٦، ص١٠٦.

(٤) المبرد، الكامل، جـ٢، ص٧٣.

ويروى ابـن سـعد أن علـى بـن الحسـين زوج ابنتـه مـن مـولاه واعتـق جارية له فتزوجها فلما علم عبد الملك بن مروان أنبـه علـى ذلـك، فـرد عليـه على بن الحسين:"قد كان لكم فى رسول الله أسوة حسـنة(٤) قـد أعتـق رسـول الله(ص) صفية بنت حيى وتزوجها وأعتق زيد بن حارثة وزوجـه ابنـة عمتـه زينب بنت جحش"(٥).

ومهما يكن من أمر فقد لعب الموالى دورا كبيرا فى الحيـاة الإجتماعيـة فى الحجاز ونجد بما نقلوه من عادات وأشاعوا من أخـلاق، كمـا شـاركوا فـى الحيـاة الإقتصاديـة والعلميـة وأسـتفادوا مـن سـادتهم وشـاركوهم أعمـالهم فـى مختلف المجالات.

---

(٤) الآية الكريمة من سورة الأحزاب، وهى(لقد كـان لكم فـى رسـول اللـه أسـوة حسنة) آية ٢١.

(٥) ابن سعد ، الطبقات، جـ٥، ١٥٩.

ثانيا : الرقيق :

كان للرقيق أثر فى النواحى الإقتصادية والإجتماعية فى الحجاز ونجد، ولقد وجد الرقيق فى الحجاز منذ العصر الجاهلى، فكانت قريش تتجر بالرقيق مثل اتجارها بالسلع الأخرى(١)، وفى العصر الإسلامى تدفق الرقيق على الحجاز خلال الفتوحات الإسلامية عندما كانت الحجاز منطلق الجيوش الإسلامية ومركز الفتوحات، فيذكر البلاذرى أن سبى قيسارية بلغ أربعة آلاف شخص، بعث بهم معاوية بن أبى سفيان إلى عمر بن الخطاب فى المدينة فأستخدم بعضهم فى الأعمال التى تحتاجها الدولة، وقسم الباقى على يتامى الأنصار(٢)، كما أصاب المسلمون فى سنة١٦هـ/٦٣٧م اثنى عشر الف شخص(٣)، عندما عزل سعيد بن عثمان بن عفان عن خراسان قدم المدينة بمال وسلاح وثلاثين عبدا من السغد(٤)، ولا يستبعد أن سبيا كثيرا قد دخل من المدن الرومية والفارسية التى تم فتحها من قبل المسلمين، إلا أن المصادر لا توضح ذلك.

لقد كان الأسرى فى الحروب يعتبرون غنيمة، تأخذ الدولة الخمس منهم، وكان يسمى رقيق الخمس(٥) ، وتوزع الأربعة أخماس الأخرى على

---

(١) ابو عبيد، الأموال، ص١٧٨، أحمد الشريف، مكة والمدينة فى الجاهلية وعصر الرسول ، ص٢٢٨.

(٢) البلاذرى، فتوح البلدان، (طبعة القاهرة)، ص١٦٧، وانظر :
Akel, Studies in the Social History of the Umayyad Period as revealed in the Kitab Al - Aghani' p.69.

(٣) الرشيد بن الزبير ، الذخائر والمتحف، ص٢٤٥.

(٤) الأصفهانى، الأغانى، جـ١، ص٣٥.

(٥) ابن عبد الحكم، سيرة عمر بن عبد العزيز، ص٥٦.

المقاتلين(١) إلا أن كثرة الرقيق فى الحجاز لا تعود فقط إلى ما ناله المحاربون فى جبهات القتال، بل أن بعض الخلفاء الأمويين أعتادوا إعطاء أهل الحجاز الرقيق، كما فعل معاوية بن أبى سفيان عندما أهدى عبد الله بن الزبير مالا فى الحجاز مع رقيقه الذى يعمل فيه من السودان والحمران(٢). وتذكر المصادر أن عبد الملك بن مروان أعطى الشاعر جريرا الخطفى ثمانية أعبد لرعى إبله(٣).

وقد اعتاد بعض الخلفاء الأمويين زيارة الحجاز وتقسيم الأموال والرقيق كما فعل الوليد بن عبد الملك عندما حج سنة ٩١هـ/٧١٠م وقسم فى المدينة رقيقا كثيرا بين الناس(٤). ويروى الأصفهانى أن الخليفه سليمان بن عبد الملك أمر لجعفر بن الزبير برقيق من البيضان والسودان(٥). أما فى منطقة نجد فلقد جعل معاوية بن أبى سفيان فى بلدة الخضارم أربعة آلاف من الرقيق وأسرهم(٦)، ويبدوا أن بعض السكان كان يستخدم الرقيق للخدمة فى نجد، بدليل إنتشار تجارة الرقيق فيها(٧)، ويقول ابن الفقيه لا تبلغ مولدة مئة

---

(١) أبو عبيد، الأموال، ص٤٠٨.

(٢) البياسى، الأعلام بالحروب الواقعة فى صدر الإسلام ، جـ١ ورقة ٨٤ب ٨٥أ.

(٣) ابن سلام، طبقات فحول الشعراء، جـ١، ص٣٩١، ابن قتيبة، الشعر والشعراء، جـ١، ص٤٦٨.

(٤) الطبرى، تاريخ الرسل والملوك، جـ٦، ص٤٦٦، النويرى، نهاية الأرب، جـ١٩، لوحة٩٠.

(٥) الأصفهانى، الأغانى،جـ١٥، ص٥.

(٦) ابن الأثير، الكامل، جـ٣، ص٣٥٢، النويرى، نهاية الأرب، جـ١٩، لوحة١٤.

(٧) المبرد، الكامل، جـ١، ص١٥٥، ابن سلام، طبقات فحول الشعراء، جـ١، ص٣٩١.

ألف درهم إلا من رقيق اليمامة فى نجد(١). ويستفاد من شعر الشاعر جرير، أن الرقيق كان كثيرا فى إقليم اليمامة، فعندما هجا بنى حنيفةقال:

صـــارت حنيفة أثلاثا فثلثهم   عبيــدا وثلث من مواليها(٢)

ومن العوامل التى أدت إلى كثرة الرقيق فى الحجاز ونجد تجارة الرقيق فلقد راجت هـذه التجارة فى العصر الأموى، ساعد على ازدهارها تطور المجتمع وارتفاع مستوى المعيشة، ووفرة الأموال لدى السكان وحاجتهم إلى الرقيق للخدمة فى البيوت، أو فى النواحى الإقتصادية المختلفة، لذلك توجه التجار بالرقيق نحو الحجاز لبيعه(٣). كما كان بعض الناس يستأجرون نخاسين لبيع رقيقهم فى البلدان، مقابل أجرة معينة(٤) ولا ريب أن أسعار الرقيق كانت تختلف باختلاف ألوانهم، وأجناسهم وثقافتهم ومهارتهم الفنية(٥).

لذلك كثر الرقيق عند الأشراف وأبناء الصحابة، فكانوا يشاركونهم حياتهم فى السراء والضراء كما كانوا يقومون على خدمتهم، ويدلنا على كثرة الرقيق فى الحجاز ما ذكرته المصادر من أن الزبير بن العوام كان له ألف مملوك(٦)، وكان لابنه عبد الله مئة غلام من جنسيان مختلفة(٧)، كما كان له

---

(١) ابن الفقية، البلدان،ص٢٩.

(٢) المبرد، الكامل، جـ٣، ص٢٥.

(٣) مالك، المدونة، جـ١٠، ص٢٧١.

(٤) نفس النصدر، ص٣٥٣.

(٥) الأصفهانى، الأغانى، جـ١، ص٣٤٤-٣٤٥.

(٦) اليعقوبى، مشاكل الناس لزمانهم، ص١٣، المسعودى، مروج الذهب، جـ٢، ص٣٣٣، الرشيد بن الزبير، الذخائر والتحف، ص٢٠٣.

(٧) ابن كثير، البداية والنهاية، جـ٨، ص٣٣٩.

فى مكة دار تسمى دار الزنج لأنه كان له فيها رقيق من الزنج(١)، ويروى الطبرى أن عمرو بن سعيد الأشدق كان له ألف عبد(٢)، وكان لعمر بن أبى ربيعة مجموعة من الرقيق يزاولون مختلف الأعمال ، وكان يزاول الحياكة منهم سبعون عبدا(٣)، وكان لدكين الرجزا فى الفلج بنجد عدد من العبيد(٤) وكان لثور بن الصمة القشيرى، رقيق يعملون فى مزارعه فى الفلج ويرعون له إبله(٥).

لقد ذكرنا أن الرق كان موجودا عند العرب قبل الإسلام، فكانوا يتاجرون به فى جاهليتهم كالسلع الأخرى(٦)، ومع أن الإسلام أباح الرق الا أنه أدخل عليه بعض التعديلات التى تحول دون انتشاره، فلقد أوجب الإسلام حسن معاملة الرقيق فقال رسول الله(صلى الله عليه وسلم) فى حجة الوداع:

"أرقاءكم أرقاءكم أطعموهم مما تأكلون واكسوهم مما تلبسون فإن جاؤوا بذنب لا تريدون أن تغفروه فبيعوا عباد الله ولا تعذبوهم"(٧) كما شجع إعتاق العبيد بأن جعله واجبا دينيا فى عدة حالات ككفارة اليمين الكاذبة(٨)

---

(١) الأزرقى، أخبار مكة، ص٤٦٤.

(٢) الطبرى، تاريخ الرسل والملوك، جـ٦، ص١٤٤.

(٣) الأصفهانى، الأغانى ، جـ١، ص٧٨.

(٤) نفس المصدر، ص٢٦١.

(٥) نفس المصدر، جـ٨، ص١٧٦.

(٦) أبو عبيد، الاموال، ص١٧٨.

(٧) ابن حنبل، المسند، جـ٤، ص٣٦، طبعة مصورة عن الطبعة الميمنية ١٣١٣هـ، ابن سعد الطبقات، جـ٢، قسم١، ص١٣٣، جـ٣، قسم١، ص٢٧٤.

(٨) قال تعالى(لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الإيمان فكفارته أطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة) سورة المائدة، آية: ٨٩ ويروى الأمام مالك أن عبد الله بن عمر كان يعتق المرار إذا أكد اليمين، المدونه، جـ٣، ص١١٩.

أو النذر، أو كفارة القتل الخطأ(١). ومنذ عهد عمر بن الخطاب منع استرقاق العرب(٢)، فليس أمام العربى إلا الإسلام أو السيف.

كما أمر بأولاد العرب الذين سبق بيعوا فى الجاهلية، أن يقوموا على آبائهم ولا يسترقوا(٣).

لقد شارك الرقيق فى جوانب الحياة المختلفة للمجتمع الإسلامى فى نجد والحجاز، ففى مجال الحياة السياسية شارك العبيد أسيادهم من أهل المدينة حرب الأمويين، فعندما خرج الحسين بن على على يزيد بن معاوية ورفض مبايعته، إشترك معه الرقيق فى قتال الجيش الأموى(٤). وفى موقعة الحرة سنة٦٣هـ/٦٨٢م، إشترك العبيد بجانب أسيادهم من أهل المدينة ضد جيش مسلم بن عقبة المرى، ولاقى بعضهم حتفه(٥)، كما إشترك رقيق ابن الزبير معه ضد الأمويين وأهل الشام(٦)، وعندما إستولى الخوارج على المدينة سنة١٢٩هـ/٧٤٦م إشترك العبيد فى قتالهم وإخراجهم عن المدينة(٧).

---

(١) قال تعالى (ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله الا أن يصدقوا) سورة النساء، آية:٩٢.

(٢) أبو عبيد ، الأموال، ص١٧٨، ١٨١.

(٣) نفس المصدر، ص١٧٨.

(٤) الدينورى، الأخبار الطوال، ص٢٥٩، الطبرى، تارخ الرسل والملوك جـ٥، ص٤٥٤.

(٥) السمهودى، وفاء الوفاء، جـ١، ص١٣٢، (رواية المدائنى والواقدى).

(٦) الفاكهى، تاريخ مكة، ص١٩، ٢١، البلاذرى، أنساب الاشراف، جـ٤، قسم٢، ص٤٩، ابن كثير، البداية والنهاية، جـ٨، ص٣٤٣.

(٧) البلاذرى، المصدر السابق، جـ٨، ص٣٨٠، الاصفهانى، الأغانى، جـ٢٣، ص٢٤٦.

أما فى مجال الحياة الإقتصادية، فلقد شارك الرقيق فى جوانبها المختلفة، فاشتغل بعضهم بالزراعة واستصلاح الأراضى فى المزارع التى كان يملكها أسيادهم، فقد استخدم سعيد بن عثمان بن عفان رقيقا للعمل فى المدينة المنورة(١)، كما جعل معاوية بن أبى سفيان أربعة آلاف من الرقيق وأسرهم فى بلدة الخضارم فى إقليم اليمامة بنجد لإستصلاحها واستثمارها(٢). وزاول الرقيق رعى الإبل والماشية لأسيادهم(٣) ويروى الزبير بن بكار أن بنى عبد الله بن الزبير كانوا عند جدهم منظور بن زبان بالبادية" يرعون عليه الإبل كما يفعل عبيده"(٤) وكان معبد مملوكا لآل قطن مولى بنى مخزوم يرعى لهم الغنم بظهر الحرة فى المدينة(٥)، وكان الشاعر نصيب عبدا حبشيا يرعى أبل مواليه فى مستهل حياته(٦).

وشارك الرقيق فى الصناعة، وزاولوا هذه المهنة، يروى الأصفهانى أنه كان لعمر بن أبى ربيعه سبعون عبدا يزاولون حياكة المنسوجات(٧)، كما كان لرجل من بنى مخزوم فى مكة غلام حائك ينسج بعض المنسوجات فى

---

(١) لبن حبيب، أسماء المغتانين من الأشراف، ص١٦٧، البلاذرى، أنساب الأشراف، جـ٥، ص١١٩.

(٢) ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، جـ ٣، ص٣٥٢، لتفاصيل أكثر انظر عبد الله السيف، المرجع السابق، باب الحياة الإقتصادية فى نجد والحجاز.

(٣) الأصفهانى، الأغانى، جـ٢، ص٢٦٥، أبو نعيم، حلية الأولياء، جـ١، ص٣٠٠.

(٤) الزبير بن بكار، جمهرة نسب قريش، جـ١، ص٨٠.

(٥) الأصفهانى، الأغانى، جـ١، ص٣٩، ٤١.

(٦) نفس المصدر، ص٣٣١، ٣٣٣.

(٧) نفس المصدر ،ص٧٨.

بيته(١) وكان بعض الرقيق يجيد الخرازة(٢)، ويستفاد من رواية الإمام مالك أن الولائد فى العصر الأموى، كن يزاولن صناعة النسيج، وكانت منسوجاتهن من الربط التى تعرض فى الأسواق للبيع(٣). كما أشتغل بعض العبيد بالصياغة وخياطة الالبسة(٤).

وشارك الرقيق فى التجارة التى كانت نشيطة فى العصر الأموى، فكان السيد يعطِى عبده المال ويفتح له المحل التجارى لمزاولة البيع فيه، فيروى التنوخى أنه يتولى البيع فيه غلام له(٥). كما كان العبد يساعد سادته فى التجارة، فيقول معبد المغنى عن نفسه"كنت غلاما مملوكا لآل قطن مولى بنى مخزوم، وكنت أتلقى الغنم بظهر الحرة، وكانوا تجارا أعالج لهم التجارة فى ذلك(٦). ويروى مصعب الزبير أن عمرو بن عبد الله ابن صفوان كان له رقيق يزاولون التجارة، وكانوا أكبر عون له فى أعماله(٧). ويروى الذهبى عن معمر بن رائد الأزدى أنه كان مملوكا لقوم من طاحية فبعثوه ببز من بز العراق لبيعه فى سوق المدينة(٨). وكان لبعض أهل المدينه إبل تعمل فى السوق بالأجرة، يتولى العمل علها الرقيق كإبل عياض بن عبد الله السلامى ومالك ابن كلثوم المرادى(٩).

---

(١) نفس المصدر، جـ٥، ص١١٤.
(٢) البغدادى، خزانه الأدب، جـ١، ص١٠٦.
(٣) مالك، المدونة، جـ٩، ص٢٤.
(٤) نفس المصدر، جـ١٥، ص١٥٣.
(٥) الشوخى، المستجاد من فعلات الأجواد ، ص١٢٤.
(٦) الأصفهانى، الأغانى، جـ١، ص٤١.
(٧) مصعب الزبيرى، نسب قريش،٣٩١.
(٨) الذهبى، تذكرة الحفاظ، جـ١، ص١٧١.
(٩) مالك، المدونة، جـ١١، ص٤٢٥.

ولم تقتصر أعمال الرقيق على مزوالة التجارة مع أسيادهم، بل كان بإمكانهم بعد الحصول على أذن من أسيادهم مزاولة التجارة أو الصناعة بمفردهم(١) وكان بمقدور العبد المأمون أن يمارس أى تجارة يرغب، شأنه فى ذلك شأن الأحرار تماما سوى أنه كان باستطاعة السيد سحب أذنه لعبده من ممارسة التجارة فيعود إلى حاله الأول(٢). وقد ذكرت المصادر أسماء بعض الأسياد الذين كان لهم عبيد مأذونون يعملون فى التجارة أو الصناعة، فيروى الرشيد بن الزبير أنه كان للزبير ألف مملوك صانع، يؤدون الضريبة لا يدخل بيت ماله منها درهم واحد، فكان يتصدق بها(٣). ويذكر السرخسى أن العباس كان له عشرون عبدا مأذونون رأس مال كل منهم عشرة ألاف درهم(٤). وكان لعبد الله بن عمر عبيد مأذونون يعملون فى شتى المهن(٥)، ويروى الإمام مالك أن العبيد المأذونين كانوا يزاولون الصناعة كالصياغة والخياطة(٦).

واستفادت الدولة من جهود الرقيق، فيروى الأزرقى أن معاوية بن أبى سفيان أخدم الكعبة عبيدا بعث بهم إليها، فكانوا يخدمونها، ثم اتبع ذلك الولاة فيما بعد(٧) . وأثناء هدم ابن الزبير للكعبة ليبنيها من جديد اشترك الرقيق فى

---

(١) نفس المصدر، جـ١٥، ص١٥٣.

(٢) العلى. التنظيمات الإجتماعية، ص٢٧٢.

(٣) الرشيد بن الزبير، الذخائر والتحف، ص٢٠٣.

(٤) السرخسى، المبسوط، جـ٢٥، ص٣.

(٥) مالك، المدونة، جـ٦، ص٢٤٧.

(٦) نفس المصدر، جـ١٥، ص١٥٣.

(٧) الأرزقى، أخبار مكة، ص١٧٦، وأنظر: اليعقوب، تاريخ اليعقوبى، جـ٢، ص٢٣٨.

مساعدته لهدمها(١)، ويبدوا أنهم كانوا يعملون حرسا وجنودا فى جيش الولاية فى الحجاز(٢).

أما عن دور الرقيق فى الحياة الإجتماعية، فلقد سبق أن ذكرنا أن وفرة الأموال لدى السكان، وارتفاع مستوى المعيشة، أدى إلى الطلب المستمر على الرقيق لحاجة الأثرياء لهم للخدمة فى البيوت(٣) ولا ريب أن هؤلاء الرقيق الذين كانوا أصلا من الروم أو الفرس، كانوا يعرفون ألوانا من الأطعمة والأشربة والألبسة لايألفها سكان الحجاز، يروى ابن خلدون أن العرب لما فتحوا بلاد الفرس والروم، أستخدموا بناتهم وأبنائهم فى مهنهم وحاجات منازلهم، وأختاروا منهم المهرة فى ذلك، فتفننوا مع اتساع العيش "واستجادوا المطاعم والمشارب والملابس والمبانى والأسلحة والفرش وسائر الماعون.. وكذلك أحوالهم فى أيام المباهاة والولائم، وليالى الأعراس"(٤).

كما نبغ بعض الجوارى فى الغناء، فكن يقمن بالغناء فى بيوت أسيادهن(٥)، وشارك العبيد سادتهم فى هوايتهم، فيروى الأصفهانى أن الشاعر العرجى كان صاحب صيد، وكان إذا خرج إلى الصيد أصطحاب عبيده معه(٦).

لقد استكثر أهل الحجاز من الرقيق، فإذا كان السيد تاجرا فرقيقه أعوانه فى التجارة، وذا كان عالما كان رقيقه من تلاميذه فى العلم، ومتى كان عندهم حسن استعداد نبغوا فيه بحكم مخالطتهم لسادتهم فى السر والعلن وملازمتهم

---

(١) الأزرقى، المصدر السابق ، ص١٤١.

(٢) الأصفهانى، الأغانى ، جـ٢، ص٣٣٧، وأنظر: جـ١١، ص١٩٣.

(٣) الفاكهى، تاريخ مكة، ص١٩.

(٤) ابن خلدون، المقدمة، ص١٥٤.

(٥) القيروانى ، جمع الجواهر، ص٢١.

(٦) الأصفهانى، الأغانى، جـ٨، ص. [illegible]

لهم فى الإقامة والسفر، وخير دليل على ذلك نافع مولى عبد الله بن عمر(١). والذى أعتقه فيما بعد، وعكرمة مولى عبد الله بن عباس، الذى مات عبد الله بن عباس وهو على الرق فأعتقه على بن عبد الله بن عباس(٢).

لقد قامت الإماء والجوارى بالخدمة فى بيوت أسيادهن، إلا أن بعضهن قد أصبحن محظيات عند أسيادهن، وتمتعن بنفوذ كبير عندهم، كحبابة التى إشتراها يزيد بن عبد الملك من الحجاز فحظيت عنده(٣). وأذا جاءت الإمة بولد من سيدها، أصبحت أم ولد ولا يجوز بيعها(٤)، كما أن أولاد الإماء كانوا يصبحون أحرارا إلا أن مركزهم الإجتماعى كان أقل من مركز أولاد الحرائر، ومع هذا شاع إتخاذ السرارى ورغب الناس فيهن، وخاصة عندما اشتهر عدد من أبنائهن فى العلم والفقة والورع، يروى الدينورى نقلا عن الأصمعى قوله: كان أهل المدينه يكرهون اتخاذ أمهات الأولاد حتى نشأ فيهم على بن الحسين والقاسم بن محمد وسالم بن عبد الله بن عمر، ففاقوا أهل المدينة فقها وورعا، فرغب الناس فى إتخاذ السرارى(٥)، وأقبلوا على الإماء يروى ابن سعد أن المنكدر بن عبد الله اشترى جارية وتزوجها، وأنجبت منه الأولاد(٦) كما تزوج مصعب بن الزبير من جارية ، وعندما قتل أصبحت

---

(١) ابن قتيبة، المعارف، ص٤٦١، أحمد أمين، فجر الإسلام ، ص١٥٥.

(٢) ياقوت، معجم الأدباء، جـ١٨٤، وأنظر: ابن سعد الطبقات، جـ٥، ص٢١٢، ابن قتيبة، المعارفص٤٥٥، ابن الجوزى، صفه الصفوة، جـ٢، ص٥٨، الكتبى، عيون التواريخ، جـ٥، ص٤٥٥، الطبرى، المنتخب من كتاب ذيل المذيل ،ص١٢٠.

(٣) اليعقوبى، مشاكل الناس لزمانهم، ص٢٠، الطبرى، تاريخ الرسل والملوك، جـ٧، ص٢٣، الأزدى، تاريخ الموصلص٢٠، ابن كثير، البداية والنهاية، جـ٩، ص٢٣٢.

(٤) أبو نعيم، حلية الأولياء، جـ٣، ص٣٦٧.

(٥) الدينورى، عيون الأخبار، جـ١٠، ص٣٦٧.

(٦) ابن سعد، الطبقات، جـ٥، ص١٨.

حرة، لا سبيل لأحد عليها(١) لأنها أنجبت منه الأولاد . وكانت أم الحارث بن عبد أبى ربيعة جارية من الحبشة(٢)، كما كانت أم عبد الله بن قيس بن عبد الله بن الزبير جارية من الحبشة، (٣) أيضا، ولا ريب أن هذه الزيجات التى تمت بين العرب وغيرهم من الأجناس الأخرى قد أثرت فى امتزاج الدماء من ناحية، وأثرت على العادات والأخلاق التى كانت موجودة من ناحية أخرى.

وعلى الرغم من الخدمات الإجتماعية والإقتصادية التى كان يقدمها الرقيق للمجتمع الا أن المجتمع العربى كان يستصغر شأنهم، فكان من الواجب عليهم أن يحملوا أختاما فى أعناقهم تشير إلى رقهم، يقول الإمام مالك أن " الإماء والعبيد يطبع فى أعناقهم..... ولم يزل ذلك من أمر الناس القديم" كما كان بعض العرب ينظر إليهم نظرة فيها الكثير من الازدراء والاحتقار بينما كان البعض الآخر يقدرهم ويحترمهم، فيروى ابن سعد أن على ابن الحسين كان يجالس أسلم عبد بنى عدى فقال له رجل من قريش: " تدع قريشا وتجالس عبد بنى عدى، فقال على: إنما يجلس الرجل حيث ينتفع".(٥)وفى رواية أخرى أن عليا بن الحسين كان يتخطى حلق قومه حتى يأتى مجلس زيد بن أسلم فيجلس عنده فقال له نافع ابن جبير: "غفر الله لك!أنت سيد الناس وأفضلهم تذهب إلى هذا العبد فتجلس معه، يعنى زيد بن أسلم، فقال: إنه ينبغى للعلم أن يتبع حيث ما كان(٦).

---

(١) ابو نعيم، حيلة الاولياء، جـ٣، ص٣٦٧.

(٢) الأصفهانى، الأغانى، جـ١، ص٦٦.

(٣) ابن حبيب، المحبر، ص٣٠٧. (٤) مالك، المدونة، جـ١٢، ص١٤٧.

(٥) ابن سعد، الطبقات، جـ٥، ص١٦٠.

(٦) يقول ابن الأثير: الكتابة أن يكاتب الرجل عبده على مال يؤديه إليه منجما فإذا أداه صار حرا، وسميت كتابة لمصدر كتب كأنه يكتب على نفسه لمولاه ثمنه، ويكتب مولاه له عليه العتق. انظر: النهاية فى غريب الحديث، جـ٤، ص٧. وانظر أيضا: ابن هبيرة، الافصاح، جـ٢، ص٤٩٧.

لقد كان بإمكان الرقيق أن يصبحوا أحرارا، وذلك بموجب اتفاقية بينهم وبين أسيادهم على أن يدفعوا لهم مبلغا من المال، يحصل العبيد بعده على حريتهم، فيكونوا مكاتبين، غير أنه كان للأسياد الحق فى تقرير ما يشاءون من الأموال، يروى الأمام مالك أن عبد الله بن عمر كاتب غلاما له بخمسة وثلاثين ألف درهم ثم وضع عنه من آخر كتابته خمسة آلاف درهم(١).

وكوتب أبو سعيد المقبرى وأفلح مولى أبى أيوب الأنصارى كل منهما على أربعين ألف درهم(٢). ويبدو أن هذه المبالغ كانت باهظة يعجز العبد عن سدادها، إلا أن بعض الأسياد كانوا يتنازلون عن شروط المكاتبة، يروى الإمام مالك أن عبد الله بن عمر كاتب غلاما يقال له شرفى على أربعين ألف درهم فكان يعمل حتى سدد خمسة عشر ألف درهم، فجاء إلى عبد الله بن عمر فقال له قد عجزت عن تسديد المبلغ. فاعتقه عبد الله وأعتق ابنيه وزوجتيه(٣).

وكان الرقيق يعتق تقربا إلى الله، فلقد حث الاسلام على فك الرقاب، وأعتبر ذلك من أفضل الأعمال التى تقرب المرء إلى الله، قال تعالى: (فلا أقتحم العقبة، وما أدرك ما العقبة فك رقبة)(٤). لذلك سارع بعض الأتقياء إلى اعتاق الرقيق تقربا إلى الله سبحانه، فيروى ابن سعد أن عبد الله بن عمر كان إذا رأى من رقيقه عبدا يتمسك بالدين ويحرص عليه أعتقه(٥). ويروى ابن كثير أن عبد الله بن عمر لم يمت حتى أعتق ألف رقبة(٦) . ويذكر

---

(١) مالك، المدونة، جـ٦، ص٢٣٠.

(٢) ابن سعد، المصدر السابق، ص٦١-٦٢.

(٣) مالك، المدونة، جـ٦، ص٢٤٧.

(٤) سورة البلد، آية ١١-١٣.

(٥) ابن سعد، الطبقات، جـ٤ قسم١، ص١٢٣.

(٦) ابن كثير، البداية والنهاية، جـ٨، ص٥.

ابن الجوزى أن على بن الحسين أعتق غلامه مطرفا تقربا إلى اللـه، رغم أن عبد الله بن جعفر قد دفع له الف دينار(١). كما أعتق دهورا مولى سعد بن أبى بكر ثلث رقيقه وهم قريب من العشرين(٢). وتذكر المصادر أن عددا من الأسياد أعتقوا كثيرا من أرقائهم(٣)، وعندما أسن عمر بن أبى ربيعة أقسم ألا يقول بيتا من الشعر إلا أعتق رقبة، وقد نظم مرة تسعة أبيات من الشعر فأعتق تسعة من العبيد(٤).

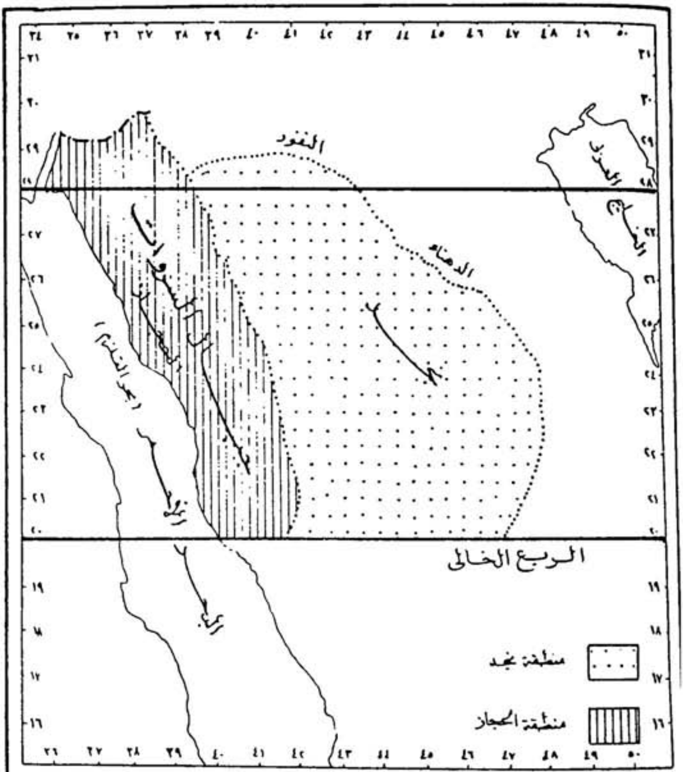
---

(١) ابن الجوزى، صفة الصفوة، جـ٢، ص٥٤.

(٢) مالك، المدونة، جـ١٥، ص٣.

(٣) ابن سعد، الطبقات، جـ٤ قسم١، ص١٢٣، ابن قتيبة، المعارف، ص٤٦١، البلاذرى، أنساب الأشراف، جـ٤ قسم٢، ص٤٩، ياقوت، معجم الأدباء، جـ١٢، ص١٨٤.

(٤) الأصفهانى، الأغانى، جـ١، ص٤٦.



موقع نجد والحجاز من الجزيرة العربية

الحياة الثقافية فى الدولة الحفصية
فى القرن ٧هـ / ١٣م فى ضوء رحلة العبدرى(*)

د. حسين سيد عبد الله مراد

مدرس بمعهد البحوث والدراسات الأفريقية

جامعة القاهرة

خرج الرحالة أبو عبد الله محمد بن محمد العبدرى(١) من موطنه حاحة(٢) فى الخامس والعشرين من ذى القعدة سنة ٦٨٨هـ ، الموافق العاشر من ديسمبر سنة ١٢٨٩م(٣). متجها إلى بلاد الحجاز لأداء فريضة الحج، والإتصال بالعلماء ورجال الفكر فى العالم الإسلامى. ومرّ أثناء ذهابه وإيابه بأراضى الدولة الحفصية.

ولم يخصه مؤلف بترجمة وافية تفيد فى تحديد تاريخى الميلاد والوفاة والتفاصيل الخاصة بنشأته وتعليمه. فالمصدر الوحيد الذى خصه بترجمة مختصرة جداً هو "جذوة الاقتباس" وهذه الترجمة مأخوذة من رحلته ذاتها(٤). ونعتقد أن ابن عبد الملك المراكشى قد ترجم للعبدرى مع المحمدين

(*) قدم هذا البحث لندوة قسم التاريخ بكلية الأداب جامعة المنيا بعنوان: الرحلة والرحالة فى العصور الوسطى فى الفترة من ٣٠ أكتوبر-١ نوفمبر١٩٩٣.

(١) اعتمدت فى هذه الدراسة على كتاب الرحلة المغربية للعبدرى، نشر وتحقيق الأستاذ محمد الفاسى، الرباط ١٩٦٩.

(٢) حاحة تقع إلى الجنوب من المجرى الأنى لنهر تانسيفت حتى وادى سوس جنوبا ويطل إقليم حاحة على المحيط الأطلنطى غربا. انظر عبد العزيز بنعبد الله: مظاهر الحضارة المغربية الدار البيضاء ، ١٩٥٧، جـ١، ص٢٤.

(٣) العبدرى: الرحلة المغربية ، ص٧.

(٤) ابن القاضى : جذوة الاقتباس فى ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس ، الرباط ١٩٧٣، جـ١، ص٢٨٦، ٢٨٨.

من المغاربة فى كتابه "الذيل والتكملة". ولا شك أنها ترجمة وافية نظراً للاتصال الوثيق بين العبدرى وابن عبد الملك المراكشى. فقد وصفه العبدرى "بصاحبنا الفقيه الأديب الأوحد"(١) ، مما يدل على مكانة كل منهما لدى صاحبه. فعثورنا على هذه الترجمة فى "الذيل والتكملة" سيضيف الكثير من معرفتنا للرجل وحياته(٢).

ومع أننا لم نستطع تحديد تاريخى الميلاد والوفاة للعبدرى ألا أنه عندما قام برحلته كان فى مرحلة الشباب، يتبين ذلك حين منحه أبو زيد الدباغ أكثر من عشرة أجزاء من فوائده وفوائد شيوخه وفهارسهم وقال له: "أنت أولى بها منى فأنى شيخ على الوداع وأنت فى عنفوان عمرك"(٣).

وقد أجمعت المراجع على نسبته إلى مدينة بلنسية(٤)والبعض ينسبه إلى

---

(١) العبدرى: مصدر سابق ، ص١٤٩.

(٢) الحسن الشاهدى: أدب الرحلة بالمغرب فى العصر المرينى ، الرباط، ١٩٩٠، جـ١ ص١٧٤.

(٣) العبدرى: مصدر سابق ، ٦٧.

(٤) زكى محمد حسن: الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ، بيروت ١٩٨١، ص١٣٢.

- أحمد بن جدو: محقق الرحلة المغربية ، نشر كلية الأداب الجزائرية، قسطنطينة، بدون تاريخ.

- كراتشكوفسكى: تاريخ الأدب الجغرافى العربى، القاهرة ١٩٦٣، ص٤٦٧.

- نقولا زياده: الجغرافية والرحلات عند العرب، بيروت، ١٩٦٢،ص١٧٠، ١٧١.

الرحالة العرب، القاهرة ١٩٥٦، ص١٠٥.

-بالنثيا: تاريخ الفكر الاندلسى ، ترجمة حسين مؤنس، القاهرة ، ١٩٥٠، ص٣١٨.

- محمد بن تاويت : الوافى بالأدب العربى فى المغرب الاقصى ، الطبعة الأولى، الدار البيضاء ١٩٨٣، جـ٢، ص٣٩٢.

حاجة(١). بل يقدم محمد الفاسى القرائن التى تؤكد أصله الحيحى(٢) لكننا نتفق مع الرأى القائل بالأصل البلنسى. فقد ولد هناك ثم حمل رضيعا أو صبيا إلى المغرب عندما فر أبواه من بلنسية إلى العدوة المغربية كما فر كثير من المسلمين(٣)، على أثر سقوط هذه المدينة سنة ٦٣٦هـ / ١٢٣٨م فى يد

= - حسين مؤنس: تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٨٦، ص٥١٩.

-Ben Cheneb and Hoenerbach : The Ecncyclopedia Of Islam, New Edition, Art, Alabdari.

(١) محمد بن مخلوف: شجرة النور الزكية فى طبقات المالكية، بيروت ١٩٣٠، ص٢١٧.

- محمد الفاسى : انظر مقدمة تحقيق الرحلة المغربية للعبدرى، ص: ث.

(٢) يقدم الفاسى القرائن على اصله الحيحى ويستبعد الاصل البلنسى ويقول أن الخطأ فى نسبته إلى بلنسية يرجع لكون عدد كبير من الادباء والعلماء من أهل الاندلس ينتسب لبنى عبد الدار. كما يرى أن العبدرى كان يحسن اللغة البربرية، ويتبين هذا فى نقده لابى عبيد البكرى فى تأليفه "المسالك والمسالك". ويؤكد محمد الفاسى أن العبدرى، كان ملما باللغة البربرية وهذا يؤكد علي أنه بربرى النشأة واللغة. واستدل الفاسى على أنه من حاحة من أبيات شعرية أنشدها العبدرى وهو فى فاس حين أدركه العيد بها يحن فيها إلى وطنه حاحة ويقول:

قالوا تعيد فى فاس فطب مرحا ... فقلت مالى بها دار ولا عطن
فاس ومكناس وطنجه وسلا ... عندى كزيدك لا أهل ولا وطن
بغداد قفر إذ لم تحتوى سكنا ... والقفر بغداد ان أهله قطنوا

انظر: مقدمة تحقيق الرحلة المغربية ، ص: ث، ح.

- هذه الأبيات لا يستفاد منها أن موطنه حاحة كما قال الأستاذ محمد الفاسى.

(٣) ابن جدو: مرجع سابق، ص، و.

الأسبان(١). ولذلك نرجح بأنه عربى الأصل ولد فى بلنسية وسكن حاحة ولذلك فهو بربرى النشأة واللغة(٢).

ونظراً لنشأته فى بيت علم فقد نجح العبدرى وبشكل كبير ومفيد فى رسم صورة حقيقية للحياة الثقافية فى الدولة الحفصية خلال القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى، فقد كان أبوه خطيباً يستفاد ذلك من صدر أحد مخطوطات رحلته الموجودة، فى الرباط "بأنه الفقيه المتقن أبو عبد الله ابن الشيخ الصالح الخطيب المرحوم أبى عبد الله بن على"(٣) كما كان أخوه "يحيى" الذى صاحبه فى رحلته من أهل العلم، حيث نراه يأخذ عن علماء تونس كتاب "الأربعين المسلسلة" لأبى الحسن بن المفضل المقدسى"(٤).

هذا وقد درس العبدرىفى حاضرة المغرب الأقصى مراكش،وقبل سفره إلى بلاد الحجاز فىرحلة حجه.فقد كان كثيرالتردد على مراكش وربماأقام بها زمنا لأنه يذكر أنه التقى مع ابن عبد الملك المراكشى مؤلف كتاب"الذيل والتكملة"فى مراكش.كما أثنى علىمؤلفه العظيم بقوله أنه"كتاب متقن مفيد"(٥).

---

(١) ابن الأبار : الحلة السيراء ، نشر حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٦٣ جـ٢، ص٣٠٣.

(٢) العبدرى: مصدر سابق، ص١٥٩.

(٣) محمد الفاسى: مقدمة الرحلة المغربية ، ص: ح.

(٤) العبدرى: مصدر سابق ، ص ٢٧٥.

- أبو الحسن بن المفضل المقدسى الإمام الحافظ المتوفى عام ٦١١هـ/١٢١٣م الفقيه المالكى، صنف العديد من التصانيف وسكن مصر فى أواخر عمره. انظر:

العماد الحنبلى: شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، بيروت ١٩٦٦، جـ٥، ص٤٧، ٤٨.

(٥) العبدرى : مصدر سابق ، ص١٣٥.

محمد الفاسى : انظر مقدمة تحقيق الرحلة المغربية ، ص:ح.

ولذلك فقد شغف العبدرى بلقاء الأدباء والشعراء واستجازة العلماء المشهود لهم. فرحل إلى الحجاز لأداء الفريضة والاتصال بالعلماء ورجال الفكر فى العالم الإسلامى فكان كتابه المسمى بالرحلة المغربية مفيداً جداً فى كونه مصدراً وافراً بتراجم كثير من العلماء. ولهذا كان موردا عذبا لمؤلفى التراجم المتأخرين، مثل نيل الابتهاج لأحمد بابا التنبكتى، وتكملة لرياض النفوس للمالكى، وطبقات علماء أفريقية لأبى العرب تميم(١).

وعلى ذلك كان كتاب الرحلة المغربية يدل على مدى الإزدهار أو الأنحطاط الثقافى فى بعض مدن الدولة الحفصية(٢) فى ضوء ظروفها

---

(١) أحمد بن جدو: انظر مقدمة تحقيق الرحلة المغربية ، طبعة الجزائر، ص، ح.

(٢) قامت الدولة الحفصية (٦٢٥- ٩٤١هـ/١٢٢٧-١٥٣٤م) عندما تصدعت الدولة الموحدية بالمغرب وانقسمت البلاد إلى ثلاث دول هى الدولة الحفصية، والدولة الزيانية ، والدولة المرينية. وتنتسب الدولة الحفصية موضوع البحث إلى الشيخ أبى حفص عمر بن يحيى من قبيلة هنتانه المصمودية والذى كان هو وبنوه من خيرة رجال الموحدين، فكان من بينهم الوزراء والولاة. ومؤسس الدولة هو أبو زكريا يحيى بن أبى محمد عبد الواحد بن الشيخ أبى حفص (٦٢٥- ٦٤٧هـ/١٢٢٨- ١٢٤٥م) الذى بذل كل ما فى وسعه من أجل الاستقلال بالدولة، ونجح فى ذلك حين قطع الخطبة للخليفة الموحدى المأمون سنة (٦٣٤هـ/١٢٣٧م) وكتب إسمه على السكة، وقد إتسعت حدود الدولة فى عهده وامتدت من طرابلس شرقا إلى بجاية غربا، وكانت حاضرتها مدينة تونس ولكن الأحوال السياسية للدولة الحفصية ما لبثت أن ساءت عندما مر بها العبدرى . انظر:

العمرى : مسالك الإبصار فى ممالك الإمصار ، مخطوطة بدير الدومنيكان، تحت رقم IX 760 12 ، جـ٤، ورقة ٥١، ٥٢.

- ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، بيروت ١٩٨٣، جـ٦، ص٥٨٣.

ابن قنفذ : الفارسية فى مبادئ الدولة الحفصية ، تحقيق محمد النيفر ، تونس ١٩٦٨، ص١١٧.

الزركشى : تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ، تونس ١٩٦٦، ص٢٣. =

السياسية السيئة عندما مر بها العبدرى ذلك أن الاضـطرابات التى حدثت فى الدولة أدت إلى انقسامها سنة ٦٨٣هـ / ١٢٨٤م إلى قسمين على كل قسم أمير: قسم شرقى حاضرته مدينة تونس يحكمه أبو حفص بن أبى زكريا(٦٨٣ - ٦٩٤هـ/ ١٢٨٤ - ١٢٩٥م) وقسم غربى حاضرته مدينة بجاية ويضم قسنطينة والجزائر، ويحكمه أبو زكريا بن إسحق. ودام هذا الانقسام مدة ليست بالقصيرة فقد ظلت الدولة منقسمة على نفسها إلى سنة ٧١٨هـ / ١٣١٨م(١).

ويشير العبدرى باقتضاب فى رحلته إلى الحالة السياسية للدولة الحفصية وهى إشارة تتفق مع ما جاء فى المصادر التاريخية إذ يقول: "مدينة تونس دار مملكةأفريقية علىضعف المملكة بها وانتهائها إلى حد التلاشى"(٢).

ولكن بعد الاطلاع على الرحلة العبدرية وكتب التراجم والطبقات التى تناولت تراجم علماء الدولة الحفصية، نستطيع أن نؤكد أن الحياة الثقافية خصوصاً فى مدينتى تونس وبجاية لم تتأثر تأثراً كبيراً بالانقسام السياسى للدولة الحفصية، وذلك لأن الحاكمين الحفصيين المعاصرين لرحلة العبدرى قد أهتما بالعلم والثقافة على الرغم من أن العبدرى لم يوضح فى رحلته سياستهما تجاه العلم والثقافة. لكن المصادر التاريخية المتاحة توضح موقفهما من العلم والثقافة. فقد سار الحاكمان الحفصيان فى كل من الحاضرتين تونس وبجاية على نفس السياسة التى أتبعها مؤسس الدولة أبو زكريا الذى كان

= ابن الشماع: الادلة البينة النورانية فى مفاخر الدولة الحفصية، تقديم الطاهر المعمورى، تونس ١٩٨٤، ص٥٦.

ابن أبى دينار: المؤنس فى أخبار أفريقيا وتونس، تونس ١٩٦٧، ص١٣٢.

ابن أبى الضياف: اتداف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس فىعهد الأمان، ص١٦٦.

(١) ابن قنفذ: مصدر سابق، ص١٤٦- ١٤٨.

ن أبى الضياف: مصدر سابق ، جـ١ ص١٦٦-١٦٧.

٢) الرحلة المغربية ، ص٤١.

مهتما بالعلم ومشجعا له.(١) فقد شجع الحاكم الحفصي الذى كان يحكم من تونس وهو أبو حفص ابن المولى أبو زكريا العلماء وأجزل لهم العطاء، وكان يعظم الفقهاء والصالحين ويبرهم.(٢) فالفقيه أبو محمد الأطراولى كان من خواصه(٣) كما قرب الوالى الصالح أبا محمد المرجانى(٤).وأستعان برجال العلم من الفقهاء فى مناصب الفتيا والقضاء(٥). ويتضح تقديره للعلماءمن أنه عفى عن الفقيه أبى القاسم بن الشيخ حاجب الداعى الذى ادعى النسب الحفصى وقفز على كرسى الخلافة(٦) حين توسط فيه أحد الصلحاء وقال: "حاجتنا إليه أعم من حاجته إلينا" فحضر بين يديه وأمنه وقربه ولازمه(٧).

---

(١) ابن الشماع : الأدلة البينة النورانية فى مبادئ الدولة الحفصية، ص٥٦- ٥٧.
ابن أبى دينار: المؤنس، ص ١٣٧.
ابن أبى الضياف: مصدر سابق ، جـ١، ص١٥٦.
(٢) ابن الشماع: مصدر سابق ، ص٨٢.
ابن قنفذ: مصدر سابق ، ص١٤٨.
ابن أبى دينار: مصدر سابق ، ص١٤٠.
(٣) ابن قنفذ : مصدر سابق ، ص ١٤٨.
(٤) ابن أبى دينار : مصدر سابق ، ص ١٤٠.
(٥) ابن أبى الضياف: مصدر سابق ، جـ١، ص ١٦٦- ١٦٧.
(٦) الداعى هو أحمد بن مرزوق المسيلى ٦٨١هـ/١٢٨٣م.
عنه انظر:
ابن الشماع: مصدر سابق ، ص ٧٩، ٨٠، ٨١.
ابن قنفذ: مصدر سابق ص ١٤٥.
الزركشى : مصدر سابق ، ص ٤٦، ٤٧، ٤٨، ٤٩، ٥٠.
(٧) ابن قنفذ: مصدر سابق ، ص ١٤٦.

كما كان الحاكم الحفصى للقسم الغربى من الدولة وهو أبو زكريا بن الأمير أبى إسحق الذى كان يحكم من بجاية حسن السيرة، فقد قرب الفقهاء والعلماء واستعان بهم فى ادارة الدولة مثل المحدث أبو العباس الغبرينى الذى اتخذه قاضيا فى بجاية فى هذه الفترة(١) مما يدل على الازدهار الثقافى فى الدولة الحفصية يؤكد ذلك ما قاله العبدرى حين دخل مدينة تونس(٢) لولا أنى دخلتها لحكمت بأن العلم فى أفق الغرب قد محى رسمه وضاع حظه وقسمه "إذ أنه لا يمكن تخيل الازدهار فى الحياة الثقافية دون مساندة وتشجيع الدولة. من الطبيعى أن هذه الثقافة نبعت من مصادر عديدة عبرت عنها رحلة العبدرى.

مصادر الثقافة فى الدولة الحفصية :

تبرز الرحلة المغربية للعبدرى المصادر التى أسهمت فى ازدهار الحياة الثقافية فى الدولة الحفصية فى أواخر القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى فبالإضافة إلى المصادر المحلية، وجد منهلان نهلت منهما الثقافة الحفصية وهما الأندلس وبلاد المشرق واللذان كان تأثيرهما واضحا فى مدينة تونس دون غيرها من مدن الدولة الحفصية التى لم تحظ بازدهار ثقافى وعلمى واضح كما كان الحال من مدينة تونس.

أما **المنهل الأول** فهو بلاد الأندلس التى توافد منها الكثير من العلماء والأدباء نتيجة لسقوط بلدان العدوة الأندلسية الواحدة تلو الأخرى(٣) أملا فى

= ابن الشماع: مصدر سابق ، ص ٨١- ٨٢.

(١) ابن قنفذ: مصدر سابق ص ١٤٨- ١٤٩.

(٢) العبدرى : مصدر سابق ، ص ٤٢.

(٣) سقطت جزيرة ميورقه كبرى الجزائر الشرقية فى سنة ٦٢٧هـ/١٢٣٠م. انظر: ابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة، القاهرة ١٩٥٦، جـ١، ص١٥٥- ١٥٦ =

الاستقرار والاطمئنان، وطمعا فى طيب الإقامة وتوفير الرزق، والعمل فى كنف الدولة الحفصية التى كانت فى حاجة إلى مثل تلك الشخصيات ، فشجعتهم على الهجرة(١). كما أن الموقع الجغرافى لأفريقية لم يجعل منها أرض هجرة قريبة للغاية بالنسبة إلى المسلمين الفارين من الأندلس فحسب بل أيضا مركز عبور بالنسبة إلى الراغبين من هؤلاء فى السفر إلى المشرق لأداء فريضة الحج أو مواصلة دراستهم وترتب على ذلك تأثير الأندلسيين فى شتى فروع العلوم والمعارف الإسلامية فى بلاد الدولة الحفصية.

وحين قام العبدرى برحلته ووصل إلى بلاد الدولة الحفصية التقى بالعديد من هؤلاء العلماء الأندلسيين الذين درسوا علوم الدين وعلوم اللغة العربية. ومن العلماء الذين التقى بهم وقرأ عليهم فى مدينة بجاية أثناء رحلة الذهاب إلى الأراضى الحجازية أبو عبد الله بن صالح بن أحمد الكنانى

= الحلة السيراء ، جـ٢، ص ١٣٨.

ابن الخطيب: الاحاطة فى أخبار غرناطة، القاهرة ١٩٧٣، جـ١، ص٢٨٣. وسقطت حاضرة الإندلس الكبرى قرطبة سنة ٦٣٣هـ/١٢٣٦م.

ابن الخطيب، أعمال الاعلام، تحقيق ليفى بروفنسال، بيروت ١٩٥٦، جـ٢، ص ٣٣٢. كما سقطت بلنسية سنة ٦٣٦هـ/١٢٣٨م وسقطت جزيرة شقر. أواخر ٦٣٩هـ/١٢٤١م، ودانيه سنة ٦٤١هـ/١٢٤٣م وجيان سنة ٦٤٣هـ/١٢٤٥م.

انظر ابن الأبار:الحلة السبراء،جـ٢،ص٣٠٣-ابن الخطيب: الإحاطة، جـ٢ ص٩٩.

المقرى: نفح الطيب فى غضن الأندلس الرطيب، بيروت ١٩٦٨، جـ٤، ٤٧٢. وسقطت شاطبة سنة ٦٤٤هـ/ ١٢٤٦م.

ابن الأبار: الحلة السبراء ، جـ٢، ص ٣٠٣.

وسقطت مرسية سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٦م.

ابن الأبار: مصدر سابق ، جـ١، ص٦٢.

(١) العمرى: مسالك الإبصار فى ممالك الإمصار ،مخطوطة،جـ٤، ورقة ٥٤. =

الشاطبى (٦١٤ - ٦٩٩هـ / ١٢١٣ - ١٢٩٧م) الذى كان فقيها خطيبا راوية وقال عنه العبدرى أنه "شيخ على سنن أهل الدين سالك لسبيل المهتدين دأبه الاقتصار على تجويد الكتاب، ولقى من الشيوخ أعلاما وصيره لقاؤهم والأخذ عنهم اماما قام باقراء العلم فى بجاية"(١).

والتقى العبدرى فى مدينة تونس بالكثير من الفقهاء والعلماء الأندلسيين مثل الفقيه أبى محمد عبد الله بن هارون الطائى القرطبى (٦٠٧ - ٧٠٢ هـ/ ١٢١٠ - ١٣٠٢م) الذى أدرك جملة من أفاضل العلماء، وروى عنهم، وكان من علماء الدين واللغة العربية، كما علم العربية والنحو وقرأ عليه العبدرى كتب الحديث والفقه.(٢)

والتقى العبدرى أيضا فى مدينة تونس بأبى جعفر أحمد يوسف الفهرى اللبلى (٦٢٩ - ٦٩١هـ / ١٢٣١ - ١٢٩١م) الذى كان أيضا من علماء

= محمد العروسى المطوى : السلطنة الحفصية تاريخها السياسى ودورها فى المغرب الإسلامى ببروت، بدون تاريخ، ص ٢١٣.

Brunschvig: La Berberie Orientale Sous Les Hafsides,,Paris 1949, Tome Second , PP. 353-354.

(١) العبدرى : مصدر سابق ، ص ٢٧، ص٢٧٦.

عن أبى عبد الله محمد صالح الشاطبى انظر:

الغبرينى : عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء فى المائة السابعة بيجاية.

تحقيق عادل نويهض، بيروت ١٩٦٩، ص ١٧٩، ١٨٣.

(٢) العبدرى : مصدر سابق ، ص ٤٢، ص ٢٧١.

عنه انظر: السيوطى: بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ١٩٦٤، جـ٢، ص ٦٠، ٦١.

- الصفدى: الوافى بالوفيات ، فيسبادن ١٩٨١، جـ١٧، ص ٥٨٦، ٥٨٧.

- ابن فرحون: الديباج المذهب فى معرفة أعيان علماء المذهب، القاهرة بدون تاريخ، جـ١، ص ٤٥٤، ٤٥٥.

الدين واللغة العربية وقرأ عليه العبدرى وأخذ عنه الكثير من المعارف(١).

والتقى العبدرى بالشيخ الفقيه المسند ابى العباس بن محمد الغماز البلنسى (٦٠٩ - ٦٩٣هـ / ١٢١٢ - ١٢٩٣م) وقد شاهده العبدرى مواظباً فى تدريس الحديث لطلبة العلم فى تونس(٢).

ومن الأندلسيين الذين التقى بهم أيضا فى تونس وأخذ عنهم العلم الفقيه أبو محمد عبد الله بن يوسف بن موسى الأندلسى المولود سنة ٦١٠هـ / ١٢١٣م. وهو من الفقهاء الزاهدين(٣) والتقى بالأديب أبى الحسن على بن محمد بن أبى القاسم بن رزين التجيبى المرسى المولود سنة ٦٢٧هـ / ١٢٢٩م(٤). والفقيه أبى العباس أحمد بن محمد بن ميمون الأشعرى المالقى المعروف بابن السكان الذى سمع من الشيوخ واستجازهم واستجازوا له فاتسعت بذلك روايته.(٥)

---

(١) العبدرى: مصدر سابق، ص٤٣.

عنه انظر: الغبرينى : مصدر سابق ، ٣٤٥، ٣٤٦.

السيوطى: مصدر سابق، جـ١، ص ٤٠٢، ٤٠٣.

المقرى: مصدر سابق ، جـ٢، ص ٢٠٨، ٢٠٩.

ابن مخلوف: شجرة النور الزكية ، ص١٩٨.

(٢) العبدرى : مصدر سابق ص ٢٤٠.

عنه انظر: النباهى : تاريخ قضاة الاندلس، بيروت بدون تاريخ، ص ١٢٢- ١٢٣.

ابن عبد الملك: الذيل والتكملة، بيروت بدون تاريخ، جـ١، ص ٤١١، ٤١٢.

ابن فرحون: مصدر سابق، جـ١، ص٢٤٩ إلى ٢٥٢.

الصفدى، مصدر سابق، فسبادن ١٩٦٩، جـ٧، ص ٣٨٦.

ابن القاضى: درة الحجال فى أسماء الرجال، القاهرة، ١٩٧٠، جـ١ ص٧٩- ٨٠.

(٣) العبدرى : مصدر سابق ، ٢٤٤.

(٤) المصدر السابق، ٢٥٢.

(٥) المصدر السابق، ص٢٦٧، ٢٦٨.

وهكذا أصبحت تونس وبجايةمن مراكز الثقافةالأندلسية الوافدة حيث أفاد منها طلاب العلم والعلماء فيهاتين المدينتين وكذلك المارين بها مثل العبدرى.

أما **المنهل الثانى** وهو المشرق الإسلامى فالجدير بالملاحظة أن وصول العلوم والمعارف من المشرق لم يكن راجعا إلى المشارقة أنفسهم إذ أنهم لم يزوروا أفريقية بأنفسهم خلافاً للجموع الغفيرة الوافدة من الأندلس. ولكن المشرق الذى ظل يتمتع بنفوذ كبير فى نظر المسلمين كان ينشر علومه بواسطة الأفارقة والأندلسيين العائدين منه(١).

وكذلك فإن الثقافة المشرقية وفدت إلى أفريقية عن طريق بعض الأفارقة الذين رحلوا إلى بلاد المشرق طلباً للعلم منهم أبو القاسم بن أبى بكر اليمنى الشهير بابن زيتون (٦٢١ - ٦٩١هـ / ١٢٢٤ - ١٢٩١م) وقد التقى به العبدرى فى تونس فى رحلة العودة ولقبه بالشيخ الفقيه العالم مفتى أفريقية المرجوع إليه فى أحكامها، والتقى هذا العالم فى المشرق بجماعة من أحبار العلماء وسمع منهم وأجازوه، ومنهم الإمام أبو محمد عبد العظيم المنذرى(٢) الذى قرأ عليه اختصاره لصحيح مسلم وقرأ عليه أيضا كتاب البخارى وأخذ أيضا عن شرف الدين أبى عبد الله محمد بن أبى الفضل السلمى المرسى.(٣) وسمع منه موطأ مالك رواية يحيى بن يحيى وأجازه، كماسمع من عز الدين

---

(1) Brunschvig : La Berberie Orientale, Tome 2, P. 354.

(٢) أبو محمد عبد العظيم المنذرى ت ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م مصرى شافعى صاحب التصانيف كان حافظاً كبيراً حجة ثقة برع فى العربية والفقه. انظر :

الصفدى : الوافى بالوفيات، دمشق ١٩٥٣، جـ٣، ص٢٦٤.

العماد الحنبلى : مصدر سابق ، جـ٥، ص٢٧٧ - ٢٧٨.

(٣) أبو عبد الله محمد بن أبى الفضل السلمى المرسى ت ٦٥٥هـ / ١٢٥٧م هو المحدث النحوى له تصانيف كثيرة مع زهد وورع.

العماد الحنبلى : مصدر سابق، جـ٥ ، ص٢٦٩.

عبد العزيز بن عبد السلام(١) مختصر الرعاية من تأليفه. وأجازه رشيد الدين يحيى بن علي بن عبد الله بن العطار(٢). كما أجازه العديد من العلماء(٣).

وممن رحل إلى المشرق من الأفارقة والتقى بهم العبدرى أيضا أبو عبد الله محمد بن أبى القاسم الأزدى ويلقبه بالفقيه وقد لقى هذا العالم بالمشرق عدداً من العلماء أخذ عنهم وأجازوه.(٤)والشيخ الفقيه معين الدين أبومحمد جابر بن القاسم بن حسان الذى لقى بالمشرق الإمام علم الدين السخاوى(٥) فسمع منه وقرأ عليه قصيدة الأمام أبى القاسم الشاطبى فى القراءات وحدث بها عنه.(٦)

كما رحل إلى المشرق من علماء أفريقية الفقيه أبوعلى منصور بن محمد

(١) عز الدين بن عبد السلام الدمشقى ٥٧٧ - ٦٦٠هـ ت / ١١٦١ - ١٢٦٢م برع فى الفقه وبلغ رتبة الإجتهاد انظر :

العماد الحنبلى : مصدر سابق ، جـ٥، ص ٣٠١، ٣٠٢ .

(٢) رشيد الدين يحيى بن على بن عبد الله بن العطار ٦٦٢هـ / ١٢٦٤ المصرى المالكى درس الأصول وتقدم فى الحديث : العماد الحنبلى : مصدر سابق جـ٥، ص٣١١.

(٣) العبدرى : مصدر سابق، ص٢٥٦، عن ابن زيتون انظر :

ابن القاضى : درة الحجال فى أسماء الرجال، ج٣ ص٢٧٧.

ابن فرحون : مصدر سابق ، جـ١، ص٣١٠، ٣١١.

ابن مخلوف : مرجع سابق ، ص١٩٧.

(٤) العبدرى : مصدر سابق، ٢٦٣.

(٥) علم الدين السخاوى هو أبو الحسن على بن محمد عبد الصمد النحوى الشافعى ت ٦٤٣هـ / ١٢٤٦م انتهت إليه رئاسة الإقراء والأدب بدمشق. انظر : العماد الحنبلى : مصدر سابق، جـ٥، ص٢٢٢ ، ٢٢٣.

(٦) العبدرى : مصدر سابق، ص٢٦٥.

عنه انظر : ابن القاضى : مصدر سابق ج٢، ص١٠٢، ١٠٣.

الزواوى المشدالى وقرأ هناك الأصول والفروع ودرسها دراسة واسعة وصار له منها حظ وافر.(١)

والتقت الثقافتان الوافدتان من الأندلس والمشرق مع الثقافة المحلية التى يمثلها العلماء الأفارقة. مما أدى إلى ازدهار الثقافة الحفصية، فقد التقى العبدرى بعدد من الفقهاء وعلماء الدين فى تونس منهم الشيخ الجليل الفاضل المحدث أبو القاسم بن حماد بن أبى بكر الحضرى اللبيدى الذى كان لا يتوانى عن حضور المجلس لاسماع العلم وتعليمه واقراء القرآن.(٢)

والتقى العبدرى أيضا بالشيخ الصالح الفقيه أبى العباس أحمد بن موسى بن عيسى بن أبى الفتح البطرنى الذى كان معتنيا بالعلم وروايته.(٣)

كما اجتمع العبدرى بالشيخ الصالح الفقيه أبى يعقوب يوسف بن إبراهيم ابن أحمد الجذامى المولود سنة ٦١٤هـ / ١٢١٧م وسمع منه العلم.(٤)

ويتضح أيضا الإسهام الأفريقى فى الثقافة الحفصية فى علماء اللغة العربية من الأدباء والنحاة الذين التقى بهم العبدرى فى مدينتى تونس وباجة إذ التقى فى المدينة الثانية بالأديب النحوى أبى على الحسن بن محمد الطبلى الذى كانت همته مقصورة على علوم اللغة العربية، ولذلك قام بجمع أكثر مؤلفاتها وقام بتحصيل مصنفاتها.(٥)

---

(١) العبدرى : مصدر سابق، ٢٧٧.

(٢) المصدر سابق ، ص٢٤٣.

عنه انظر ابن القاضى : درة الحجال، جـ٣ ص٣٧٦.

السراج:الحلل السندسيةفى الأخبار التونسية،تونس١٩٧٠،جـ١، ق٣، ص٦٨٤-٦٨٥.

(٣) العبدرى : مصدر سابق، ص٢٧٥.

عنه انظر : ابن القاضى : مصدر سابق، ج١ ص٣٩، ٤٠.

(٤) العبدرى : مصدر سابق، ص٢٧١.

(٥) المصدر السابق، ص٣٨.

وفى مدينة تونس التقى بالفقيه الأديب أبى عبد الله محمد بن عبدالمعطى النفزى الذى شهر بأبن هريرة، وكان له حظ من الأدب والمشاركة فى فنون عديدة.(١)

والتقى بشيخ الأدباء أبى الحسين على بن إبراهيم التجانى الذى كان من بيت عريق فى العلم والأدب فهو الثانى عشر من الذين قاموا بالإقراء فى مسجد مدينة تونس. وهو بالجملة من خواص أهل العلم واحادهم.(٢)

والتقى العبدرى فى مدينة القيروان بالمؤرخ أبى زيد عبد الرحمن بن محمد الدباغ (٦٠٥ - ٦٩٩هـ / ١٢٠٨ - ١٢٩٩م) وهو فقيه ومحدث وراو للعلم. وقد أثنى العبدرى على مؤلفه "معالم الإيمان" الذى يعتبر مصدراً وثيقا فى التراجم والحياة الثقافية العامة فى القيروان(٣).

الحالة الثقافية العامة فى مدن الدولة الحفصية كما سجلها العبدرى :

يتبين لنا مما أشرنا إليه عن التقاء العبدرى بهؤلاء العلماء سواء كانوا محليين أو وافدين من الأندلس أو عائدين من المشرق أن بعض مدن الدولة الحفصية خاصة تونس كانت مركزاً من مراكز العلم والثقافة، رسم لها العبدرى صورة صادقة تؤكدها كتب التراجم والطبقات ويمكن تقسيم هذه المدن من حيث رقى الحالة العلمية أو تدنيها وانخفاض مستواها إلى ثلاث مجموعات هى :

---

(١) العبدرى : مصدر سابق ، ص٤٤.

(٢) المصدر السابق ، ص٢٥٧.

الصفدى : الوافى بالوفيات، أستانبول ١٩٤٩، جـ٢ ص١٥، ١٦.

(٣) العبدرى : مصدر سابق ، ص٦٦، ٦٧.

وعنه انظر ابن القاضى : درة الحجال، جـ٣، ص١٠٥، ١٠٦، ١٠٧.

الصفدى : مصدر سابق ، فيسبادن ١٩٨٨، جـ١٨، ص ٢٦١.

المجموعة الأولى : وتتمثل فى مدينة تونس حاضرة الدولة وقد أثنى العبدرى على ما وصلت إليه هذه المدينة من رقى وازدهار. فقد تعددت المعارف والعلوم وازدانت بالعلماء والأدباء ورواة العلم، ولذلك يقول مفاخراً بها:"فى تونس لاتنشد بها ضالة من العلم إلا وجدتها ومامن فن من فنون العلم إلا وجدت بتونس به قائماً، ولا مورد من موارد المعارف إلا رأيت بها حوله واردا وقائما، وبها من أهل الرواية والدرايةعدد وافريحلوا الفخار بهم"(١).

وتتمثل **المجموعة الثانية** فى مدن القيروان وباجة وبجاية وقسنطينة إلا أن العبدرى يشير إلى تدنى الحالة العلمية فى هذه المدن ويبحث مجداً فيها عن العلماء، لكنه لم يجد فيها من كبار العلماء إلا عدداً قليلاً(٢) كما يستخدم عبارات بليغة ليعبر بها عن حالة كل مدينة على حدة ففى القيروان يقول: "كسدت سوق المعارف بينهم"(٣) وفى مدينة بجاية يقول : "قد غاض بحر العلم الذى كان به حتى عاد وشلا وعفا رسمه حتى صار طللاً"(٤).

أما **المجموعة الثالثة** فإنها تتمثل فى مدن طرابلس وقابس والجزائر التى لم يجد فيها أى بصيص من نور العلم. ويعبر العبدرى بجمل توضح أسفه على ضياع العلم فيها ففى طرابلس "إنها للجهل مأتم وما للعلم بها عرس"(٥). وفى قابس يقول "إن العلم عندهم ركدت ريحه والجهل لديهم لا يواسى جريحه"(٦) وفى الجزائر يقول أنه "لم يبق بها من هو من أهل العلم

---

(١) العبدرى : مصدر سابق، ص٣٩، ص٤٢.

(٢) المصدر السابق، ص٢٧، ص٣٢، ص٣٨، ص٦٦.

(٣) المصدر السابق، ص٦٤.

(٤) المصدر السابق، ص٢٧.

(٥) المصدر السابق، ص٧٦.

(٦) المصدر السابق، ص٧٥.

محسوب، وإلى فن من فنون المعارف منسوب"(١).

وكما أبرزت رحلة العبدرى المدن التى ازدهرت فيها الثقافة والعلم فإنها أيضاً أشارت إلى أماكن التعليم فى هذه المدن.

الرحلة وأماكن التعليم :

أبرز العبدرى فى رحلته أمكنة التعليم فى مدن الدولة الحفصية التى مر بها والتى تتمثل فى الكتاتيب والمدارس والمساجد ودور العلماء.

أما المكتب أو الكتاب فهو أحد معاهد التعليم الهامة ففيه يتعلم الصبيان مبادئ القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم وبعض الكتابات الدينية التى تسهل فهم العقيدة. فالشيخ أبو جعفر أحمد بن يوسف اللبلى، كانت له أرجوزة مسماه بالعقيدة كان يحفظها لصبيان المكتب فى مدينة تونس حتى ينتفعوا بها(٢). وكان يلقب من يعمل فى المكتب لتعليم الصبيان بلقب المؤدب فقد لقب به الشيخ أبو العباس أحمد بن موسى بن عيسى البطرنى(٣).

وأوضح العبدرى فى رحلته الدور التعليمى الذى قامت به المساجد فى مدن الدولة الحفصية التى مر بها. فقد كانت المســـاجد فى هذه المدن كسائر

---

(١) العبدرى : مصدر سابق، ص٢٦.

(٢) المصدر السابق ، ص٤٢.

(٣) المصدر السابق، ص٢٧٥.

يمكن القول بأن طرق وأساليب التعليم لم تتغير منذ عهد ابن سحنون الذى دونها فى القرن ٣هـ / ٩م فى كتاب آداب المعلمين،، وهو يتضمن بعض المسائل المتعلقة بالتربية مثل طريقة تعليم التلاميذ وأجر المؤدب وأيام العطلات،وختم القرآن جزئياً أو كلياً.

ابن سحنون : آداب المعلمين، تحقيق حسن حسنى عبد الوهاب، تونس ١٩٣١.

Brunschvig: La Berberie Orientale, Tome 2, PP. 357 - 358. -

مساجد بلدان العالم الإسلامى على رأس معاهد العلم والثقافة. وأدت هذه المساجد رسالتها على أتم وجه، والتقى فيها العبدرى بالعديد من العلماء الذين درسوا هذه العلوم المختلفة منهم أبو القاسم بن حماد الحضرمى الليبدى "الذى كان رغم ضعف جسمه وكف بصره لا يتخلف عن المسجد ليلا ولا نهاراً ولا يمل من إسماع العلم وتعليم وإقراء القرآن(١).

كما كان الشيخ الأديب أبو الحسن على بن إبراهيم التجانى من أسرة عرف عنها اشتغالها بالعلم والأدب والتدريس، ولذلك ورث التدريس فى المسجد عن أبائه وقال فى مسجد اقرائه "أنا الثانى عشر مدرسا من أبائى على نسق كلهم قد قعدنا هنا للإقراء"(٢) وهذا النص الذى ذكره العبدرى يؤكد وجود أسر توارث أفرادها مهنة التدريس فى المساجد.

كما أشار العبدرى أيضا إلى أن دور **بعض العلماء** قد أتخذت كمقر لإسماع العلم وإقرائه. ففى مدينة تونس كان العلامة أبو العباس أحمد بن محمد الغماز الخزرجى مواظبا لإسماع العلم بداره. وكان يبدأ التدريس من أول النهار حتى صلاة الظهر، ثم يستريح ويكمل التدريس من العصر إلى صلاة المغرب(٣).

أما ما يخص **المدارس** فى مدن الدولة الحفصية التى مر بها العبدرى فلم يقدم العبدرى سوى إشارة واحدة عن وجود مدرسة فى مدينة طرابلس. وقد زارها العبدرى وأشاد بروعة مبانيها وقال : "ما رأيت فى المغرب مثل

---

(١) العبدرى : مصدر سابق، ص٢٤٣.

(٢) المصدر السابق، ص٢٥٧.

(٣) المصدر السابق ، ص٢٤١.

مدرستها المذكورة"(١) لكنــه يـرى أن محاسـنها مقصـورة علـى الصـورة دون العلم. وقد حضر بها العبـدرى، تدريـس الشـيخ المسـن القـاضـى الخطيـب أبـو محمد عبد الله وقال عنه " ليس له رواية"(٢).

ومما يدعو للدهشة أن العبدرى قد أغفل ذكر مدرستين فى مدينة تونس، وهو الذى يتسم بالصدق والدقة فى النقل، كما كان دائـم البحـث والسـؤال عـن الحالة العلمية فى كل مدينة حـل بهـا(٣) ولكننـا نسـتطيع أن نقـرر بمـا توافـر لنـامن مصـادر، أن المـدارس قـد انشـئت فـى تونـس منــذ فجـر قيـام الدولـة الحفصية، وحرص على إنشائها أمراء وأميرات البيت الحفصى. فهم أول مـن أخذ عن المشرق فكرة إنشاء المدرس الحكومية فى بلاد المغرب(٤).

وأول مدرسـة أنشـئت فـى تونـس هـى المدرسـة الشـماعية التـى أقامهـا مؤسس الدولة أبو زكريا بطريق سوق الشماعين(٥) وذلك سنة (٦٢٩هـ /٩١ - ١٢٩٢م)(٦) ولا يمكن القول بأن العبدرى لـم يذكرهـا فـى رحلتـه لخـراب عمارتها وعدم قيامها بدورهـا التعليمـى، لأن الرحالـة البلـوى قـد زارهـا سـنة ٧٢٦هـ / ١٣٧٥م، فى رحلة ذهابه إلى الحج، واجتمع فيها بأخوانه من الطلبة

---

(١) العبدرى : مصدر سابق ، ص٧٧.

(٢) المصدر السابق والصفحة.

(٣) المصدر السابق، ص٢٦، ص٢٦٤، ص٢٣٩، ٢٤٠.

(4) Brunschvig: Quelques Remorques Historiques sur les medersas de Tunisie, Revue Tunnisienne, Tunis 1931, P. 270.

(٥) ابن الشماع : مصدر سابق ، ص٥٦.

ابن أبى دينار : مصدر سابق ، ص١٣٥.

ابن أبى الضياف، مصدر سابق ، جـ١ ص١٥٧.

(٦) ابن الشماع : مصدر سابق، ص٥٦.

والمدرسين(١). كما أشار العمرى فى موسوعته إلى وجودها(٢).

واقتدت الأميرة عطف - أم الحاكم أبو محمد المستنصر بن المولى أبى زكريا (٦٤٧ - ٦٧٥هـ / ١٢٤٩ - ١٢٧٧م) بسنة الأمير أبى زكريا الأول حين أمرت ببناء جامع التوفيق والمدرسة التوفيقية(٣).

وقامت المدارس الحفصية بتدريس كتب الأصول "أصول الدين وأصول الفقه "بالإضافة إلى كتب الفقه المالكى "علم الفروع"(٤) وهذا يخالف ما ذهب إليه برونشفيك من أن المدارس التونسية خلفت دور الحديث التى أنشأها الموحدون والتى كانت مخصصة لدراسة الحديث ومذهب ابن تومرت(٥).

وهكذا كان ظهور المدارس الحفصية بالإضافة إلى أمكنة التعليم الأخرى ذات أثر كبير فى ازدهار الحياة الثقافية فى المدن التى مر بها العبدرى خاصة مدينة تونس.

---

(١) انظر : الطاهر بن محمد المعمورى : محقق كتاب الأدلة البينة النورانية لابن الشماع، ص٥٦.

(٢) مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار، مخطوطة، جـ٤، ورقة٥٤.

(٣) ابن الشماع : مصدر سابق ، ص٦٣.

ابن أبى دينار : مصدر سابق ، ص١٣٤.

(4) Bel: La religion musulmane en Berberie, Tome 1, Paris 1938, pp. 278, 279, 280.

(5) Quelques Remorques Historiques sur les Medersas de Tunisie, p.275.

نختلف مع رأى برنشفيك لأن أمراء الدولة الحفصية اتبعوا سياسة دينية مرنة فلم يقفوا أبداً فى وجه المذهب المالكى بسبب تعلق قسم كبير من رعايا الدولة بالمذهب المالكى كما حدث فى عهد المهدى بن تومرت. والخلفاء الموحدين الأوائل. فقد كانت كتب الفقه المالكى تدرس علناً، وتولى الفقهاء المالكيون مناصب الفتوى والقضاء، عن المذهب المالكى فى الدولة الحفصية انظر، ص ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣.

الكتب التى درست فى أمكنة التعليم :

قرأ العبدرى العديد من المؤلفات العلمية على يد من التقى بهم من العلماء خلال مروره بأراضى الدولة الحفصية فى رحلة الذهاب والعودة وتلقى هذه المؤلفات الضوء على الكتب التى شاعت دراستها فى أمكنة التعليم المتعددة التى أشرنا إليها من قبل. وقد أقتصرت هذه المؤلفات على العلوم الشرعية وعلوم اللغة العربية.

أولا : العلوم الشرعية :

١ - علم القراءات :

اهتم المسلمون بهذا العلم لمعرفة كيفية النطق بألفاظ القرآن الكريم وتفيد الرحلة العبذرية أن كتاب "التيسير" للإمام أبى عمرو الدانى(١)، كان من الكتب التى يعتمد عليها فى معرفة القراءات(٢)، وأنه كان للإمام أبى عمرو كتاب آخر فى القراءات بعنوان "المحتوى على الشواذ من القراءات"(٣).

كما ذاع صيت قصيدة الشيخ أبى القاسم محمد بن فيرة الرعينى الشاطبى(٤) (٥٣٨ - ٥٩٠هـ / ١١٤٤ - ١١٩٤) فى القراءات فقد نظم القواعد الواردة فى كتاب التيسير واختصرها فى قصيدته المعروفة والتى

---

(١) هو أبو عمرو عثمان بن سعيد بن عثمان الدانى ٣٧١ - ٤٤٤هـ / ٩٨١ - ١٠٥٣م كان له اهتمام بسائر العلوم عموما والقراءات خصوصا وبلغ الغاية فيها.

انظر: العماد الحنبلى : مصدر سابق ، جـ٣، ص٢٧٢.

(٢) العبدرى : مصدر سابق ، ص٢٧، ٤٣، ٢٤١، ٢٤٤.

(٣) المصدر السابق، ص٢٧٦.

(٤) عن أبى القاسم محمد بن فيرة الرعينى الشاطبى.

انظر: العماد الحنبلى : مصدر سابق جـ٤، ص٣٠١، ٣٠٢.

تسمى بالشاطبية(١)، فسهل على الناس استذكارها وحفظها، وعدتها ألف ومائة وثلاثة وسبعون بيتا(٢). أن الشاطبى نظم هذه القصيدة لأهل مصر(٣).

٢ - علم رسم الصحف :

هو العلم الذى يبحث فى أوضاع حروف القرآن الكريم فى المصحف ورسومه الخطية(٤) ومن أشهر هذه الكتب فى هذا العلم كتاب "المقنع" لأبى عمرو الدانى. وقد قرأ العبدرى هذا الكتاب على العديد من العلماء فى بجاية وتونس.(٥)

٣ - علم الحديث :

اطلع العبدرى فى رحلته على العديد من كتب الصحاح التى تتناول أقوال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى من أصول التشريع الإسلامى، منها كتاب "صحيح مسلم (ت ٢٦١هـ / ٨٧٥ م)(٦) وكتاب صحيح البحارى(٧) وجامعه(٨) (ت ٣٦٩هـ / ٩٧٠ م) وكتاب "جامع الترمذى"(٩)

---

(١) العبدرى : مصدر سابق، ٢٧، ٤٣، ٢٦٥.

(٢) بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسى، ص٤٠٦.

(٣) العبدرى : مصدر سابق ، ص٢٧.

(٤) ابن خلدون : المقدمة، دار البيان بيروت ١٩٦٨، ص٤٣٨.

(٥) العبدرى : مصدر سابق، صفحات ٢٧، ٤٣، ٢٤١، ٢٤٤.

(٦) المصدر السابق، صفحات ٤٣، ٦٧، ٢٤١.

(٧) المصدر السابق ، ص٦٧، ٢٧١.

(٨) المصدر السابق، صفحات ٤٣، ٢٤٠،.٢٤٣.

(٩) ا مصدر السابق، ص٢٤١.

(ت ٢٧٨هـ / ٨٩٢ م) وسنن أبى داود(ت ٢٧٤هـ / ٨٨٨ م)(١) وسنن الدارقطنى(٣٨٥هـ / ٩٩٥ م)(٢) وقرأ العبدرى كتاب "المصابيح" للإمام حسين بن مسعود الشافعى(ت ٥١٦هـ / ١١٢١ م)(٣) وعدد أحاديثه أربعة آلاف وسبعمائة وتسعة عشر حديثاً(٤) وكتاب "المغنى فى علم الحديث" للحافظ زين الدين عمر بن زيد بن بدر بن سعيد الموصلى الحنفى(٥) وكتاب ابن الطيلسان(٥٧٥ - ٦٤٢هـ / ١١٧٩ - ١٢٤٤ م) فى الحديث بعنوان "الوعد والإيجاز"(٦) و"كتاب الأربعين حديثاً فى فضل الحج" لابن مسدى(٧) ، وكتاب فى "حصر الضعيف من الحديث" تأليف أبى حفص عمر ين بدر الحنفى(٨).

---

(١) العبدرى : مصدر سابق ، ص ٢٤١.

(٢) المصدر السابق، ص٢٧١.

عن الدار قطنى انظر : طبقات الشافعية، جـ٢، ص١٣١ - ١٣٢ .

(٣) العبدرى : مصدر سابق ،ص٢٧٧.

(٤) حاجى خليفة: كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون، استنابول ١٩٤٣، جـ٢، ص١٦٩٧، ١٦٩٨.

(٥) العبدرى : مصدر سابق، ص٢٤٥.

حاجى خليفة: مرجع سابق، جـ٢ ص١٧٥.

(٦) العبدرى : مصدر سابق، ص٢٧١.

(٧) المصدر السابق، ص٢٤٥.

ابن مسدى هو أبو المكارم جمال الدين مسدى المهلبى الأزدى الأندلسى شيخ السنة ٥٩٨ - ٦٦٣هـ / ١٢٠١ - ١٢٦٤م.

انظر المقرى : مصدر سابق ، جـ٢، ص٥٩٤ ، ٥٩٥.

(٨) العبدرى : مصدر سابق ، ص٢٤٥.

أبو حفص عمر بن بدر الحنفى الموصلى ت ٦٢٢هـ / ١٢٢٤م بدمشق حدث عن ابن كليب وجماعة انظر : العماد الحنبلى : مصدر سابق ، جـ٥، ص١٠١.

وكتاب "الأربعين المسلسلة" لأبى الحسن بن المفضل المقدسى(١). "والأحاديث الأربعين فى عموم رحمة الله لسائر المؤمنين للدباغ"(٢).

٤ - كتب الفقه والعبادات :

يعتبر كتاب "موطأ الإمام مالك بن أنس"(٣) رواية يحيى بن يحيى من أهم كتب الفقه التى قرأها العبدرى فى رحلته(٤) وبالإضافة إلى هذا الكتاب فقد قرأ كتاب "الأعلام بقواعد الإسلام" للقاضى أبى الفضل عياض بن موسى.(٥) واطلع أيضاً على كتاب "فضل قيام الليل وفضل تلاوة القرآن" للإمام أبى بكر الآجرى.(٦) وكتاب "الشبهات"(٧) "والقربة إلى رب العالمين

---

(١) العبدرى : مصدر سابق، ص٢٧٥.

(٢) العبدرى : مصدر سابق، ص٦٨.

عن الدباغ : انظر ترجمته عند العبدرى ص٦٦ إلى ٦٨.

(٣) مالك بن أنس هو عبد الله مالك بن أنس بن أبى عامر ت ٩٧هـ / ٧٧٥م ألف الموطأ وهو ليس من كتب الحديث بل من كتب الفقه، والرواية المشهورة رواية يحيى بن يحيى ت٢٣٤هـ / ٨٤٨ م.

انظر بروكلمان : تاريخ الأدب العربى، جـ٣، ص٢٧٥.

(٤) العبدرى : مصدر سابق ، انظر صفحات ٢٧، ٣٢، ٤٢، ٢٤١، ٢٧١.

(٥) المصدر السابق ص٢٤٥.

القاضى عياض هو أبو الفضل عياض بن موسى (٤٧٦ - ٥٤٤هـ / ١٠٨٣-١١٤٩م) امتاز بعلم واسع بالتاريخ وانساب العرب وفى النحو والفقه والحديث.

المقرى : مصدر سابق ، جـ١ ص٣٥٨.

(٦) العبدرى : مصدر سابق، ص٢٨.

الأجرى هو أبو محمد بن عبد الله الأجرى البغدادى، له مصنفات فى علم الحديث. ت. ٣٦٠ هـ/ ٩٧٠ م عنه انظر العماد الحنبلى : مصدر سابق ، جـ٣، ص٣٠٥.

(٧) العبدرى : مصدر سابق، ص٢٧٧.

فى فضل الصلاة على سيد المرسلين" لمؤلفيهما أبى القاسم بن بشكوال(١). وكتاب "التسبيح الموجز" للفقيه الخطيب العالم أبى الحسن سهل بن مالك.(٢)

٥ - كتب السيرة النبوية :

من كتب السيرة التى اطلع عليها العبدرى أثناء مروره بمدن الدولة الحفصية كتاب "الشمائل" للترمذى وهو فى وصف خلق النبى وخلقه.(٣) وكتاب "مختصر السيرة" لأبى الحسين أحمد بن فارس بن زكريا اللغوى.(٤)

٦ - كتب التصوف :

اطلع العبدرى أثناء مروره فى الدولة الحفصية على أهم كتب التصوف التى ذاع صيتها فى المشرق الإسلامى. منها كتاب "عوارف المعارف" للإمام أبى حفص السهروردى.(٥) وكتاب "مختصر حلية الأولياء" للحافظ أبى

---

(١) المصدر السابق، ص٢٧٧.

أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن مسعود بن بشكوال (٤٩٤ - ٥٧٨هـ /١١٠٠ - ١١٨٢ م) كان تلميذاً لابن رشد ألف خمسين تأليفاً فى أنواع مختلفة.

انظر العماد الحنبلى، مصدر سابق ج٤، ص٢٦٠ - ٢٦٢.

(٢) العبدرى : مصدر سابق، ٢٧١.

(٣) المصدر السابق ص٢٨، ٤٣.

(٤) المصدر السابق، ص٢٤٥.

أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا اللغوى المتوفى سنة (٣٩٠هـ / ١٠٠٠م) كان أماما فى علوم شتى خصوصاً اللغة فقد أتقنها انظر : ابن خلكان : وفيات الأعيان، بيروت ١٩٧٠، جـ١، ص١١٨، ١٢٠.

(٥) العبدرى : مصدر سابق، ٢٤٤.

نعيم.(١) وبالإضافة إلىهذين الكتابين فقد قرأ كتاب "مفاوضة القلب العليل"على طريقة أبى العلاء المعرى فى ملتقى السبيل للعلامة أبى العباس بن الغماز(٢).

ثانيا : كتب اللغة العربية التى قرأها العبدرى أثناء مروره فى مدن الدولة الحفصية :

١ - النحو :

قرأ العبدرى كتاب "المقرب فى النحو" للشيخ الأستاذ النحوى أبى الحسن على بن مؤمن بن محمد بن على بن منظور بن عصفور الحضرمى الأشبيلى (٥٩٧-٦٦٩هـ / ١٢٠٠ - ١٢٧٠م)(٣) وقرأ كتاب "شرح الفصيح

= السهروردى هو شهاب الدين ابو حفص عمر بن محمد الشافعى (٥٣٩ - ٦٣٢هـ / ١١٤٤ - ١٢٣٤م).

انظر : العماد الحنبلى : مصدر سابق ، جـ٥، ص١٥٣ - ١٥٤.

(١) العبدرى : مصدر سابق، ص٢٧٧.

الحافظ أبى نعيم هو أحمد بن عبد الله بن أحمد الشافعى ت ٤٣٠هـ / ١٠٣٧م تفرد بعلو الإسناد مع الحفظ والأستيجاز من الحديث وفنونه.

العماد الحنبلى : مصدر سابق، جـ٣، ص٢٤٥.

(٢) العبدرى : مصدر سابق ، ص٢٤١.

عن أبى العباس الغماز انظر ترجمته بالرحلة المغربية، ص٢٤٠، ٢٤١.

(٣) العبدرى : مصدر سابق، ص٣٨.

عن أبى الحسن على بن مؤمن بن عصفور الحضرمى الأشبيلى انظر :

العماد الحنبلى : مصدر سابق ، جـ٥، ص٣٣٠، ٣٣١.

لثعلب"(١) وشارحه هو الأستاذ النحوى الفاضل أبو جعفر اللبلى.(٢) واطلع على كتاب "شرح الجمل" للزجاجى(٣) و"كتاب سيبوية"(٤) ومن الكتابات الأدبية التى اطلع عليها العبدرى "مقامات الحريرى"(٥) و"المقامات الروحية" لمنشئها أبى بكر بن عياض القرطبى(٦).

---

(١) ثعلب هو علامة الأدب شيخ اللغة العربية أبو العباس أحمد بن يحيى (٢٠٠ – ٢٩١ هـ/ ٨١٥-٩٠٤م) وفى الفصيح بضبط صيغ ألفاظ مشكوك فيها مع تفسيرها انظر:

العماد الحنبلى : مصدر سابق، جـ٢، ص٢٠٧.

بروكلمان : تاريخ الأدب العربى ، جـ٢، ص٢١٠ – ٢١١.

(٢) أبو جعفر اللبلى: انظر ترجمته بالرحلة المغربية ص٤٣، ٤٤.

(٣) العبدرى : مصدر سابق ، ص٣٨.

الزجاجى هو أبو إسحاق إبراهيم بن السرى بن سهل الزجاج ت ٣١١هـ/ ٩٢٣م وقيل ٣١٦هـ/ ٩٢٨م عنه انظر: العماد الحنبلى : مصدر سابق ، حـ٢، ص٢٧٧.

(٤) العبدرى : مصدر سابق، ص٢٧٦.

سيبويه هو أبو بشر عمرو بن عثمان المتوفى سنة ١٨٠هـ/ ٧٩٦م كان أعلم المتقدمين والمتأخرين بالنحو

انظر : ابن خلكان : مصدر سابق ، جـ٣، ص٤٦٣، ٤٦٥.

(٥) العبدرى : مصدر سابق ، ص٢٥٧.

الحريرى هو أبو على محمد قاسم بن الحريرى البصرى ٤٤٦ – ٥١٥هـ / ١٠٥٤ – ١١٢٢م كتابه من أوسع كتب الأدب العربى ذيوعاً فى العالم الإسلامى انظر : العماد الحنبلى : مصدر سابق ، جـ٤ ، ص٥٠.

حاجى خليفة : كشف الظنون، جـ٢، ص١٧٨٧ إلى ١٧٩٠.

(٦) العبدرى : مصدر سابق ، ص٢٥٧.

١ - النقول الشعرية :

ومما تمتاز به رحلة العبدرى أنها تحتوى على نقول شعرية كثيرة من إنتاج الأدباء والعلماء الذين التقى بهم، أو ممن أنشدوه آياه من إنتاج معاصريهم أو غيرهم.(١) وقد أثبت العبدرى هذه النقول بعد أن قرأها.

ومن النصوص الشعرية الكاملة التى أوردها فى رحلته"قصيدة رحلة ابن الفكون" الذى نظم فيها وصف المراحل من بلده قسنطينة إلى مدينة مراكش حين قصدها للإقامة فيها.(٢) وأتبع العبدرى القصيدة بنقد ينم عن تعمقه فى اللغة وعن سعة اطلاعه.(٣)

كما قيد العبدرى فى رحلته" القصيدة الشقراطيسية"(٤) للشيخ الفقيه الصالح أبى زكريا يحيى بن على الشقراطسى التوزرى المتوفى سنة ٤٦٦هـ / ١٠٧٤م(٥) وتحتوى على مائة وثلاثة وثلاثين بيتاً(٦) وهى فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم وقد أثنى العبدرى على هذه القصيدة بعبارات بليغة(٧).

---

(١) العبدرى : مصدر سابق، ص٣٣ ، ٣٤ .

(٢) انظر القصيدة بالرحلة صفحات ٣٤، ٣٥.

(٣) العبدرى : مصدرسابق ، صفحات ٣٥، ٣٦، ٣٧.

(٤) شقراطس مدينة تقع فى اقليم الجريد ، انظر :

العمرى : مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار، مخطوط، جـ٤، ورقة ٦٨.

(٥) الشقراطسى هو أبو عبد الله الشقراطسى ت٤٦٦هـ / ١٠٧٤م من أبناء توزر. أقرأ العلم ببلدة كان له الباع فى العلوم الدينية وفى فنون الأدب انشد قصيدته بالمدينة المنورة.

انظر : حسن حسنى عبد الوهاب : مجمل تاريخ الأدب التونسى، تونس بدون تاريخ، ص١٦٣.

(٦) انظر القصيدة بالرحلة صفحات ٤٥، ٤٦، ٤٧، ٤٨، ٤٩.

(٧) العبدرى : مصدر سابق ، ٤٩ ، ٥٠.

كما سجل العبدرى فى رحلته قصيدة الشيخ الأديب الأوحد أبى الحسن حازم بن محمد بن حازم الأندلسى القرطاجى "فى مدح المصطفى صلى الله عليه وسلم والتى أجاد فيها وأبدع. ولذلك قال العبدرى عنها أنها : "مما ينبغى أن يقيد ولا يهمل"(١)

كما قيد تخميس(٢) القصيدة المشهورة لابن الفضل بن النحوى(٣) المسماه "المنفرجة"(٤) ومخمسها أبى عبد الله المصرى وأتبع العبدرى التخميس بدراسة نقدية يقول فيها أن هذا التخميس "مقال وليس لبعض أقسامه بالبيت اتصال"(٥)

ثالثاً : كتب فى التربية والتعليم :

اطلع العبدرى على كتاب "رياض المتعلمين" للحافظ ابى نعيم(٦).

---

(١) العبدرى : مصدر سابق ، ص٢٥٨، إلى ٢٦١.
وتتألف من ثمانين بيتاً.

(٢) التخميس : المخمس من الشعر ما كان على خمسة أجزاء وليس ذلك فى وضع العروض، وقال أبو إسحاق إذا اختلطت القوافى فهو المخمس وشئ مخمس أى له خمسة أركان انظر :

ابن منظور : لسان العرب، مطبعة دار المعارف، القاهرة بدون تاريخ، مادة خمس، جـ٢، ص١٣٦٢.

(٣) ابن الفضل بن النحوى هو يوسف بن محمد بن يوسف التوزرى ت٥١٣هـ /١١١٩م وهو من كبارالعلماء ممن قصر حياته على نشر العلم وتدوينه وله مؤلفات جليلة.

حسن حسنى عبد الوهاب : مجمل الأدب التونسى، ص١٣٣.

(٤) العبدرى : مصدر سابق ، ص٥٣، إلى ٥٩.

(٥) المصدر السابق، ص٥٩.

(٦) المصدر السابق، ٢٨، ٢٥٧.

رابعاً : كتب فى التاريخ والطبقات :

قرأ العبدرى أثناء مروره بمدن الدولة الحفصية من كتب التاريخ والطبقات كتاب "الصلة لابن بشكوال"(١) وكتاب "الإكتفاء فى مغازى المصطفى ومغازى الثلاثة الخلفاء"(٢) وقرأ كتاب "درر السمط فى خير السبط لأبى عبد الله القضاعى، وهو جزء واحد وضعه فى مقتل الحسين رضى الله عنه(٣).

واطلع على كتاب "معالم الإيمان وروضات الرضوان فى مناقب المشهورين من صلحاء القيروان" للمؤرخ ابن الدباغ(٤) وكتاب "وفيات المشاهير من أهل كل فن "لأبى عبد الله محمد بن عبد المعطى النفزى.(٥)

وقد منح العلماء الذين التقى بهم العبدرى فى أماكن التعليم المختلفة الأجازات العلمية لطلاب العلم سواء كانوا من أهلها أو المارين بها مثل العبدرى.

---

(١) العبدرى : مصدر سابق، ص٢٥٢.

(٢) المصدر السابق، ص٢٤١.

مؤلف كتاب الأكتفاء هو الحافظ أبو الربيع سليمان بن موسى الكلاعى ت٦٣٤هـ / ١٢٣٦م. انظر :

حاجى خليفة : كشف الظنون ، جـ١، ١٤١.

(٣) العبدرى : المصدر السابق ، ص٢٧١، ٢٧٩.

أبو عبد الله القضاعىهو محمد بن سلامة بن جعفرالمصرى الفقيه الشافعى ت٤٥٤هـ /١٠٦٢م كان متقنا فى عدة علوم ، انظر: العماد الحنبلى: مصدر سابق ، جـ٣، ص٢٩٣.

(٤) العبدرى : مصدر سابق، ص٦٧.

(٥) لمصدر السابق، ص٤٤.

أبو عبد المعطى النفزى : انظر ترجمته بالرحلة ص٤٤.

الأجازات العلمية :

فقد حصل العبدرى من خلال لقائه بالعلماء الذين درس عليهم على العديد من الأجازات العلمية(١) التى كان يحرص عليها العالم لضمان انتشار علمه سليماً صحيحاً خالياً من التحريف والخطأ بقدر الإمكان، ويحرص عليها أيضا المتعلم لينال علماً مضبوطاً لا شك فى نسبته إلى صاحبه، وليثبت انتماءه إلى عالم موثوق فيه. ومن ثم كانت الأجازات عملاً شخصياً بحتا من اختصاص الأستاذ وحده ولا صلة له بالمؤسسات التعليمية(٢).

وتمنح الأجازات بعد قراءة العلم أو سماعه على يد شيخ أو عالم أو فقيه أو أديب، ويدون فى الأجازة كل ما سمعه الطالب من العالم. وكان يكتبها الأخير بخط يده وتفيد سماع الطالب العلم فى الكتب التى سمعها أو قرأها وتفهمه لها حتى تصح له الرواية(٣). فقد أجاز أبو محمد عبد الله بن محمد ابن هارون الطائى القرطبى العبدرى بعد أن قرأ عليه الموطأ برواية يحيى بن يحيى، وكتاب التيسير للإمام أبى عمرو المقرى، ونصوصاً من صحيح مسلم(٤).

وتتيح الأجازة التى يحصل عليها الدارس من شيخه ممارسة مهنة التدريس، فهى أذن له بدواية العلم الذى تلقاه من شيخه(٥).

ويجوز أن تتعدد الأجازات، ما دام الطالب يأخذ العلم عن عدد من الأساتذة العلماء فقد حصل العبدرى فى رحلته على أجازات عديدة من العلماء

---

(١) الرحلة المغربية ، ص٤٣.

(٢) محمد عبد الرحمن غنيمة : تاريخ الجامعات الإسلامية ، ص١٢٢-١٢٧م.

(٣) العبدرى : مصدر سابق ص٤٣ - ٤٤، ص ٢٢٧ ، ص ٢٤٤.

(٤) المصدر السابق، ص٤٣.

(٥) المصدر السابق، ٣٠، ٤٤، ٢٢٧.

والأدباء والفقهاء الذين التقى بهم .(١)

وتوضح الرحالة المغربية للعبدرى أن الأجازة كانت تمنح لمن لم يحضر مجالس إسماع العلم أو إقرائه على من يقوم بروايته من العلماء. على أساس أن يقوم من حضر سماع العلم برواية ما سمعه على من لم يحضر مجلس العلم، ويشترط موافقة العالم على ذلك، وهذا ما حدث مع العبدرى الذى كان يأخذ الأجازة من العلماء له ولابنه محمد الذى لم يسافر معه فى رحلة الحج.(٢) فقد أجاز العبدرى وابنه محمد كل من أبى جعفر أحمد الفهرى اللبلى(٣) والمؤرخ أبى زيد الدباغ.(٤)

وهذا النشاط العلمى الذى يبرز من خلال ما عرضناه له حتى الآن يبين أن سوق الكتب ونسخها كانت رائجة، مما أدى إلى ظهور مكتبات فى بعض مدن الدولة الحفصية التى مر بها العبدرى.

---

(١) الرحلة المغربية، ص٤٣، ٤٤، ٦٧، ٢٤٤، ٢٥٢، ٢٥٦، ٢٦٥.

(٢) المصدر السابق صفحات ٤٣، ٤٤، ٦٧.

يرى كراتشوفسكى إن الابن كان يرافق اباه فى الرحلة .

انظر : تاريخ الأدب الجغرافى، جـ١، ص٢٦٧ لكن بالرجوع إلى الرحلة يتبين خطأ هذا الرأى إذ بعث العبدرى إلى ابنه وهو فى طريقه إلى القيروان بقصيدته كما كان يحرص على الحصول على الاجازة لابنه الغائب.

انظر : العبدرى : مصدر سابق ، صفحات من ٧٢، ٧٤.

(٣) المصدر السابق ، ص٤٤.

(٤) المصدر السابق، ص٦٧.

المكتبات فى الدولة الحفصية :

كما تلقى الكتب التى قرأها العبدرى خلال لقائه مع العلماء الذين التقى بهم أثناء اجتيازه أراضى الدولة الحفصية، الضوء على وجود هذه المكتبات خاصة لدى هؤلاء العلماء فقد كانت هناك سوق رائجة لشراء الكتب. فقد اشترى العبدرى فى مدينة تونس بعد عودته من أداء فريضة الحج كتاب جامع البخارى(١). والسؤال الذى يطرح نفسه هل وجدت مكتبات عامة؟

أشار العبدرى فى رحلته لمكتبة جامع القيروان التى زارها واطلع على محتوياتها ووجد بها مصاحف كثيرة مكتوبة بخط مشرقى ومنها من كتب بالذهب وقد ضمت هذه المكتبة أيضا كتب محبوسة "محبسة" قديمة التاريخ من عهد سحنون وقبله، منها موطأ ابن قاسم وغيره. كما رأى بها مصحفاً كاملا غير منقوط ولا مشكول، وخطه مشرقى، وطوله شبران ونصف فى عرض شبر ونصف وذكروا له أنه المصحف الذى بعثه الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه إلى المغرب، وأنه بخط عبد الله بن عمر رضى الله عنه.(٢) وبالإضافة إلى جامع القيروان انشرت المكتبات فى المساجد الأخرى فى أنحاء الدولة وقامت بدور هام فى نشر العلوم والمعارف لدى جمهور كبير من الطلاب والعلماء(٣).

كما أسس أول أمراء الدولة الحفصية الأمير أبو زكريا مكتبة ضخمة ضمت من كتب العلم ستة وثلاثين ألف مجلد(٤) لم يشر إليها العبدرى فى

---

(١) العبدرى : مصدر سابق، ص٢٤٠.

(٢) الرحلة المغربية، ص٦٥.

(3) Brunschvig: La Berberie Orientale, Tome 2, P. 367.

(٤) ابن الشماع : مصدر سابق، ص٥٧.

ابن أبى دينار : مصدر سابق، ص١٣٥.

رحلته. كما كان هناك موظف يتولى النظر فى أمر "خزانـة الكتـب"(١) وهكـذا وجه أمراء الدولة الحفصية عنايتهم لجمع الكتب وفتحوا أبواب خزائنها الثمينة للخاصة والعامة وجمعوا عددا وافرا من المخطوطات فى شـتى الموضوعـات وخصصـوا لهـا جناحـا منفرداً مـن مبـانى القصبـة كـان يقصدهـا البـاحثون والطلاب من كل حدب وصوب.(٢)

المذهب المالكى :

اعتبرت الدولة الحفصية وريثة لدولة الموحدين فـى تونـس خاصـة وأن أبا حفص عمر بن يحيى جـد الملـوك الحفصيين كـان أحد المشيدين لأركـان الدولة الموحدية، كما كان شديد الإخلاص للدعوة الموحدية التى تركزت علـى دراسة الأصلين "أصول الدين، وأصول الفقه"، وفرض كتـب ومبـادئ المهـدى فى كل مكان، ومنع تدريس كتب الفقه المالكى. والسؤال الـذى يطـرح نفسـه هـل حـافظت الدولـة علـى السياسـة الدينية للدولـة الموحديـة أم عـاد المذهـب المالكى إلى احتلال مكانته السابقة كمذهب لرعايا الدولة؟(٣)

فى ضوء رحلة العبدرى يتضح أن حكام الدوله الحفصية اتبعوا سياسـة دينية مرنة فلم يقفوا أبدا فى وجه المذهـب المـالكى مـع اعتبـار أنفسـهم ورثـه لدولة الموحدين. وهذا الموقف الذى اتخذه هؤلاء الحكـام يرجـع لتعلـق أغلـب رعايـا الدولـة الحفصيـة بـالمذهب المـالكى الـذى لـم تسـتطع السياسـة الدينيـة الموحدية القضاء عليه(٤) إذ تسجل مشاهدات العبدرى وجود فقهاء من أتباع

---

(١) التجانى: رحلته، قدم لها حسن حسنى عبد الوهاب، تونس، ١٩٥٨ ص ٢٧٦.

(٢) حسن حسنى عبد الوهاب: ورقات عن الحضارة العربية ، ص ٣٣.

(٣) عن الدعوة الموحدية انظر : المهدى بـن تومـرت : أعـز مـا يطلـب، الجزائـر ١٩٠٣، ص٥ إلى ٢٥.

(4) Bel: Op. Cit., Tome 1, P. 219.

مذهب مالك كانوا يدرسون كتب الفروع طبقا لما كتبه فقهاء المالكية وكان الكتاب الأساسى فى التعليم هو كتاب موطأ الإمام مالك.(١)

ويؤكد الغبرينى مشاهدات العبدرى. فهو يذكر العديد من التراجم لمشاهير علماء بجاية - عاصمة القسم الغربى للدولة الحفصية - الذين قاموا بتدريس الفقه طبقا لمذهب مالك.(٢) بل أن الغبرينى (ت ٧١٤هـ / ١٣١٥ م) يذكر شيوخه فنرى منهم شيوخا درسوا الفقه طبقا لكتاب مذهب مالك.(٣)

ولم يكتف الحفصيون بافساح المجال لهذا التطور، بل نشأ بينهم وبين الفقهاء المالكيين تعاون حقيقى، لدرجة أن هؤلاء الفقهاء سيطروا على كافة المؤسسات الدينية الرسمية وتولوا مناصب الفتيا والقضاء(٤) فتولى أبو القاسم

---

(١) العلماء الذين درسوا الفروع كما جاء فى الرحلة المغربية هم :
أبو عبد الله بن محمد بن صالح بن أحمد الكنانى الشاطبى . انظر ص٢٧.
الشيخ أبو على حسن بن بلقاسم بن باديس القسنطينى. انظر ص٣٣.
أبو محمد عبد الله بن محمد بن هارون الطائى القرطبى. انظر ص٤٢.
أبو جعفر أحمد بن يوسف الفهرى اللبلى . انظر ص٤٣.
أبو العباس أحمد بن محمد الغماز، انظر ص٢٤١.
أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم بن أحمد بن عقاب الجذامى . انظر ص٢٧١ .

(٢) عنوان الدراية فى من عرف من العلماء بالمائة السابعة ببجاية، صفحات ٩٣، ٩٩، ٢٢١، ٢٦٦.

(٣) المصدر السابق، ص٣٥٥، ٣٥٨.

(4) Brunschvig: La Berberie, Tome 2, PP. 291 - 292.
هادى روجر : المجتمع فى المغرب بعد زوال الموحدين، موسوعة اليونسكو تاريخ أفريقيا العام، م٤، ص١١٩.

ابن أبى بكر اليمنى الشهير بابن زيتون المالكى المذهب منصب الفتيا(١) والقضاء فى حاضرة أفريقية إلى أن مات.(٢)

كما تولى أبو العباس أحمد بن محمد الغماز المالكى المذهب (ت٦٩٣هـ / ١٢٩٤م) منصب القضاء ببجاية، وتولى اقامة صلاة الفريضة بجامعها الأعظم ثم استدعى لحاضرة أفريقية وقدم للقضاء.(٣)

وتمدنا المصادر التاريخية الأخرى بأسماء العديد من الفقهاء المالكيين الذين شغلوا مناصب دينية فى الدولة الحفصية مثل أبى عبد الله محمد بن صالح بن أحمد الكنانى الذى تولى ببجاية خطة العدالة ثم تولى النظر فى الأنكحة نائبا عن قضاتها. كما تولى اقامة الفريضة والخطبة بجامعها الأعظم ما ينيف عن ثلاثين عاما.(٤) ومثل أبى عبد الله محمد بن عبد الرحمن الشاطبى (ت ٦٩١هـ / ١٢٩٢م) الذى تولى قضاء حاضرة أفريقية(٥) والفقيه أبى عبد الله بن محمد بن يعقوب (ت ٦٩١هـ / ١٢٩٢ م) الذى تولى قضاء الجماعة فى تونس.(٦)

---

(١) العبدرى : مصدر سابق ، ص٢٥٦، الزركشى : مصدر سابق، ص٥٣.
أحمد بابا : نيل الابتهاج، ص٣٦٢.
(٢) الغبرينى : مصدر سابق ص٩٧ ، ٩٨.
ابن قنفذ : الفارسية ، ص١٥٠.
الزركشى : مصدر سابق . ص ٥٣.
(٣) العبدرى : مصدر سابق ، ص٢٤٠.
الغبرينى: مصدر سابق، ص١١٩،١٢٠، ١٢١. ابن قنفذ:مصدر سابق، ص١٥١.
ابن أبى الضياف : مصدر سابق ، ص١٦٦.
(٤) الغبرينى : مصدر سابق ، ص٨٢ .
(٥) المصدر السابق ، ص١١٥، ١١٦.
(٦) ابن قنفذ : مصدر سابق ، ص١٥٠.

وقد وصل نفوذ فقهاء المالكية فى الدولة إلى حد تدخلهم فى أمر ولاية العهد. فقد كان الأمير أبو حفص عمر وهو الحاكم الحفصى المعاصر للعبدرى، قد عهد إلى ابنه عبد الله ولكن المشايخ لم يرضوا بذلك لصغر سنه فاستشار الشيخ أبا محمد عبد الله المرجانى فى هذا الأمر فأشار عليه بتولية أبى عبد الله محمد أبى عصيدة ونفذ هذا الحاكم مشورة الشيخ أبى عبد الله المرجانى.(١)

وهكذا عاد المذهب المالكى إلى سابق مكانته وكان ذلك بمثابة نهاية للدعوة الموحدية فى أفريقية.(٢) وإذا كان العبدرى قد أمدنا أيضا ببعض العلماء الذين أنكبوا على دراسة علم الأصول(٣) فهذا من نتاج التأثيرات المشرقية والنشاط العقلى الذى ساد فى عهد كبار الخلفاء الموحدين.(٤) كما أن دراسة الأصلين "أصول الدين، وأصول الفقه" لا يعنى اتباع الدعوة الموحدين.

يمكننا بعد هذه الدراسة عن الحياة الثقافية فى الدولة الحفصية فى ضوء رحلة العبدرى أن نخلص إلى النتائج التالية :

أولا : شغف العبدرى بلقاء العلماء والأدباء والشعراء واستجازة المشهود لهم، ولذلك رحل إلى الحجاز بهدف أداء فريضة الحج والإتصال بالعلماء فى المراكز الثقافية التى مر بها.

---

(١) ابن قنفذ : مصدر سابق : ص١٥٢.

الوزير السراج : مصدر سابق ، جـ١، ق٤، ص١٠٣٩.

(2) Bel: op, cit., Tome 1, P. 281.

(٣) الرحلة المغربية ، ص٢٥٦.

(4) Bel: op, cit., Tome 1, P. 281.

ثانيا : أن العبدرى قد أهمل ذكره فى كتب التراجم والطبقات ولم يخصه مؤلف بترجمة وافية لكن يمكن الحكم على ثقافته بالتنوع والعمق ويتبين ذلك من اهتماماته العلمية العديدة التى ظهرت من خلال هذه الدراسة.

ثالثاً : أسهمت الثقافتان الوافدتان من الأندلس والمشرق بالإضافة إلى الثقافة المحلية فى نمو ورقى الثقافة فى بلاد المغرب فى عهد الدولة الحفصية.

رابعاً : من خلال الرحلة المغربية أمكن تحديد أمكنة التعليم المختلفة التى انتشرت فى ذلك العصر، بالإضافة إلى المكتبات التى ساعدت فى نشر العلوم والمعارف بالدولة الحفصية.

خامساً : تلقى الرحلة الضوء على الكتب والشروح والقصائد والمختصرات التى شاعت دراستها فى الدولة الحفصية. ويؤكد ذكر العبدرى لها على إلمامه بثقافة عصره واطلاعه على المصادر المعروفة فى وقته.

سادساً : فى ضوء رحلة العبدرى نجد أن المذهب المالكى قد عاد إلى احتلال مكانته فى المناطق التى ضمتها الدولة الحفصية وصارت كتب الفقه المالكى من كتب التعليم، كما شغل فقهاء المالكية المناصب الدينية وكان ذلك نهاية للدعوة الموحدية فى تلك المناطق.

سابعاً : تمتاز الرحلة بالأسلوب العلمى فهناك أمانة لدى العبدرى فى النقل والرواية كما تمتاز الرحلة بسهولة الأسلوب ووضوح التعبير.

ثامناً : وأخيراً بالرغم من أمانته وجديته فى البحث عن الحالة العلمية فى كل مكان يصل إليه فقد تغافل عن ذكر تشجيع الحاكم الحفصى المعاصر لرحلته للعلم والعلماء كما أفادت بذلك المصادر التاريخية الأخرى. كما لم يذكر المدارس التى كانت موجودة فى مدينة تونس أثناء مروره بها، كما لم يشر إلى المكتبة العامة التى أنشئت فى مدينة تونس.

من هذه النتائج يتبين لنا أن العبدرى قد نجح فى رسم صورة حقيقية لما وصلت إليه الحالة الثقافية من ازدهار أو ضعف فى المدن الحفصية التى مر بها أثناء ذهابه إلى بلاد الحجاز وعودته من هذه الرحلة مما يدل على أهمية هذه الرحلة كمصدر لدراسة الحياة الثقافية فى الدولة الحفصية فى القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى.

مصادر البحث

- ابن الأبار: (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبـي بكر ٥٩٥ - ٦٥٨هـ /١١٩٩ - ١٢٦٠م):

الحلة السيراء، جـ١ ، جـ ٢، تحيق حسين مؤنس، القاهرة ١٩٦٣م.

التكملة لكتاب الصلة ، جـ١ ، جـ٢ ، تحقيق السيد عزت العطار ، القاهرة ١٩٥٦.

- أحمد بابا التنبكتى: (٩٦٣ - ١٠٣٦هـ /١٥٥٣ - ١٦٢٦م):

نيل الإبتهاج بتطريز الديباج ، أشراف وتقديم عبد الحميد عبد الله الهرامه، الطبعة الأولى ، طرابلس ١٩٨٩.

- التجانى (أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد قام برحلته فى البلاد التونسية والقطر الطرابلسى من ٧٠٦- ٧٠٨ هـ /١٣٠٦- ١٣٠٨م).

الرحلة التجانية ، تونس ١٩٥٨.

- ابن خلكان: (أحمد بن محمد بن أبى بكر ٦٠٨ - ٦٨١ هـ /١٢٠٢ - ١٢٨٢م)

وفيات الأعيان ، تحقيق أحسان عباس ، بيروت ١٩٧٠.

- ابن الخطيب (لسان الدين بن محمد ٧٢٣ - ٧٧٦ هـ /١٣١٣ - ١٣٧٤م):

أعمال الأعلام ، الجزء الثانى نشر ليفى بروفنسال تحت عنوان تاريخ أسبانيا الإسلامية ، بيروت ١٩٥٦.

الإحاطة فى أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان ، القاهرة ١٩٧٣ ، ١٩٧٤.

- ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد ت ٨٠٨ هـ /١٤٠٥م):

المقدمة، بيروت ١٩٦٨.

العبر وديوان المبتدأ والخبر، بيروت ١٩٨٣.

دراسة وعرض لكتاب

"دفاع عن القرآن ضد منتقديه"

للدكتور عبد الرحمن بدوى

عرض وتحليل : أ. د. عطية القوصى

كلية الآداب – جامعة القاهرة

أصدر الأستاذ الدكتور عبد الرحمن بدوى، أستاذ الفلسفة والعلوم الفلسفية والإنسانية مجموعة إسلامية باللغة الفرنسية من باريس، موجهة للغرب الأوربى، وهى تتألف من ثلاث كتب تدافع عن الإسلام ونبى الإسلام وكتاب الإسلام المقدس، القرآن.

وقد جاءت هذه الكتب تحت العناوين التالية :

١ – دفاع عن القرآن ضد منتقديه، وقد صدر سنة ١٩٨٩ "Defense du Coran contre ses critiques"

٢ – دفاع عن حياة النبى محمد ضد المنتقصين لقدره، وقد صدر سنة ١٩٩٠ (Defense du la vie du Prophete Muhammad contre ses detracteurs).

٣ – الإسلام كما إرتاه: فولتير، وهيردر، وجيبون، وهيجل.

"Islam vu par Voltaire, Herder, Gibbon, Hegel"

ولقد تناولنا بالدراسة والعرض فى العدد السابق لمجلة "المؤرخ المصرى" للكتاب الثانى، ونحن اليوم بصدد دراسة وعرض أول كتب هذه المجموعة القيمة، وهو كتاب "دفاع عن القرآن ضد منتقديه (العائبين عليه)".

والكتاب يقع فى ٢٣١ صفحة من القطع المتوسط، وهو يعالج ثلاث عشرة موضوعاً خاصة بالقرآن، تعرض لها المستشرقون الأوربيون خلال القرنين الحاليين الأخيرين. وقد جاء ترتيب هذه الموضوعات فى الكتاب بعد المقدمة كالتالى :

١ - ما هو مفهوم صفة "أمى" التى وردت فى القرآن ووصف بها النبى محمد.
٢ - التشابه غير الصحيح بين القرآن والأنجيل.
٣ - معنى كلمة "فرقان" التى اتصف بها القرآن.
٤ - مزاعم المستشرق مارجوليوث الكاذبة عن القرآن.
٥ - المستشرق جولدزيهر ومحاولته إيجاد تشابه غير واقع بين الإسلام واليهودية.
٦ - ذكر الصابئة فى القرآن.
٧ - ذكر الرسل فى القرآن.
٨ - محاولة فاشلة لقراءة تصورات هيلينية فى القرآن.
٩ - البسملة، وإدعاء أصلها فى الإنجيل.
١٠ - فشل كل محاولة لتحديد وقت زمنى فى ترتيب آيات القرآن.
١١ - مسألة الكلمات غير العربية الواردة فى القرآن.
١٢ - وضع التنصيصتين فى القرآن حول عبارة "يا أخت هارون".
١٣ - أمر هامان فى القرآن.

وفى مقدمة الكتاب يعرض أ. د. بدوى لهجوم المستشرقين على القرآن، الجوهر الأساسى للإسلام، فى الشرق مثلما فى الغرب، وذلك منذ قبيل النصف الثانى للقرن الأول الهجرى (السابع الميلادى). واستعرض الكاتب هذا الهجوم بداية بما قام به "يوحنا الدمشقى" (حوالى ٦٥٠ - ٧٥٠م) حين كتب موجها عدة إنتقادات حول النسق العام للقرآن. وأورد بعد ذلك أمثلة لهذه الإنتقادات التى وردت على لسان إثيوميوس زيجابينوس (١٣٣١ - ١٣٥٩م)، ونيكيتاس البيزنطى. وقد جاء أول هجوم مسهب على القرآن فى كتاب نيكيتاس هذا الذى جاء تحت عنوان: "نقض كتاب المسلمين الزائف" (Confutatio Falsi Libri quem Scripsit Mohammedes Arabs).

وأضاف الكاتب فى مقدمة كتابه بأنه قد نشب جدل دينى واسع حول الإسلام فى أوربا فى النصف الثانى فى القرن التاسع الميلادى، مثل نفس الجدل الذى حدث حول الكنيسة الأرثوزكسية الأرمينية وموقفها من كنيسة روما الكاثوليكية. وقد ازداد نطاق هذا الجدل حول القرآن والإسلام عموماً، حين أصدر الإمبراطور البيزنطى "يوحنا كانتا كوزينوس" (وهو يوحنا السادس من أسرة آل باليولوجوس، وقد حكم فى الفترة ما بين ١٣٤٧م حتى سقوط القسطنطينية فى يد المسلمين ١٤٥٣م) كتابين له باللغة اللاتينية، وهما :

(a) Contra Sectam Mahometicam Apologiae.

(b) Contra Mahometem Orationes Quatuor

وقد صدرت هذه الكتابات فى الإمبراطورية الشرقية الرومية باللغة اليونانية، بخلاف ما ظهر آنذاك من كتابات حول هذا الموضوع، وقد كتبت بالسريانية، والأرمينية ، والعزبية.

ويضيف الكاتب قائلا بأن هذا الجدل البيزنطى حول الإسلام وحول القرآن قد توقف فى بلاد الروم بعد أن سقطت عاصمتهم القسطنطينية فى يد المسلمين سنة ١٤٥٣م. لكن أوربا المسيحية حملت من بعدها لواء الجدل حول الإسلام والهجوم عليه.

وقد بدأ المسيرة الجديدة الكاردنيال نيقولا دى كوسا (١٤٠١ - ١٤٦٤م) بتوجيه من البابا "بيوس الثانى" الذى دعاه ليكتب تنديداً بالإسلام وبكتاب الإسلام؛ فكتب نيقولا رسالة هجاء وطعن فى الإسلام والقرآن جاءت ت عنوان: "غربلة القرآن" Cribratio al Chorani ، نشرت فى سويسرا سنة ١٥٣٤، وجاءت فى ثلاث كتب؛ فى الأول منها حاول أن يبين قدسية الإنجيل وأنه كتاب الله المنزل إستنادا على ما ورد بصدده من نصوص فى القرآن. وفى الثانى جاء بشرح للعقيدة الكاثوليكية، وفى الثالث عرض لنصوص معينة فى القرآن ادعى أنها نصوص متناقضة.

ولقد كتب عدد من الآباء الدومينيكانيين والجزويت كتابات أثاروا فيها جدلاً وتشويهاً للإسلام وللقرآن منذ بداية القرن الخامس عشر وحتى القرن التاسع عشر. و. 'ت هذه الكتابات على التوالى كالآتى:

- كتب دينيس (الأمين) Denys le Chartreux (ت ١٤٧١م)، كتاباً بعنوان: "ضد الخداع المحمدى" Contra Berfidiam Mahometi ، ونشر فى كولونيا سنة ١٥٣٣م.

- كتب ألفونس سبينا Alfonso Spina (ت ١٤٩١م) كتاباً بعنوان "الاعتقاد القوى" Fortalitum Fidei ، ونشر فى ليم سنة ١٥٢٥م.

- كتب يوحنا دى تيريكريماتا Jean de Turrecremata (ت ١٤٦٨م) كتاباً بعنوان: "نقض مبادئ عقيدة محمد" Tractatus Contra Principales perfidi Mahometis ، وقد نشر فى باريس وروما سنة ١٦٠٦م.

- كتب لويس العادل Louis Vives (ت ١٥٤٠م)كتاباً بعنوان: "حقيقة الاعتقاد المسيحى فى مواجهة الإسلام" De veritate Fidei Christianae contra Mahomedanos ، وقد نشر فى بال بسويسرا سنة ١٥٤٣م.

- وكتب ميشيل نان Miechelle Nan كتاباً بعنوان: "معارضة الكنيسة اليونانية الرومانية والديانة المسيحية للقرآن" Ecclesiae Romanae Graece et Religio Christiana, contra Al Coranum. وقد نشر فى باريس سنة ١٦٨٠م.

وفى أوائل القرن السابع عشر ظهرت أول دراسة مخصصة لمهاجمة القرآن، وقد جاءت فى كتاب "نصوص القرآن العالمية" Alcorani Textus Universus للراهب لودفيكومرعشى Lodovico Marracci (١٦١٢ - ١٧٠٠م)، الذى صدر فى بادوا سنة ١٦٩٨، فى جزئين، جاء الجزء الأول

منهما تحت عنوان: "الشواهد والأمارات الأولى على نقض القرآن" Prodromus ad Refutationem Alcorani ، وقد أعيد نشر هذا الجزء مع شرح وتعليق تفصيلى فى أربعة أجزاء سنة ١٦٩١م وقد تعرض مرعشى، الذى يجيد العربية والسريانية والعبرية، فى هذا الجزء لحياة النبى محمد من خلال ما ورد عنه فى المصادر العربية. والجزء الثانى من الكتاب يحتوى على بعض نصوص القرآن بالعربية مع ترجمة لاتينية لها، مع تعليق وشرح لأوجه الغموض والتناقض التى رآها مرعشى من جانبه. وبرغم أن دراسة مرعشى عن القرآن تعد بداية الدراسة الجادة فى أوربا لهذا الكتاب المقدس، إلا أنه جاء مليئاً بالأخطاء الخطيرة والمجادلات الساذجة المنعدمة القيمة. وللأسف فإن هذه الأخطاء والتجاوزات التى وردت فى كتاب مرعشى نجدها تتكرر بنصها فى كل ما كتبه المستشرقون الأوربيون عن القرآن وعن الإسلام عموماً خلال القرنين التاليين لظهور هذا الكتاب المتحامل.

حقيقة أنه إبتداءً من منتصف القرن التاسع عشر يبذل المستشرقون الأوربيون جهوداً ملحوظة ليكونوا موضوعيين فى كتاباتهم عن القرآن وعن الإسلام ويكونوا أكثر تدقيقاً فى بحوثهم العامة. لكن الدكتور بدوى يأسف لأنه اكتشف من خلال ما قرأه فى كتاباتهم عن الإسلام ونبى الإسلام والقرآن، أنها تمتلئ بأوهام لا وجود لها فى الحقيقة وتعصب وتحامل شديدين، رغم توفر أدوات فهم اللغات لديهم منذ بداية منتصف هذا القرن وحتى اليوم، إضافة إلى توافر نشر بعض نصوص المخطوطات. ويؤكد د. بدوى من أن هؤلاء المستشرقين مصرون على تشويه صورة الإسلام والتشكيك فى القرآن والتمسك بالخرافات والنظريات الزائفة التى وضعها كتابهم فى العصور الوسطى ولم يستطيعوا هم تجنبها أو تحرى الدقة والحقيقة بصددها؛ بل أخذوها بعبلها ودافعوا عنها دفاع المتعصب الأعمى دون أى وجه حق.

ويقول د. بدوى أن هذه الكتابات المتحاملة قد استفزته كباحث مدقق يبحث دوماً عن الحقيقة ويدحض ما دونها "ولذلك سوف أفضح فى كتابى هذا الجرأة الغاشمة عند هؤلاء المستشرقين حول القرآن، وكذلك سوف أفضح فى كتبى الأخرى تحاملهم على الإسلام وعلى نبى الإسلام".

ولا ينسى د. بدوى فى آخر موضوعات كتابه أن يشيد بموقف مشرف لمستشرق عادل أنصف الإسلام بعد دراسة مضنية صحيحة قام بها للإسلام ولأصوله ومصادره الحقيقية بعيداً عن التعصب الأعمى والحقد الدفين، هذا المستشرق هو "أدريان ريلان" Adrien Riland وقد اكتشف مؤرخنا الكبير نزاهة وعدالة هذا المستشرق حين كان يدرس موضوع الأديان عند الفيلسوف الألمانى الشهير "كانت" Kant ، وبرجوعه إلى المصادر المتخصصة فى هذا الموضوع التى أشار إليها الفيلسوف الألمانى "كونيزبرج" Konigsberg وإشاراته الكثيرة لآراء ريلان، وعند اطلاعه على مؤلفات ريلان حول الإسلام اكتشف د. بدوى كلمات الحق التى قالها هذا المستشرق عن الإسلام وسط خضم الكم الهائل من الافتراءات والتحاملات والأكاذيب التى نشرها المستشرقون عنه طوال العصور الوسطى وخلال العصر الحديث، منذ القرن الثالث عشر الميلادى وحتى اليوم.

ولقد ولد أدريان ريلان فى مدينة ريب Ryp بشمال هولندا سنة ١٦٧٦م، وتوفى فى النمسا سنة ١٧١٨، وله كتاب هام بالألمانية عن الإسلام بعنوان: "الدين الإسلامى" De Religione Mohammadico ، وصدر فى طبعتين الأولى سنة ١٧٠٥ والثانية ١٧١٧. وله أيضا رسالة وجهها إلى "أخيه بيير ريلان" المحامى بأمستردام يتحدث فيها عن الجرم الهائل الذى أرتكبه الكتاب الأوربيون المسيحيون فيما كتبوا قبله عن الإسلام، وفى هذه الرسالة كتب ريلان بالنص قائلاً: "إن أولئك الذين غبنوا الأسلام، هم دون شك، أغبياء وحمقى لأنهم نظروا لهذا الدين بعين التعصب، ولم يدرسوا

التراث الطيب الذى خلفته هذه العقيدة وما قدمه الإسلام والمسلمون للشعوب الأخرى من حضارة زاهرة خلال القرن العاشر الميلادى؛ فى وقت كان المسيحيون فيه والغرب الأوربى يعيشون فى تخلف وانحطاط. بناءً عليه يجب علينا أن ندرس الإسلام من خلال مصادره العربية الصحيحة؛ الأمر الذى سيتيح لنا فرصة رؤية هذا الدين من واجهة مخالفة تماماً لتلك الرؤية التى اعتاد الغرب عليها. يجب أن أقُر واُعترف بصدق أننى بعد دراسة محايدة للعقيدة الإسلامية أنى وجدت لها وجهاً غير الوجه الذى سبق أن عرفته عنها؛ الأمر الذى يضع فى أعناقنا مسئولية أن نعرف العالم بكل الأوجه الصحيحة لهذه الحقيقة التى أغفلها كتاب الغرب عنها عن عمد".

ويقول د. بدوى عن ريلان: ".. ومن خلال هذه الروح المتسامحة العادلة توصل ريلان إلى نتائج وأحكام عن الإسلام جاءت عادلة ألف مرة ومتزنة ألف مرة عن أحكام أقرانه من كتاب الغرب. وإن عرض أقوال ريلان عن الإسلام ومناقشتها لهو خير لنا من عرض ومناقشة الهراء الكثير الذى كتبه أقرانه على طول التاريخ. ويواصل د. بدوى قوله عن ريلان فيقول: "ولقد اتهم الباباوات ريلان فى دفاعه عن الإسلام لكونه بروتستنتيا ومخالفاً لمذهب الكنيسة الكاثوليكية. وينفى ريلان عن نفسه هذا الإتهام بقوله: إن دافعى لذلك هو البحث عن الحقيقة حيثما وجدت، وإغلاق كل الأبواب فى وجه الأكاذيب. وأننى أعتبر أن من أهم الأعمال الحميدة التى قمت بها هى وضع الدين الإسلامى الواسع الإنتشار فى مكانه الواضح الصحيح أمام أعين الناس بعد أن أزحت عنه غيوم القدح والمثالب التى وضعت بصدده زوراً وبهتانا"

ويذكر د. بدوى أسباباً جعلت المستشرقين الأوربيين يبتعدون عن الحقيقة بصدد القرآن والإسلام منها :

١ – اقتصار معرفة هؤلاء المستشرقين باللغة العربية على المعانى الحرفية للألفاظ دون فهم المعنى وفهم المضمون الاصطلاحى لهذه الألفاظ.

٢ – نقص معلوماتهم عن المصادر العربية وضحالة معلوماتهم عنها.

٣ – التمسك بالأفكار التى كانت سائدة فى العصور الوسطى بصدد الإسلام وعدم محاولة تصحيحها.

٤ – التعصب الأعمى المقيت الذى ورثوه كابراً عن كابر ضد الإسلام وضد نبى الإسلام،ويظهر هذا التعصب خصوصاً عند هرتشفيلد H.Hirschfld وسبرنجر A. Springer، وهو روفيتز J. Horovitz، وسبير H. Speyer .

ويختتم د. بدوى مقدمة كتابه بالقول من أنه لم يتعرض فى هذا الكتاب لكل ما تعرض له المستشرقون فىالشرق والغرب منذ القدم، ولكنه سوف يقتصر على معالجة القضايا القرآنية الهامة التى طرحها المستشرقون خلال الفترة الزمنية المحصورة ما بين منتصف القرن التاسع عشر ومنتصف قرننا العشرين. وقد ذكر أنه اتبع فى كشف كذب هؤلاء المستشرقين المنهج الوثائقى والموضوعى الواضح، الذى تظهر من خلاله الحقيقة التى تفضح ذلك التحامل على القرآن وتجعله فى النهاية يحرز النصر على منتقديه والمتحاملين عليه.

• • •

وأول **الموضوعات** التى ناقش فيها د. بدوى المستشرقين فى كتابه، موضوع: مفهوم صفة (الأمى) التى وصف بها النبى محمد عليه السلام وقد وردت هذه الصفة فى آيتين متتاليتين من آيات سورة الأعراف (الآية ١٥٧، ١٥٨) فى قوله تعالى: ﴿ الذين يتبعون الرسول النبى الأمىّ الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر .... قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً الذى له ملك السموات والأرض

- ابن أبى دينار (أبى عبد الله محمد بن أبى القاسم القيروانى كان حيا سنة ١١١٠ هـ /١٦٩٩م):
المؤنس فى أخبار أفريقيا وتونس تحقيق محمد شمام، الطبعة الثانية ، تونس ١٩٦٧م.
- الذهبى (محمد بن أحمد بن عثمان ت ٧٤٨ هـ /١٣٧٤م):
تذكرة الحفاظ، الجزء الرابع ، الطبعة الثانية ، حيدر آباد ١٣٤٠هـ .
- الزركشى (أبو عبد الله محمد بن أبراهيم ت بعد ٨٩٤هـ / ١٤٨٩م):
تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق محمد ماضور ، تونس ١٩٥٥.
- السراج (محمد بن محمد الأندلسى الوزير ت ١١٤٩هـ / ١٣٧٦م):
الحلل السندسية فى الأخبار التونسية، تقديم محمد الحبيب الهيله، الجزء الأول ، القسم الثالث والرابع، تونس ١٩٧٠ م.
- السيوطى (الحافظ جلال الدين عبد الرحمن ٨٤٩ -٩١١ هـ / ١٤٤٣ – ١٥٠٥م) :
بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٦٤م .
- ابن الشماع(أبو عبدالله محمد بن أحمد كان موجوداً فى القرن٩هـ /١٥ م):
الأدلة البينة النورانية فى مفاخر الدولة الحفصية ، تحقيق الطاهر بن محمد المعمورى، تونس ١٩٨٤.
- الصفدى (صلاح الدين خليل بن أيبك ٦٩٦-٧٦٤هـ /١٢٩٧ – ١٣٦٥م):
الوافى بالوفيات ، جـ ٢ ، استانبول ١٩٤٩م ، جـ٣ ، دمشق ١٩٥٣، جـ ٧ فيسبادن ١٩٦٩، جـ ١٧ ، فيسبادن ١٩٨١، جـ ١٨ ، فيسبادن ١٩٨٨.

- ابن أبى الضياف (أحمد ت ١٢٢١ هـ / ١٨٧٤م):
اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان ، الجزء الأول، تونس ١٩٦٣.
- العبدرى (أبو عبد الله محمد بن محمد، قام برحلته سنة ٦٨٨هـ/١٢٨٩ م):
رحلته المسماه بالرحلة المغربية ، حققه وقدم له محمد الفاسى ، الرباط، ١٩٦٩.
الرحلة المغربية، تحقيق أحمد بن جدو، نشر كلية الأداب الجزائرية قسطنطينة ، بدون تاريخ.
- ابن عبد الملك (أبو عبد الله محمد بن محمد الأنصارى المراكشى):
كتاب الذيل والتكملة لكتابى الموصول والصلة ، السفر الأول ، القسم الأول ، بيروت بدون تاريخ.
- العماد الحنبلى (أبو الفلاح عبد الحى بن أحمد ت ١٠٨٩ هـ / ١٧٠١ م):
شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، بيروت ١٩٦٦ م.
- العمرى (شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله ٧٠٠ - ٧٤٩هـ / ١٣٠١ - ١٣٤٩ م):
مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ، الجزء الرابع ، مخطوطة مصورة فى دير الدومنيكان برقم 1X760/2 أصدرها فؤاد سزكين ، فرانكفورت ١٩٨٨ - ١٩٨٩.
- العينى (بدر الدين أبى محمود بن محمد ٧٦٢ - ٨٥٥ هـ /١٣٧٠ - ١٤٥١ م):
عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان حوداث وتراجم ٦٩٩- ٧٠٧ هـ /١٢٩٩- ١٣٠٧ م ، تحقيق محمد محمد أمين ، الجزء الرابع ، القاهرة ١٩٩٢.

- الغبريني (أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبد الله ٦٤٤-٧١٤هـ/١٢٤٤ - ١٣١٤م) :

عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق عادل نويهض، الطبعة الأولى ، بيروت ١٩٦٩م.

- ابن فرحون (برهان الدين أبراهيم بن على المالكي ت ٧٩٩ هـ /١٤١١م):

الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، بدون تاريخ .

- ابن القاضي (أحمد بن القاضي المكناسي ٩٦٥ - ١٠٢٥ هـ / ١٥٧٢ - ١٦٣٧ م):

جذوة الأقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس ، القسم الأول، الرباط ١٩٧٣ م.

- ذيل وفيات الأعيان المسمى درة الحجال في أسماء الرجال ، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٧١.

- ابن قنفذ القسنطيني (ابو العباس أحمد بن حسين بن على ت ٨٠٩ هـ /١٤٠٧م):

الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية ، تحقيق محمد النيفر وعبد المجيد التركي، تونس ١٩٦٨.

كتاب الوفيات - تحقيق عادل نويهض، الطبعة الأولى ، بيروت ١٩٧١.

- المقرى (أحمد بن محمد التلمساني ت ١٠٤١هـ /١٦٣١م):

نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب - تحقيق د. أحسان عباس ، بيروت ١٩٦٨م.

- ابن منظور :

لسان العرب ، دار المعارف ، القاهرة ، بدون تاريخ.

- النباهى : (أبو الحســن بن عبد الله بن الحسن المالقى، ت نهاية القرن ٨هـ /١٤م).
تاريخ قضاة الأندلس (كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا) بيروت بدون تاريخ.

المراجع العربية المعربة:

- آنخيل جنثالث بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسى ، ترجمة حسين مؤنس ، الطبعة الأولى القاهرة ١٩٥٥.
- حاجى خليفة : كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون ، استانبول ١٩٤٣.
- حسن حسنى عبد الوهاب : ورقات عن الحضارة العربية بأفريقية التونسية ، تونس ١٩٦٤م .
مجمل تاريخ الأدب التونسى ، تونس بدون تاريخ .
- الحسن الشاهدى: أدب الرحلة بالمغرب فى العصر المرينى ، الجزء الأول ، الرباط ١٩٩٠.
- حسين مؤنس : تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٨٦.
- زكى محمد حسن : الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ، بيروت ١٩٨١م.
- كراتشكوفسكى : تاريخ الأدب الجغرافى العربى، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ، القاهرة ١٩٦٣.
- محمد بن تاويت : الوافى بالأدب العربى فى المغرب الأقصى، الطبعة الأولى ، الجزء الثانى، الدار البيضاء ١٩٨٣.
- محمد العروسى المطوى: السلطنة الحفصية تاريخها السياسى ودورها فى المغرب الأسلامى، بيروت بدون تاريخ.

- محمد بن محمد مخلوف : شجرة النور الزكية فى طبقات المالكية ، القاهرة ١٣٤٩هـ.

- محمد النيفر : عنوان الأريب عما نشأ بالمملكة التونسية من عالم أديب ، الطبعة الأولى ، تونس ١٣٥١ هـ.

- نقولا زيادة : الجغرافيا والرحلات عند العرب ، بيروت ١٩٦٢ .

الرحالة العرب ، القاهرة ١٩٥٦.

- هادى روجرادريس : المجتمع فى المغرب بعد زوال الموحدين . موسوعة تاريخ أفريقيا العام ، اليونسكو ، م ٤ ، باريس ١٩٨٨.

المراجع الأجنبية :

1. Bel, A : La Religion Musulmane en Berberie Esquisse d'histoire et de Sociolagie Religleuses, Tome 1, Paris 1938.
2. Brunschvig, R.: La Berberie Orientale Sous Les Hafsides des Origines, Tome Second, Paris 1947.
3. Quelques Remorques Historiques sur les Medersas de Tunisie, Revue Tunisienn, Tunis 1931.
4. The Ecncyclopedia of Islam, New Edition, Art, Alabdari.

عرض الكتب

لا إله إلا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون﴾.

كذلك فهناك صفة " الأميين " التى وردت فى القرآن الكريم فى أربعة مواضع:

١ - فى الآية الثانية من سورة الجمعة: ﴿هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين﴾.

٢ - وفى الآية ١٩ من سورة آل عمران: ﴿فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فأن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد﴾.

٣ - فى الآية ٧٥ من سورة آل عمران: ﴿ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لايؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾.

٤ - فى الآية ٧٨ من سورة البقرة: ﴿ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانى وإن هم إلا يظنون﴾.

يقول د. بدوى أن التفسير المستحسن والمقبول عند علماء تفسير القرآن وعلماء اللغة ذلك التفسير الذى أوجزه "لسان العرب" فى القول بأن محمداً وصف فى القرآن بالأمى لأنه ينتسب إلى أمة العرب التى أرسل رسولاً فيها، ولم تكن هذه الأمة تكتب ولم تقرأ ما قد كتب. وقد أرسله الله تعالى رسولا لايعرف الكتابة ولم يقرأ كتاباً قط، وهذه احدى معجزاته، أنه قرأ لقومه كتاب الله المنزل والآيات التى أوحى إليه بها دون تغيير أو تبديل لكلماتها. وكان خطباء العرب قد اعتاد إضافة كلام أو حذف كلام مما سبق لهم أن ارتجلوه سلفاً حين يقومون باعادة هذا الكلام وتكراره. وقد تولى الله

حفظ كلامه على لسان نبيه الموحى إليه، ولأجل ذلك نزل قوله تعالى، فى سورة العنكبوت، الآية ٤٨: ﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لأرتاب المبطلون﴾، وقد نصت هذه الآية صراحة على أن محمداً كان لا يقرأ ولا يكتب.

أما عن صفة الأميين، فمن المرجح أن المقصود بها الأمة، أى أمة العرب. ويؤكد لسان العرب على أن العرب كانوا فى مجملهم يجهلون القراءة والكتابة وأنهما كانتا نادرتين بينهم، ويورد فى هذا الصدد حديث الرسول عليه السلام الذى يقول: "إنما بعثت إلى أمة أمية".

ويورد اللسان تفسير أبى إسحاق الزجاج (المتوفى سنة ٣١١هـ) بصدد كلمة أمى، من أنها تعنى الذى ولد على خلقة الأم، أى ولد على الفطرة، فهو لذلك لم يكتب لأن الكتابة صفة مكتسبة وليست موروثة. فالأمى يكون بذلك الإنسان المولود على الفطرة، وهكذا فمن الممكن أن تنسب صفة الأمى إلى الأم. ونحن الآن أمام صفتين للأمى: أمى من أمة، وأمى من أم.

ولا تلق نسبة الأمى للنبى على أنه فرد من الأمة، أى أمة العرب، قبولاعند بعض المفسرين، ذلك لأن الكتابة كانت نادرة الوجود عند العرب، هذا من ناحية، وفى نفس الوقت كانت نادرة عند أمم أخرى غير أمة العرب، فلمِ ينسحب هذا القول على أمة العرب دون أن ينسحب على غيرها من الأمم؟ وهنالك اعترض آخر على القول عن النبى بأنه أمى نسبة إلى أمة العرب؛ فإن الآيات التى أوردت كلمة أمى على الأمم قصد بها أمم كثيرة وعلى الأخص أمم أهل الكتاب من اليهود والنصارى.

ويعرض د. بدوى لرأى المستشرقين بصدد هاتين الصفتين: أمى وأميين، بعد أن عرض لأقوال فقهاء المسلمين وعلماء اللغة، فيقول: إن من أوائل الذين عرضوا لهذه المسألة المستشرق سبرنجر Sprenger ، فى كتابه: "حيـاة وعقيـدة محمـد" Das Leben und die Lehre des

Mohammad، المنشور باللغة الألمانية فى برلين سنة ١٨٦١ فى ثلاث مواضع من كتابه:

١ - فى ص ٣٠١ من الجزء الأول حيث أورد قوله: "كانت الجزيرة العربية قبل محمد مقسمة بين أهل الكتاب والأميين، وأهل الكتاب هم اليهود والنصارى والصابئون، وهم الجماعات التى لها كتاب، أما الأميون فهم الذين لم يكن عندهم كتاب".

٢ - فى حاشية رقم (١)، ص٢٢٤ من الجزء الثانى، حيث أورد أن كلمة أمى تعادل كلمة (وثنى).

٣ - فى ص٤٠١، ٤٠٢ ممن الجزء الثانى حيث أورد قوله: "يبدو أن لفظ أمى كان صفة للشخص الذى يجهل القراءة والكتابة تماماً وليس المقصود بها أهل الكتاب، إنما المقصود بها أمة العرب الذين لم يكن لهم كتاب. ولقد وافق كل من المستشرقين فنسنك، وجوزيف هورفيتز، وفرانتز بُهل على أن لفظ أمى كان يطلق على غير أهل الكتاب.

وباستعراض الأقوال المختلفة للمستشرقين بصدد تفسير كلمة أمى، وهى الصفة التى وصف بها النبى محمد، يقول د. بدوى أنها صفة منسوبة إلى الأمم التى مفردها أمة، فهى فى الأصل (أممى)، أى نبى مرسل لكل الأمم، لكل أمم العالم. فالنبى الأمى هو النبى المرسل لكل أمم العالم.

أما كلمة أميين، التى وردت فى أربعة مواضع فى القرآن، فهى تعنى مختلف الأمم أو جماع الأمم، أى كل أمم العالم،. ويصل د. بدوى إلى الرأى النهائى فى هذه المسألة بقوله: "وبذلك نخلص فى هذا الموضوع إلى أن صفة الأمى التى وصف بها النبى محمد، لم تكن تعنى أنه لم يكن يعرف القراءة والكتابة وإن كان ذلك واقعاً بالفعل، ولكن المقصود به: النبى العالمى، النبى المرسل لكل أمم العالم، وكلمة أميين المقصود بها جماع الأمم أى العالم كله،

فبذلك فإن محمداً هو النبى العالمى الذى بعثه للناس كافة وعامة فى كل بقاع الأرض".

الموضوع الثانى من موضوعات د. بدوى، تناول محاولات بعض المستشرقين إيجاد تماثل، غير قائم أصلاً بين القرآن وإنجيل النصارى وتوراة اليهود. وأصحاب هذه المحاولات، الذين ألفوا كتبا فيها، أصحاب نزعات يهودية ومسيحية، ويدخل ضمن تلك الجماعة كل من المستشرفين: جيجر A.Geiger، وهرشفيلد، وسدريسكى، وسبرنجر، وهورقيتز، وتور أندريه، وآخرون غيرهم.

وبدراسة الكتب التى ألفها هؤلاء المستشرقون وأمثالهم نجدهم يؤكدون بأن محمداً الذى ألف القرآن حسب زعمهم، قد اقتبس أغلب رواياته وعدداً كبيراً من صوره الأدبية وحكمه وأمثاله وجمل آياته من الكتب المقدسة اليهودية والمسيحية وشروحها.

ويرد د. بدوى على هذا الزعم المغرض بقوله: **"وإذا كانت هذه المزاعم صحيحة حسبما يزعمون، فإن النبى محمد، يكون بذلك عالماً عبرانياً وسريانياً ويونانياً قد اغترف من كل هذه الثقافات القديمة، كذلك تكون لديه مكتبة ضخمة تحتوى على هذا القدر الأدبى الهائل من التلمود والتوراة وبشارات الإنجيل وكتب الآباء والقديسين المختلفة، وقرارات المجامع المسكونية المتعددة، وكتب آباء الروم وسائر الكنائس والطوائف المسيحية.**

هل هذا قول معقول؟ وكل من كتب عن سيرة محمد من كتاب الماضى أو الحاضر لم يذكر قط أنه كانت عند محمد أية مكتبات. وكيف له الحصول على كل هذا التراث المسيحى واليهودى الكبير وكيف له أن يستوعبه مع تناقض بعضه لبعض، وكيف له أن يغترف من كنوز هذه الكتب والمصادر التى كتبت بعدة لغات متباينة. وقد ثبت بالفعل أن محمداً لم يكن يعرف إلا العربية؟

وفى كل مرة يجد فيها هؤلاء المستشرقون كلمة أو كلمتين فى القرآن لها شبيه فى الإنجيل يقولون أن النصين متشابهان وأنهما من أصل واحد.وقد حاول بعضهم مقابلة بعض آيات القرآن ببعض آيات من الإنجيل والتوراة وثبت بالفعل أنها مقابلات غير صحيحة. وقد قام د. بدوى بإثبات بطلان كل المقابلات التى قام بها كل من هرشفيلد، وكليرمونت جانو C. Ganneau، وجوزيف هورفيتز.

الموضوع الثالث الذى تعرض لمناقشته د. بدوى فى كتابه مع المستشرقين هو معنىومفهوم كلمة "فرقان" التى وصف بها القرآن، والتى ادعى بعض المستشرقين بأنها كلمة ذات أصل يهودى مسيحى. وقد انتهى إلى أنها كلمة عربية خالصة، وهى مصدر لفعل (فرق)، وقد أُطلقت على القرآن لأنه فرق بين الحق والباطل، وقد ورد ذلك المعنى فى ست آيات قرآنية، هى على التوالى :

١ - الآية ٥٣ من سورة البقرة: ﴿وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون﴾.

٢ - الآية ١٨٥ من نفس السورة : ﴿شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدىً للناس وبينات من الهدى والفرقان﴾.

٣ - الآيات ٣، ٤ من سورة آل عمران: ﴿نزل عليك الكتاب بالحق ومصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدىً للناس وأنزل الفرقان﴾.

٤ - الآية ٤١ من سورة الأنفال: ﴿وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان﴾.

٥ - الآية ٤٨ من سورة الأنبياء: ﴿ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكرى للمتقين﴾.

٦ - الآية ١٠ من سورة الفرقان: ﴿تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً﴾.

ولقد خصص د. بدوى الجزء الرابع من كتابه للرد على مزاعم المستشرق اليهودى "مرجليوث" المفرطة بصدد الإسلام والقرآن. وقبل أن يناقش د. بدوى آراء مارجليوث ويرد عليها، أعطى مقدمة عن تاريخ هذا الرجل وعن سبب عداوته للإسلام. فذكر بأنه يهودى صرف، ويتكون اسمه من أسماء يهودية ممعنة فى يهوديتها، فهو داود بن صموييل بن حزقيال بن مارجليوث. وتنطق مارجليوث أو مارجليوت فى العبرية الدارجة (مرجاليت). ومن الجدود الكبار لهذه العائلة نرصد اسم يعقوب فون رينسبورج رابى مدينة رينسبورج الألمانية (توفى ما بين ١٤٩٩ و١٥١٢)، وكان له ابن يدعى صموييل كان رئيساً لمجتمع اليهود فى بولونيا فى القرن السادس عشر. وقد ولد داود صموييل حزقيال مرجليوث سنة ١٨٥٨، وكان الابن الأكبر لصموييل، الذى اعتنق المسيحية وصار مبشراً مسيحياً. واعتنق داود المسيحية مثل والده، وصار قسيساً للكنيسة سنة ١٨٩٩، ولكنه ظل يهودياً قلباً وروحاً، وشغل نفسه بالدراسات اليهودية. ومن بين دراساته اليهودية نلحظ الكتب التالية التى قام بتأليفها وكشفت عن هويته وموقفه المعادى للإسلام:

١ - شرح كتاب دانيال، لمؤلفه يافث بن على، سنة ١٨٩٩.

(Commentary on the Book of Daniel, by: Jephet Ibn Ali, edited and translated, by: D. S. Margoliouth, 1899).

٢ - مكانة الكنيسة فى الأدب السامى، سنة ١٨٩٠.

(The Place of Ecclesiasticus in Semetic Literature, 1890).

٣ - أصل: "الأصل العبرى" للكنيسة، سنة ١٨٩٩.

(The Origin of the"Hebrew original"of Ecclesiasticus,1899).

٤ - العلاقات بين العرب واليهود قبل ظهور الإسلام، ١٩٢٤.

(Relations between Arabs and Israelites prior to the rise of Islam, 1924).

ولقد عدد د. بدوى مزاعم مارجليوث ضد الإسلام والقرآن ورده على تلك المزاعم كالتالى :

١ - إدعائه بأن كلمه (مسلم) كانت تطلق قبل ظهور دعوة محمد واتباعه على مسيلمة بن حبيب الحنفى، الذى وصفه الرسول بالكذب وعرف بمسيلمة الكذاب. وكان مسيلمة قد أدعى النبوة فى بلدته اليمامة بين قومه من بنى حنيفة. وأرسل إلى النبى كتابا يدعوه فيه مقاسمته معه النبوة.وقد نشر مارجليوث هذا الرأى فى مقال لـه فـى مجلـة الجمعيـة الملكيـة الأسيوية التىتصدر فى لندن. JRAS (Journal of Royal Asiatic Society).

ولقد وصف د. بدوى إدعاء مرجليوث هذا بأنه نابع عن جهل فاضح وعدم بصيرة عند المؤلف ناتج عن تعصب أعمى، وقال مانصه:

"وإنى أسال مارجليوث كيف وقع فى هذا الخطأ التاريخى واللغوى وهو قد ناهز الخامسة والأربعين؟ ألم يقم بقراءة القرآن ولا السيرة النبوية ولا أى كتاب من كتب التاريخ الإسلامى ليصحح نفسه؟ وكيف لـه أن يشتق اسم الفاعل (مُسلم) من اسم مسيلمة؟ إذا كانت عنده أقل المعلومات عن قواعد اللغةالعربية كان قد عرف أن النسبة إلى مسيلمة هى مسيلمى لا مسلم، ويبدو أن تعصب مارجليوث الزائد ضد الإسلام قد أدى إلى عمى بصيرته مع عمى قلبه" . ولقد رد المستشرق "ليل" C. g. Lylle عليه رداً مفحماً فى نفس المجلة سنة ١٩٠٣م.

٢ - مزاعمه بصدد اسم "إبراهيم" فى مقال له عن "محمد" فى دائرة المعارف الدينية (جـ٨، طبعة أيدنبرج، ص٨٧١ - ٨٨٠) أدعى مارجليوث أن اسم إبراهيم لم يكن يسمى به فى الجزيرة العربية، ولم يعرف بها إلا حين عرّف به محمد: ويناقض مارجليوث نفسه فى ذلك ويدعى أن "أهل العلم" الذين كانوا فى مكة قبل الإسلام كانوا من اليهود والنصارى. فكيف لم يعرف هؤلاء اليهود والنصارى اسم إبراهيم وكيف لم يسمع

عرب شبه الجزيرة عنهم هذا الاسم طالما كانوا المعلمين لهم، وانتظروا الإعلان عنه عند قيام محمد بدعوته؟ وعلق د. بدوى على هذا الرأى بقوله: "وأظن أن سخافة رأى مارجليوث بدت واضحة "للعيان". كذلك أدعى مارجليوث فى هذا المقال بأنه من المحتمل أن تكون ملة إبراهيم (الحنيفية) قد ظهرت فى حران بين الصابئة من أهلها، وأن المسيحيين كانوا يطلقون لقب الأحناف على الحرانيين. وقد علق د. بدوى على هذا الادعاء بقوله: "افترض مارجليوث هذا الزعم دون الاستناد على مصدر واحد من المصادر، وقد رفض قبوله من جميع الدارسين لهذا الموضوع، وعدوه اختراعاً نسجه خيال مارجليوث المريض المختل".

٣ – ادعائه أن الصلاة فرضت على المسلمين بعد الهجرة، وأنهم لم يكونوا يصلون قبلها لأن فرضها ارتبط بالحرب والقتال وأن المسلمين لم يقاتلوا إلا بعد الهجرة. كما يضيف قوله بأن استتبع ذلك معرفة المسلمين طقوس صلاتهم وتعلمهم لفاتحة الكتاب. ويرد د. بدوى على هذا الزعم بقوله: "هذا قول غير مسئول وسخيف، كيف يدعى ماجليوث أن الصلاة فرضت على المسلمين من منطلق العمل العسكرى؟ وكيف يدعى أن فاتحة الكتابِ سورة مدنية وأنها لم تقرر فى الصلاة إلا بعد الهجرة، وأن محمداً وأتباعه لم يؤدوا الصلاة فى مكة قبل الهجرة؟ ألم يقرأ مارجليوث كتب صحاح الحديث وكتب السنن ليبدد بما فيهم سحب الجهل التى خيمت على عقله؟ وألم يعرف بأن فاتحة الكتاب هى ركن أساسى فى كل ركعة من ركعات الصلاة، وأنها أم الكتابِ وأقدم سور القرآن؟ وأن الصلاة قد قررت على المسلمين فى العام الثانى للبعثة.

٤ – ادعى مارجليوث بأن محمداً قد اقتدى باليهود فى أمر الطعام، وأنه أحل ما أحلو وحرم ما حرموه. ولقد ثبت عدم صحة هذا القول لأن هنالك ما أحل أكلا للمسلمين وقد حرمه اليهود على أنفسهم والعكس صحيح. فلقد

حرم اليهود على أنفسهم، على سبيل المثال، أكل لحم الجمل، والسمك الذى ليس به قشور، بينما أحل الإسلام أكلها وغير ذلك كثير من أنواع الطعام. كما حرم اليهود على أنفسهم الطهى وإيقاد النار عشية السبت بأكمله. كذلك تشددوا فى أمر ذبح الحيوان ووضعوا له شروطاً قاسية على من يتولى هذه العملية منها ألا يكون قد سبقت إدانته فى إتهام، وألا يكون مخالفاً للشرع، وألا يكون قد نقض آداب يوم السبت. والإسلام ليس به أى شئ من هذا.

فى الفصل الخامس من كتابه يتعرض د. بدوى لآراء المستشرق اليهودى "إيجناز جولدزيهر" Ignaz Goldziher حول القرآن والإسلام ومحاولته الفاشلة فى الربط بين الإسلام واليهودية والإيحاء بقيام تشابه بينهما. وقد لخص كاتبنا آراء هذا المستشرق وقال رأيه فيها كالتالى :

١ – قوله بأن إله اليهود هو نفس إله الإسلام، ويقول جولدزيهر فى ذلك أن مفهوم الله عند محمد، الذى عارض الوثنية، يتوافق فى جوهره مع المفهوم الوارد فى كتاب العهد القديم، وأن إله بنى إسرائيل هو نفس الإله الذى يتعبد له المسلمون. وقد رد د. بدوى على هذا الوهم الخاطئ بقوله أن إله بنى إسرائيل أسماه اليهود (يهوا)، وهو عندهم إله شعب إسرائيل فقط وأنهم أبناءه وأحباءه دون سائر الشعوب. فهو بذلك إله محلى قومى. وعلى النقيض فإن إله الإسلام، هو رب العالمين أجمعين، وهو الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد. ولقد أكد المستشرق بينيتش Baentsch بأن الديانة اليهودية ديانة متعصبة لشعب واحد أطلق على نفسه شعب الله المختار، وأن الإسلام ديانة عالمية الله فيها هو رب كل العالمين.

٢ – ادعائه بأن محمداً نقل إلى المسلمين فريضة الصيام عن اليهود، وقد أخذ برأيه هذا المستشرق فنسنك وآخرون غيره. ويرد د. بدوى على هذا الرأى الذى جانبه الصواب بالتالى :

(أ) خضع الصوم عند اليهود لظروف خاصة خلال تاريخهم، وانحصر فرضه عليهم فى يوم واحد هو يوم عيد الغفران، كما أمرهم بذلك النبى موسى. وقد قرر عليهم صوم بعض أيام أخر بعد السبى البابلى لها مناسبات قومية خاصة، فرضها عليهم أحبارهم، وهى أيام: الرابع من شهر تموز (يوليو)، والخامس من شهر آب (أغسطس)، والسابع من شهر تشرين (يناير)، والعاشر من شهر شباط (فبراير). ويبدأ يوم الصوم عند اليهود منذ طلوع الشمس حتى ظهور أول النجوم فى السماء، عدا صوم يومى الغفران والتاسع من آب فإن الصوم فيهما يمتد من الليل إلى الليل ويمنع نهائياً خلاله الطعام والشراب.

ويقول د. بدوى أن من الواضح أن هذا الصوم اليهودى لايتماثل على الإطلاق مع صوم المسلمين، لأن المسلمين يصومون شهراً محدداً بأكمله فى كل عام هو شهر رمضان، بخلاف صوم اليهود يوماً واحداً أو عدة أيام متباعد ما بينها. كذلك فإن فرض الصوم فى الإسلام لم يخضع لظروف أحداث سياسية ومناسبات قومية كما حدث عند اليهود، لكن الصيام فرض على المسلمين ركناً أساسيا من أركان الإسلام الخمس، وبذلك كان الصوم عند المسلمين إجبارياً بعكس كونه تطوعاً واختياراً عند اليهود. وإنا نجد الصوم، كواجب دينى، قائما فى الديانات القديمة السابقة لليهودية، ووجدناه فى المجتمعات البدائية وعند قدماء المصريين وعند البابليين. وقد عرفت البشرية الصوم منذ القدم، فمن أين لجولدزيهر الإدعاء بأن محمداً أخذ الصوم عن اليهودية ولم تكن اليهودية هى أول الديانات التى مارست فريضة الصوم؟ ويضيف د. بدوى فى ذلك الخصوص قائلاً: "لكنا نجد جولدزيهر دائم الانحياز

لبنى جلدته من اليهود، ونجد أن الوساوس التى تراوده هى نفس الوساوس التى تراود نظرائه من اليهود فى كل زمان ومكان. ولقد ظهرت عدم أمانة جولدزيهر وعدم دقته فى البحث حين ذكر أن أصل كلمة (صيام) هى كلمة (سيام)؛ يعنى المنتسب للساميين، ليؤكد كذباً أن لفظة (صيام) العربية هى فى الأصل لفظة عبرية.

٣ – ادعاء جولدزيهر بأن محمداً اتخذ قبلته فى الصلاة أولاً نحو بيت المقدس لكسب ود اليهود، وتوقعه إعترافهم به نبى آخر الزمان كما هو مثبت فى كتابهم.، فلما لم يتبعوه قام بتغيير إتجاه قبلته إلى الكعبة والبيت الحرام. وقد أخذ بهذا الرأى عدد من المستشرقين، أمثال: فييل، وموير، وجريم، وكايتانى، وبهل.

وقد رد د. بدوى على هذا الإدعاء الخاطئ بالتالى:

(أ) لم يؤكد أحد تأكيداً كاملاً كيف كانت قبلة المسلمين فى الصلاة قبل الهجرة، وقد ورد فى هذا الأمر ثلاثة أراء غير مؤكدة: الرأى الأول الذى قال به الطبرى فى تفسيره وكذلك البيضاوى، أن القبلة، كانت قبل الهجرة تجاه الكعبة. والرأى الثانى الذى قاله الطبرى أيضاً فى موضع آخر من تفسيره وفى كتابه التاريخى (تاريخ الرسل والملوك) وأخذ به البلاذرى (فى كتابه فتوح البلدان) أن القبلة كانت صوب بيت المقدس. والرأى الثالث الذى قال به ابن هشام فى كتاب السيرة، أن محمداً قد صلى قبل الهجرة إلى اليمين من الكعبة على خط طولى صوب بيت المقدس.

ولقد اختار المستشرقون، وفى مقدمتهم سبرنجر وفنسنك الرأى القائل بأن القبلة قبل الهجرة كانت صوب بيت المقدس، وافترضوا، كذباً، أن محمداً اتخذ هذه القبلة وهو فى مكة لإرضاء اليهود وكسب ودهم، مع أنه لم يثبت أصلاً وجود اليهود بمكة قبل الهجرة ولم يكن النبى بحاجة لرضاء اليهود عنه آنذاك. أما الإحتكاك الفعلى مع اليهود فقد كان فى المدينة بعد الهجرة وليس

فى مكة. ولقد تم تغيير القبلة بعد فترة وجيزة من هجرة الرسول إلى المدينة وقبل أن يحدث أى إحتكاك بينه وبينهم، وكان ذلك فى شهر رجب أو شعبان من السنة الثانية للهجرة.

والآيات القرآنية التى نزلت بصدد تحويل القبلة فى سورة البقرة (الآية ١٤٢ وما بعدها) لم تتحدث عن القبلة القديمة ولم تحدد إتجاهها، وهى تقول فى بساطة: ﴿سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم﴾. ﴿وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه﴾.. ﴿قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره﴾.. ﴿ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض﴾.. ﴿ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وإنه للحق من ربك وما الله بغافل عما تعلمون. ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره﴾.

(ب) كانت الكعبة هى البيت الذى رفع إبراهيم وإسماعيل قواعده، وهى بيت الله العتيق الذى كان يتوجه إليه إبراهيم وأتباعه فى صلواتهم وقد حفظ الإسلام للكعبة مكانتها، فكان من الطبيعى أن يتجه المسلمون إلى قبلة إبراهيم، لأن محمداً لم يأت بدين جديد ولكنه جاء بالإسلام، وهو ملة إبراهيم.

٤ - زعمه أن التشريع الإسلامى قد أخذ عن التشريعين اليهودى والمسيحى.

ويقول د. بدوى فى هذا الخصوص أن جولدزيهر حاول التعميم بالقول بأن التشريع الإسلامى إستقى معظم قوانينه وأحكامه عن التشريعتين اليهودية والمسيحية دون الإتيان بأى دليل على ذلك أو الإستناد على أية مصادر. ويضيف بأن تقييمه لهذا المستشرق فى آخر هذا الفصل هو نفس التقييم الذى سجله عنه فى بدايته.

فى الفصل السادس من الكتاب تحدث د.بدوى عن ذكر الصابئة فى القرآن، وأراء المستشرقين فى هذا الخصوص. وقد ورد ذكرهم ثلاثة مرات فى القرآن :

(فى سورة البقرة : ٦٢): ﴿إن الذين أمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين..﴾ ، (فى سورة المائدة :٦٩): ﴿إن الذين أمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى...﴾،(فى سورة الحج : ١٧) ﴿إن الذين أمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى والمجوس...﴾.

ويعتقد المستشرق سبرنجر A. Springer أن الصابئين هم الحنيفيون أتباع ملة إبراهيم، ويتفق المستشرق بيدرسين J. Pedersen معه فى هذا الرأى. ويرد د. بدوى على هذا القول بأنه ادعاء كاذب مستنداً على ما أورده الشهرستانى فى كتابه (الملل والنحل) وتأكيده على أن الحنيفيين هم على نقيض الصابئين، وأن الأحناف هم أتباع ملة إبراهيم والصابئون هم عبدة الكواكب والنجوم ، وهى عبادة حرمتها ملة إبراهيم تمام التحريم لأنها تتنافى مع اعتقاد الوحدانية لله الذى يعتقده الأحناف، وقد ورد قوله تعالى على لسان إبراهيم فى سورة الأنعام (آية ٧٩): ﴿إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين ﴾. هذا ولم يرد فى القرآن على الإطلاق القول بأنه كان للصابئين كتاب مقدس، بينما كانت الصحف الأولى مع إبراهيم، وفى ذلك يقول تعالى فى سورة الأعلى (الآيات ١٨ - ١٩): ﴿إن هذا لفى الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى﴾. ويقول المستشرقون: هورفيتز، وهانز شيدر، وبيل، أن الصابئة هم نصارى بابل.

ويقول د. بدوى أن فعل (صبأ) فى العربية معناه: تحول عن دينه ليعتنق ديناً آخر، فهو فى هذه الحالة صابئ أو صابى وجمعها صابئون. ولقد كان كفار قريش يتهمون النبى ومن إتبعه بأنهم صابئون. وصبأ، فى تاج

العروس تحمل نفس المعنى وقد أخذ ابن إسحق بهذا التفسير. وللآن لم يعرف عن أى دين صبأ هؤلاء القوم حتى سموا بتلك التسمية؟

ولقد جعل د.بدوى الفصل السابع من كتابه تحت عنوان: (الرسل فى القرآن) وناقش آراء المستشرقين فى هذا الخصوص وبخاصة المستشرق فنسنك. يقول فنسنك: "إن فكرة إرسال الأنبياء والرسل إلى الشعوب المختلفة، هى فكرة ربما تكون وصلت إلى محمد عبر قناة مسيحية، وأنه سار فى ذلك على نفس درب التبشير المسيحى فى العالم. إلا أن الإختلاف هنا يقع فى أن محمداً والأحاديث الإسلامية لم يكن يعرفون شيئاً عن الرسل الأثنى عشرة".

ويرد د.بدوى على هذا الرأى بقوله متسائلاً: "لماذا لا يحق لمحمد أن يدعو لنفسه نبياً ورسولاً شأنه فى ذلك شأن الأنبياء والرسل الذين سبقوه وأرسلوا للشعوب المختلفة؟ وهل أن فكرة ظهور نبى آخر الزمان لم تكن قائمة عند اليهود قبل ظهور محمد؟ لقد تأكد ذلك بالتالى :

(أ) (فى كتاب الملوك الأول ١٤، ٦) "لقد أرسلت لأكلمك بقسوة إذهب وقل لأورشليم : هكذا قال مولى رب إسرائيل: سوف أرفعك من وسط الشعب وسوف أجعلك أميراً على شعب لإسرائيل".

(ب) (فى عيسى ٦، ٣): "إنى أسمع حينئذ صوت مولى الرب الذى يقول: من الذى سيرسلنى؟ من الذى سيرسل لنا، وأقول: أنا أرسل نفسى، يقول: إذهب أنت سوف تقول لهذا الشعب...".

وكلمة (شالوه) فى العبرية تقابلها كلمة أبوستولوس اليونانية بمعنى رسل. وقد أستخدمت كلمة أبوستولوس فى كتاب العهد الجديد عدة استخدامات، فاستخدمت بمعنى (الحواريين) فى إنجيل متى، وبمعنى (الرسل) فى إنجيل لوقا.

ويواصل د. بدوى تعليقه على هذا الأمر بتأكيده على أن محمداً لم يأخذ فكرة النبوة والرسالة لا عن اليهود ولا عن النصارى إنما هو تكليف واختيار

إلهى. ويفرق كاتبنا الكبير بين الرسول والنبى ويذكر أن الفرق بينهما كبير، ذلك لأن الرسول (شالوه) بالعبرية أو أبوستولوس باليونانية تعنى عند اليهود صاحب الرسالة التى يكرس لها كل حياته، ويبشر بدين ويحمل كتاباً مقدساً. فهو بذلك يكون فى وضع أكبر من وضع النبى، لأن النبى لايلزم أن يكون معه كتاب مقدس. ولذلك يفرق الكتاب فى المصادر الإسلامية بين الرسول والنبى، وكلمة شالوه فى العبرية تعنى رسولاً لشعب معين أو لطائفة معينة، بينما الرسول فى الإسلام تعنى المبعوث لأمة. والأثنى عشر رسولاً (حوارى) الذين تتحدث عنهم الكنيسة المسيحية وتعتبرهم رسلاً ليسوا رسلاً مبعوثين من قبل الله ولكنهم مبعوثون من قبل المسيح وحواريون له. وهذا هو الفرق بين الرسول فى المسيحية والرسول فى الإسلام.

وهنالك فرق آخر، فليس لأى من هؤلاء الحواريين الرسل كتاب مقدس، فهو يبشر بنفس دين المسيح ورسالته، بينما الرسول فى الإسلام معه كتاب مقدس، منزل من عند الله الذى اصطفاه واختاره نبياً ورسولاً. ومن أجل ذلك لم يطلق القرآن نهائياً اسم الرسل على الحواريين، بل دعاهم بالحواريين. قال تعالى: ﴿فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله وأشهد بأنا مسلمون﴾ (آل عمران :٥٢).

ولقد شرح نولدكه معنى كلمة "حوارى"، وقال أنها تعنى: الزميل الحميم، الشديد الإخلاص والذى يتحاور بحب مع الرسول ليتعلم منه، وقد كان يطلق على الزبير بن العوام حوارى رسول الله. كذلك أطلق على صحابة محمد اسم الحواريين، كما عرف النصارى أيضاً بالحواريين.

ويختتم د. بدوى هذا الفصل بصدد كلمة رسول فى القرآن بالتالى :

(أ) وردت كلمة (رسول) صفة لاصقة بمحمد ١٤٦ مرة.

(ب) وردت كلمة (رسوله) ٨٤ مرة، وكلمة (رسولنا) أربع مرات.

(جـ) يختلف تعريف وواقع الرسل فى الإسلام عنه فى اليهودية والمسيحية، اختلافاً كبيراً، ومن غير المعقول القول بوجود تماثل بين الطرفين، كذلك فإنه من السخف القول أيضاً بأن محمداً اقتبس دعوى الرسول من أى كائن كان.

فى الفصل الثامن من الكتاب تحدث د. بدوى عن إدعاءبعض المستشرقين القول بأن فى القرآن صوراً يونانية هيلينية اقتبسها محمد من التراث اليونانى كتلك الصور اليهودية والمسيحية التى اقتبسها من التراث اليهودى المسيحى. من تلك الصور:

(أ) القول بالوسطية التى نادى بها أرسطو حين قال: الفضيلة حقيقة وسط بين حدين متباعدين.

(ب) الحديث عن الإسكندر الأكبر وتعظيم القرآن له.

(جـ) ورود اسطورة سيسيف التى وردت فى الأوديسا فى القرآن.

(د) الأخذ بفكرة أرسطو المؤكدة بأن الماء هو أصل الكون، وفكرة أفلوطين بأن النور هو الأصل، كان من أكثر المتحيزين لهذا الرأى المستشرق: هرشفيلد، وجولدزيهر، وهوروفيتز.

ولقد رد د. بدوى على هذه المزاعم بقوله: فى مسألة الوسطية فإن الوسطية كانت سمة مميزة وجوهرية للإسلام، لقوله تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم آمةً وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾ (البقرة :١٤٣). كذلك هو منهج، وليس مجرد نظرية، يراقب دوماً تطبيق الحكم الوسط بين الخير والشر وبين الحق والباطل..ألخ. كذلك قصد بالوسطية هنا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وذلك مصداقاً لقوله تعالى: "كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله".

أما الحديث عن الإسكندر، فلقد أشار إليه القرآن كمثل للملك العظيم وصاحب المملكة المثالية والعادلة، وهذا ضمن ما ذكر عن بعض أخبار

الماضيين والشعوب السابقة لأمة الإسلام. ولقد جاء هذا الذكر إجابة من عند الله علـى لسان رسوله حين تحداه اليهود وسألوه أسئلة منها هذا السؤال ليمتحنوا مسألة نبوته.

أما أسطورة سيسيف الذى عذب ووردت روايته فى الأوديسا أنـه أجبر على أن يستمر دون توقف فى دحرجة صخرة من أسفل جبل إلى قمته لتسقط عليه، فليس لها أى صلة بما ورد فى القرآن بصدد تعذيب المشركين فى النـار الذى تعددت أشكاله وصوره. ومن هذه الصور التى وردت بصدد النضـر بن الحارث الذى نزل فيه قوله تعالى: ﴿كلا أنه كان لآياتنا عنيدا سأرهقه صعودا﴾ (المدثر : ١٨ - ١٩).

أما بصدد الخلق فإن الله تعالى هو الخالق، وهو الذى يقرر وحده من أى شئ خلق، فلقد ذكر تعالى أنه خلق الإنسان من سلالة من طين، وأنه خلق الملائكة من نور وخلق الشياطين من نار، وخلق الدواب وكل شى حى من التراب والماء. قال تعالى فى سورة النور (آية ٤٥): ﴿والله خلق كل دابة من ماء﴾ ، وقال تعالى فى سورة الأنبياء (آية ٣٠): ﴿وجعلنا من الماء كل شئ حى﴾. وإذا كان فلاسفة الأفلوطينية الحديثة الذين يقولون، وعلى رأسهم مؤسسها أفلوطين (٢٠٤ - ٢٧٠م) إن النور هوالأصل الأول، وكل الكون انعكاس من هذا الأصل، وأنه نور يتبع نور. فإن الله تعالى أنزل فى كتابه العزيز سورة أسماها سورة النور وعرفنا بأن الخلق ليس من نور، ولكن النور هو نور الله "الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح، المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضئ ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شئ عليم".

فى الفصل التاسع أثبت د. بدوى عدم صحة الافتراض اذى قال به المستشرق ،رلدكة من أن فاتحة الكتاب (البسملة) ذات أصل مسيحى وأنه ورد مثيل لها فى الإنجيل.

فى الفصل العاشر عالج د. بدوى موضوع ترتيب الآيات فى سور القرآن، وموضوع جمع القرآن وحفظه فى مصحف واحد. وأكد على أن الترتيب الذى بين أيدينا اليوم لآيات القرآن هو نفس الترتيب الذى كان عليه فى عهد الرسول، وأنه لم يحدث فيه أى تغيير أو تبديل، كما يدعى بعض المستشرقين، وأن القرآن جميعه قد جمع فى كتاب واحد فى حياة الرسول.

فى الفصل الحادى عشر يتحدث د. بدوى عن موضوع الكلمات غير العربية الواردة فى القرآن، ويأخذ برأى القائلين بأن هذه الكلمات، التى تبدو غير عربية، هى فى الأصل كلمات عربت وأستعملت فى العربية بنفس معناها فى اللغات الأخرى. ويورد د. بدوى فى هذا الخصوص رأى العلامة ابن عطية (ت٥٤٦هـ / ١١٥١م) فى كتابه: "شرح الطبرى" الذى يقول فى مقدمته: "إن هذه الكلمات التى تبدو غير عربية. قد دخلت فى العربية قديماً، أيام العرب العاربة، بواسطة الرحلات التجارية وغير التجارية التى كان يقوم بها العرب خارج شبه الجزيرة: وقد عربت هذه الكلمات قبل الإسلام وصارت جزءً من مفردات اللغة واستعملها العرب وتداولوها فى كلامهم. فلما نزل القرآن كان من الضرورى أن يخاطب العرب بما كانوا يتحدثون به من لغة وصارت جزءاً من لغتهم. وبذلك صارت هذه الكلمات عربية فى معناها ومضمونها" وقد ورد د.بدوى قوائم بالكلمات غير العربية الأصل التى وردت فى القرآن الكريم، نقلاً عن الزركشى (ت ٧٩٤هـ/ ١٣٩١م) والسيوطى (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥ م).

وفى الفصل الثانى عشر من كتابه عالج د.بدوى ما ورد على لسان المستشرقين بصدد النداء المحدد والموجه فى القرآن فى عبارة: "يا أخت

هارون" للسيدة مريم العذراء (سورة مريم:٢٨).﴿يا أخت هارون ما كان أبوك إمرأ سوء وما كانت أمك بغيا﴾ وتفسيره بأن هارون المقصود هنا هو هارون أخو النبى موسى. وجاء رده على ذلك كالتالى :

١ - يزعم البعض أن محمداً يؤكد ما ورد فى القرآن عن السيدة مريم بأنها أخت هارون، وأن هارون المذكور هنا هو أخو النبى موسى فهى بذلك تكون إذن أختاً للنبى موسى. وقد أخذ بهذا الرأى يوحنا الدمشقى، وتبعه فى ذلك كل من: نيقولا دى كيوز، وتور أندريه وعدد كبير من المستشرقين يستشهدون فى ذلك بما ورد فى القرآن مع أنهم أصلاً لا يعترفون بالقرآن وينكرون أنه كتاب مقدس. ومعنى قولهم هذا أن محمداً كان يخلط فى التاريخ لاعتباره زمن موسى بن عمران هو زمن عيسى المسيح!

٢ - تساءل بعض كتاب المسيحيين عن شخص هارون هذا الوارد ذكره فى القرأن إن لم يكن هو هارون أخى موسى؟

ويرد عليهم د.بدوى بالقول بانه كان من المحتمل أنه كان للسيدة العذراء مريم أخ يدعى هارون، لم يكن معروفاً لرجال الدين المسيحى وكتابهم، وأن القرآن هو الكتاب الوحيد الذى أشار إلى ذلك.

٣ - أخذ المستشرق د. هيربلوت برأى يقوله المفسرون المسلمون مفاده أن مريم، أم المسيح، تنحدر من نسل عائلة عمران أبى موسى وهارون، وهى كذلك تنحدر من ناحية أمها (آن) من نسل هارون. فقول القرآن لها يا أخت هارون، يعنى المنحدرة من سلالة هارون بن عمران أخى موسى بن عمران.

٤ - الذين يقولون بهذا الرأى يقولون أيضاً أن عمران والد مريم العذراء، هو الذى يطلق المسيحيون عليه أسم (يواقيم) زوج القديسة (آن)، هو بخلاف عمران بن ماثان أخو مريم أخت موسى. وبذلك يوجد لدينا إثنان ب[illegible] م

عمران أحدهما هو أبو مريم أخت موسى وهارون، والثانى هو أبو مريم العذراء، ام المسيح.

ويعرض د. بدوى لهذه الآراء وينتهى برأيه فيها بقوله: "إن هذه المسألة لم تشكل مشكلة فى حياة النبى محمد، لسبب بسيط وهو أن اليهود والنصارى آنذاك قد فهموا أن العبارة تعنى أن مريم من سلاله هارون بن عمران، وهذه عادة العرب فى القول. وبالقطع لم يغب عن ذهن محمد البعد الزمنى ما بين موسى وعيسى، وكان ذلك أمراً واضحاً ومعروفاً فى المدينة آنذاك. ويضيف د. بدوى إلى هذا قوله بأن القرآن الكريم كان يستعمل هذه الكناية للدلالة على الانتماء إلى القبيلة أو العشيرة، فنرى فى سورة هود (الآية ٥) قوله تعالى: ﴿وإلى عاد أخاهم هودا..﴾ ، "فأخ هود" هنا يماثل القول "بأخت هارون" وكلاهما يشيران إلى القبيلة أو العشيرة التى ينتميان وينتسبان إليها. كذلك فإن العرب يقولون: "أخا هوزان" و"أخا ثقيف"، "وأخا العرب" وغير ذلك، فعبارة يا أخت هارون فى هذا المجال تشير بالقطع إلى أنها من نسل هارون بن عمران.

ويختتم د. بدوى كتابه بفصل أخير تحدث فيه عن شخص (هامان) الوارد ذكره فى القرآن ورأى المستشرقين بصدده. ولقد ثبت أن هامان ورد ذكره فى القرآن ست مرات على أنه وزير فرعون.

ففى سورة القصص(آية٦) يقول تعالى: ﴿ونُرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون﴾ ، وفى نفس السورة (آية ٨): ﴿إن فرعون وهامان وجنودهما كانا خاطئين﴾ ، وفى (الآية ٣٨): ﴿فأوقد لى يا هامان على الطين..﴾وفى سورة العنكبوت (آية ٢٩): ﴿وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات﴾، وفى سورة غافر (آية ٢٤) : ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين إلى فرعون وهامان﴾ ، والآية (٣٦): ﴿وقال فرعون يا هامان ابن لى صرحاً لعلى أبلغ الأسباب﴾ .

وإستناداً على ذلك، أكد المفسرون للقرآن أن هامان وزير فرعون مصر الذى كان معاصراً للنبى موسى، وأن فرعون هذا طلب من هامان أن يبنى له صرحاً ليصل من خلاله إلى إله موسى. ويقرر معظم المفسرين والمؤرخين أنه لم يتم بناء مثل هذا الصرح. ولقد تعرض المستشرق ثيودور نولدكة ومن بعده المستشرق جدوفروا دى مومبين لموضوع هامان هذا القول بأن هامان المذكور فى القرآن هو نفس هامان المذكور فى الإنجيل، وهو ليس بوزير فرعون مصر ولكنه الوزير المقرب لآشوروس ملك الفرس.

ويعرض د. بدوى رأيه فى هذه المسألة بالقول بأنه من المحتمل ألا يكون اسم هامان الوارد فى الآيات القرآنية الست اسماً لشخص معين، بل ربما كان لقباً عاما كان يطلق على كبير كهنة آمون. ومن دراستنا لتاريخ مصر الفرعونية عرفنا أن كبير كهنة آمون، بداية من الأسرة ١٩ فى الدولة الحديثة، كان صاحب مكانه هامة عند فرعون، وكان له إدارة كل بلاد صعيد مصر، وأنه كان قائد للجيش فى الحملات التى أرسلها الفرعون إلى ملك كوش (بالنوبة)، وأنه كان وزير خزانة الإمبراطور والمدير الأعلى لمعابد الآلهة المقدسة، بمعنى أنه وزير فرعون مصر كان يدير لفرعون كل الشئون العامة والشئون المالية للدولة، وكان بمثابة وزير التفويض فى الدولة العباسية. ويواصل د. بدوى تعليقه على هذا الأمر بقوله: "ونحن نفترض أن أسم هامان الوارد فى القرآن مقارب لاسم آمون، ومن السهل لاسم آمون أن يحرف ويتحول إلى آمان، بمعنى الوظيفة الكبرى التى يؤديها رئيس الكهنة للملك الإله وقيامه بعمل وزارة التفويض نيابة عنه. وبذلك تكون كلمة هامان الواردة فى القرآن، وتعنى وظيفة وزير التفويض لفرعون، لا تنفى أنه وزير فرعون مصر، وإن أى قول يخالف ذلك هو قول خاطئ لا أساس له من الصحة".

وبنهاية هذا الفصل ينهى د. بدوى كتابه القيم مدافعاً عن كتاب الله المنزل، راداً سهام أعداء هذا الكتاب إلى نحورهم، وموضحاً بالدليل القاطع

والرأى الساطع ما ألبس على المستشرقين فهمه من بعض الموضوعـات التـى أثاروها وحاولوا التشكيك فيها إنطلاقاً من رغبتهم فىالتشـكيك فـى كتـاب اللـه العزيز الحكيم. ولكن الله تعالى وعد ووعده الحق بـأن ينصـر دينـه ولـو كـره المشركون وأن يحفظ كتابه الذى قال تعالى عنه: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ ، وصدق الله العظيم وأن الحمد لله رب العالمين.

All Correspondence to be directed to:

Editor - in Chief: PROF. S. A. EL - NASSERY,

Cairo University, Faculty of Arts,

Orman, Giza, A. R. E.

رقم الإيداع : ٨٨/٧٣١٧

الترقيم الدولى ٩ – ٠٢٦ – ٢٣٨ – ٩٧٧

Cairo University
Faculty of Arts

THE EGYPTIAN HISTORIAN

STUDIES & RESEARCHES IN HISTORY & CIVILIZATION

A BIANNUAL PUBLICATION OF
THE DEPARTMENT OF HISTORY

Volume 13 (JULY 1994)

Cairo University
Faculty of Arts

THE EGYPTIAN HISTORIAN

STUDIES & RESEARCHES IN HISTORY & CIVILIZATION

A BIANNUAL PUBLICATION OF
THE DEPARTMENT OF HISTORY

Editor - in - Chief: Porf. S. A. EL - NASSERY

Volume 13 (JULY 1994)

محتوى العدد